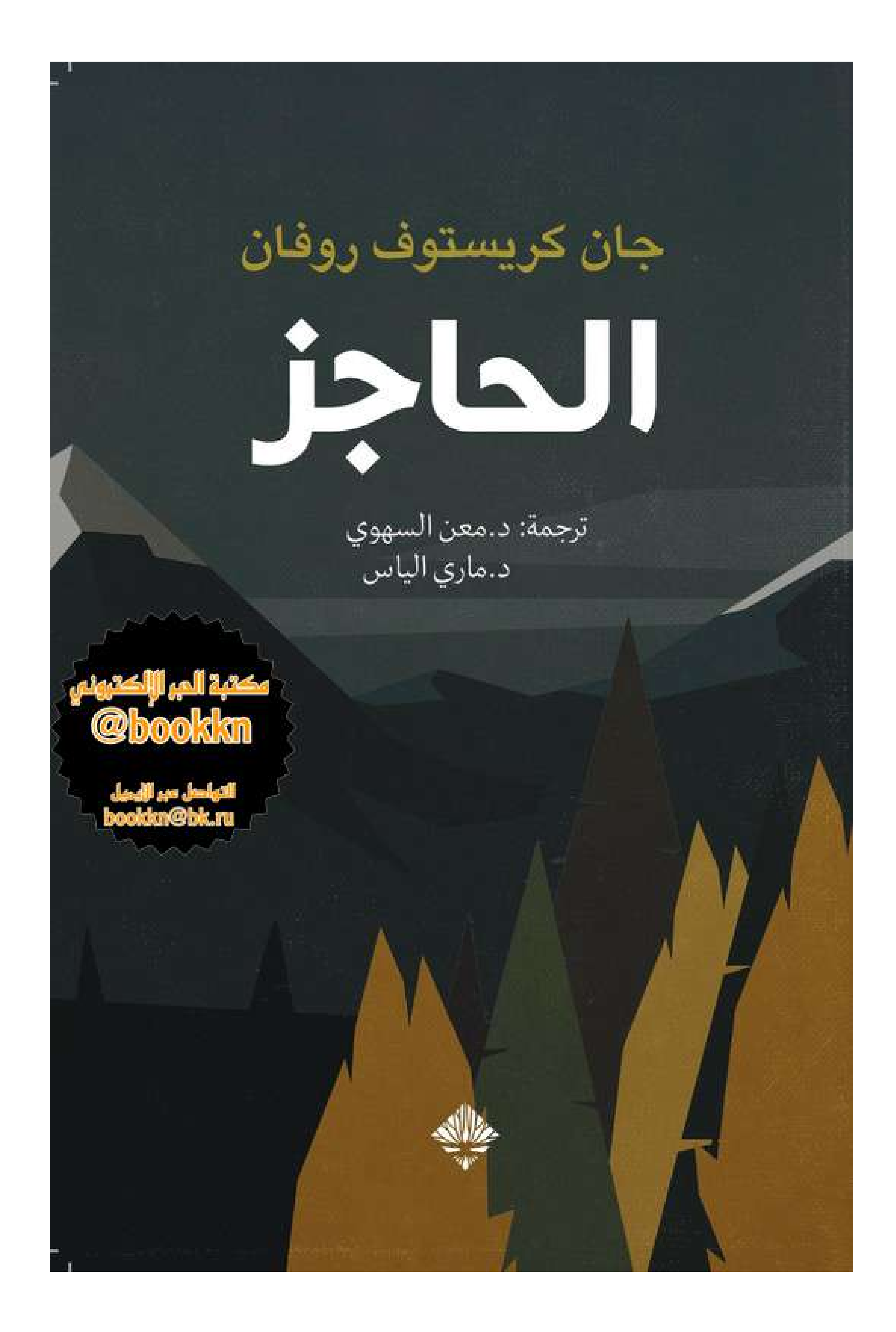


ترجمة: د. معن السهوي
د. ماري الياس


جان كريستوف روفان
الحاجز
ترجمة: د. معن السهوي
د. ماري الياس
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
التواصل عبر الإيميل
bookkn@bk.ru

الحاجز





CHECK-POINT
Jean-Christophe Rufin

الحاجز – رواية
تأليف: جان كريستوف روفان
ترجمها عن الفرنسية: د.معن السهوي – د.ماري الياس

تصميم الغلاف: الناصري
ISBN: 6 - 61 - 540 - 9933 - 978
الطبعة الأولى: 2021

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا – دمشق – ص.ب: / 9838/
هاتف–فاكس: / 6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net
twitter.com/AdwanPH fb.com/Adwan.Publishing.House

جان كريستوف روفان

الحاجز

رواية

ترجمها عن الفرنسية:
د.معن السهوي – د.ماري الياس

خلق الله رجالاً أقوياء، ورجالاً ضعفاء

وأنا جعلتهم متساوين

صاموئيل كولت – مخترع المسدس

المحتويات

تمهيد

البوسنة الوسطى، 1995

أوقف مارك الشاحنة من دون سابق إنذار .

– أعطني المنظار.

أخرجتْ مود المنظار من علبة القفّازات، وناولته إيّاه، وأخذت تراقبه، وهو يحدّق مطوّلاً في الأفق بعد أن ترجّل ووقف على قارعة الطريق.

استطاعت مود – على الرغم من ألمها – أن تنهض وتمسح البخار الذي تكثّف على النافذة. وفّر لهما المكان الذي توقّفا فيه رؤيةً بانوراميّةً واسعةً، مكّنت مارك – على الرغم من الثلوج المتساقطة – من رؤية مجمل الهضبة التي اجتازاها. لو استطاع التقدّم أكثر لكان بوسعه رؤية البحر الأدرياتيكيّ. كان الطريق الذي اتّبعاه يمرّ تارةً بمنخفضات، وتارةً أُخرى بنقاطٍ مرتفعةٍ، توقّفا على قمّة إحداها. لم يكن بمقدور مود، بالعين المجرّدة، سوى رؤية المساحات البيضاء التي امتدّت أمامها على طول النظر، وكان من الممكن فقط تمييز خرائب أبراج أحد القصور القروسطيّة، التي برزت معالمها من جهة الجنوب على خلفيّةٍ من الغيوم المثلجة. صعد مارك الشاحنة، ورمى بالمنظار على لوحة العدّادات، وانطلق، وقد بدا عليه توتّرٌ شديد .

– ماذا رأيت؟

– لقد مرّوا .

التزمت مود الصمت بعد أن شعرت بمقدار الملامة التي يشي بها صوته. لامت نفسها لأنّها مصابةٌ، وغير قادرةٍ على القيادة، فلن يستطيع مارك وحْده الحفاظ على مسافة أمانٍ كافيةٍ في حال كان من يلحقون بهما يتناوبون على القيادة. لا بد من أنّه يفكّر بالأمر، ويحسب النتائج التي سيترتّب عليها إخفاقهما في الاستمرار، كالصدام الحتميّ معهم، وانكشاف الحمولة، أو حتّى الموت.

حاولت مود أن تتحرّك، إلّا أنّ إصابتها بدت ميؤوساً منها، فما إن حاولت مدّ يدها حتّى انتاب ظهرها ألمٌ حادٌّ لدرجة أنّها رغبت بالبكاء .

- كم من الوقت يلزمهم حتّى يلحقوا بنا؟

- بالكاد ستّ ساعات .

- ما العمل؟

لم يجبها، فأثار ذلك حنقها، وأشعرها بأنّ حضورها مثل عدمه. كان محيّاه العدائيّ لا يساعدها على منع نفسها من التفكير بما خالجها من خواطر في الّليلة الفائتة : إنّه لا يعمل إلّا وحده، وذلك هو الوجه الآخر لقوّته، والقاعدة العامّة في عالمه.

انتابت مود الرغبة بالبكاء، ولامت نفسها على ذلك.

تابع الاثنان طريقهما بصمتٍ قرابة الساعة قبل أن يوقف مارك الشاحنة مرّةً أُخرى، فجأةً ومن دون مسوّغٍ، وينزل إلى الشارع من دون أن ينطق بحرف. رأته مود يقرفص أمام قمرة القيادة يتحسّس الأرض المتجمّدة قبل أن يتّجه إلى الخلف، ولمّا عاد كانت ندف الثلج تغطّي شعره؛ لقد بدأت السماء تثلج بكثافةٍ، وما هي إلّا لحظات حتّى اكتسى الزجاج الأماميّ بقشرةٍ بيضاء.

شغّل مارك ماسحات الزجاج، فوضح المنظر أمامها، وانتبهت إلى وجود طريقٍ ضيّقٍ يتفرّع إلى اليسار، مغطّى بالثلوج، ولم تكن قد لَحظته من قبل. لا بدّ من أنّ مارك قد أوقف الشاحنة في هذا المكان بالتحديد ليكتشفه.

- أتريد الصعود من هنا؟

لم يحتج مارك إلى الرد، فقد كان قد أدار مقوده في ذلك الاتّجاه، وبدأ بالصعود. تقدّمت الشاحنة بصعوبةٍ في الأمتار الأولى؛ لشدّة انحدار الطريق قبل أن يصبح انحداره معقولاً. لا بدّ من أنّه طريقٌ مسدودٌ بلا شكٍّ، مخصّصٌ للوصول إلى حقلٍ، أو لولوج حظيرة.

- أتظنّ بأنّ الثلج سيمحي أثرنا؟ أهذا ما ذهبت تتحقّق منه؟

اكتفى بالإيماء برأسه.

اختفت معالم الطريق فجأةً! فأصبحا محاطين بالبياض من دون أيّة علامةٍ تشير إلى أيّة جهةٍ ينبغي المتابعة. مع الأسف، لم يكونا قد ابتعدا عن الطريق الرئيس بمقدارٍ كافٍ كي يتوقّفا، فترجّل مارك مجدّداً، وراح يمشي في الثلج ليرى إن كان بإمكانه متابعة الصعود، واختفى عن نظر مود خلف سياجٍ رصّعه الثلج بالبياض .

أوشكت على فقدان أعصابها، وتملّكها نوعٌ من الحنق لم تكن تعلم إنْ كان ينمّ عن يأسٍ أم عن غضبٍ، أو عن خجلٍ، وشعرت بأنّها ربّما كانت تُقْدِم منذ زمنٍ – أو حتّى منذ الأزل – على اتّخاذ خياراتٍ خاطئة؛ لقد أخطأت بمرافقتها هذا الرجُل، وباستثنائه من الحذر الذي لطالما حماها من الإهانة والعذاب، فأطلقت صرخةً قويّةً من شدّة الألم، والخيانة، والضياع الذين شعرت بهم .

أراحتها الصرخة الطويلة التي أطلقتها حادّةً في البدء قبل أن تخمدها بنبراتٍ جهيرة، فأعادت الكرّة، إلّا أنّها كانت تفتقد العفويّة هذه المرّة، واستعادت الثقة بنفسها، والإرادة والقوّة، وقطعت عهداً، ووعدت نفسها بألّا تكظم غيظاً بعد الآن.

عاد مارك بعد قليل، وتراءى لها في البدء كخيالٍ يتحرّك في ثلجٍ يتساقط ويدور كالدوّامة، ولم تتّضح لها معالمه التي كستها الثلوج إلّا عندما فتح باب الشاحنة .

– هل وجدت معبراً؟

ولمّا لم يتكلّف عناء الردّ، صفعته من دون أن تعبأ بالألم الذي كان قد قسم ظهرها

.

I
المهمّة

1

كانوا في الشاحنة، في مساءٍ خريفيٍّ محبّبٍ بالنسبة إلى مود، فبرودة الجوّ لم تكن تتطلّب إغلاق النوافذ. كان المقود المصنوع من نوعٍ من المطّاط كبيراً إلى درجة أنّ المرء يحتاج إلى أن يفتح ذراعيه عريضاً كي يستطيع المناورة به، هذا عدا عن أنّه ينقل ارتجاجات المحرّك إلى جسم السائق؛ أمّا عند صعود المنحدرات، فأعطاها المقود انطباعاً بأنّها تمسك بنير دابّة حراثةٍ أكثر من كونها تقود شاحنة .

كانوا قد غادروا مدينة ليون منذ عشرة أيّام. تتالت الأيّام برتابةٍ، على الرغم من تنوّع المناظر الطبيعيّة التي مرّا بها، وبعد أن عبروا نفق الجبل مون بلان، مرّا بمحاذاة وادي أوست، ثمّ ساروا على امتداد سهل بو. كانت أوراق الأشجار في نهاية الخريف تبدو كأنّها متوهّجة، وأشجار السرو تبدو كأسهمٍ سوداء برزت على خلفيّةٍ من سماواتٍ ذات زرقةٍ عميقةٍ، إلّا أنّ المناظر أضحت جبليّةً أكثر، والألوان باهتة، بعد أن تجاوزوا محلّة « تريست » . تمنّت مود بعد قطعهم حدود كرواتيا لو أنّها تستطيع المرور بـ « زغرب » لترى ساحة القدّيس مارك، والتحصينات القروسطيّة، التي قرأت عنها قبل بدء الرحلة في دليلٍ عن المدينة يعود إلى الستينيّات، كان والداها قد اشترياه عندما ذهبا في رحلة شهر العسل، وقضياها على شواطئ مقاطعة « الدالمات » ؛ لكنّ أملها قد خاب حين تجاوزا المدينة من دون المرور بالساحة. في إيطاليا، قام ليونيل بتذكيرها، بطريقةٍ لا تخلو من الفظاظة، بالغاية التي قامت عليها رحلتهما حين طلبت إليه أن يعرّج على مدينة « بيغرام » : « نحن نعمل لحساب منظّماتٍ إنسانيّةٍ، ولسنا سيّاحاً » . لقد كان هو قائد الحملة، ولم يكن يفوّت فرصةً من دون التذكير بذلك، هذا لأنّ المؤسّسة الخيريّة

الليونيّة « لا تيت دور » الرأس الذهبيّ (التي تستمدّ اسمها من الحديقة التي تقوم بقربها) عهدت إليه بمسؤوليّة هذه القافلة المتوجّهة إلى البوسنة حيث تدور الحرب .

كانت مود تقود الشاحنة حين يحين دورها مثلها في ذلك مثل الرجال، ومضى وقتٌ طويلٌ منذ أن تخلّى الآخرون عن السخريّة من طريقة قيادتها، ولقد كان كافياً أن يقع ليونيل في خطأ عندما مزّق شادر الشاحنة بطول متر عند زاوية أحد المنازل في إيطاليا، كي يفهم زملاؤها الذكور بأنّهم هُم أيضاً لا يتمتّعون بقدراتٍ خارقة. ربّما كانت مود تقود ببطءٍ، إلّا أنّ قيادتها كانت آمنةً وحذرة. لقد فهم الجميع بأنّ هذه الشاحنة التي تزن خمسة عشر طنّاً لا يحقّها خطرٌ حين تقودها مود .

على الفراش الخلفيّ، كان فوتييه يشخر بين حينٍ وآخر، وهو الوحيد من بينهم الذي فضّل أن ينادوه باسم عائلته عوضاً عن اسمه الأوّل كما فعل الآخرون، وكان يعرّف عن نفسه بـ : « فوتييه السمين » ؛ كي يحظى بودّ الآخرين، إلّا أنّه في الحقيقة لم يكن سميناً؛ إذْ كان بالإمكان تمييز عضلاته، وليس الدهون، من تحت قميصه القطنيّ المتّسخ. رأسه كبيرٌ تحدّه خصلات شعرٍ صهباء مجعّدة، وأنفٌ مسطّحٌ أسبغ عليه مظهراً قرويّاً يتناقض بشدّة مع الهيئة الطلابيّة لكلٍّ من ليونيل ومود، وعرّف عن نفسه في البدء بأنّه ساعٍ باريسيٌّ جوّال يقضي مدّة نقاهةٍ بعد أن تعرّض لحادث سير. لم يصدّق أحدٌ ما كان يرويه، والشيء الوحيد المؤكّد هو أنّه كان أكبر سنّاً من باقي الفريق، وكان ليونيل يعتقد أنّ سنّه أربعون عاماً؛ أمّا مود التي لم تتجاوز عامها الواحد والعشرين فعدّتهُ مُسنّاً .

كان ليونيل جالساً على المقعد يلفّ لفافة تبغٍ بصمت، وقمرة القيادة تعبق برائحة المحروقات وزيوت التشحيم، فيما عدّتْ مود نفسها محظوظةً؛ لأنّها تقود الشاحنة الأماميّة في القافلة، الأمر الذي جنّبها استنشاق الدخان الأزرق المنبعث من عوادم الشاحنة الثانية. الشاحنتان كانتا من النوع نفسه تقريباً، واشترتهما « لا تيت دور » مستعملتين بسعرٍ رخيصٍ جدّاً بعد أن أنهكتهما أجيالٌ من السائقين الذين لم يوفّروا استعمالها .

– لحظات وندخل مناطق سيطرة الصرب .

قال ليونيل، وهو يمدّ لفافة التبغ التي أشعلها حالاً، ثمّ أخذت منها مود سحبة دخانٍ، وأعادتها إليه .

– هل وضعت فيها شيئاً؟

بادرت بالسؤال، وقد تجهّم وجهها .

- تبغاً فقط .

ليونيل طويلٌ، ونحيلٌ، وذو أنفٍ طويلٍ معوجٍّ، وعظامه بارزةٌ في وجهه الشاحب، وسيماء وجهه خاليةٌ من العلامات الفارقة، فهو يشبه بذلك تلك الوجوه التي يصعب على الشهود إعطاء رسمٍ تقريبيٍّ لها للشرطة. لا بدّ من أنّه كان واعياً لهذا الأمر، فحاول أن يعطي وجهه نوعاً من الفرادة بأن وضع حلقةً فضيّةً على حاجبه الأيمن. مضى على عمل مود معه في « ليون » ثلاثة أشهر، ولطالما عاملها بنوعٍ من الفوقيّة؛ لافتقارها إلى الخبرة، كونها قد انضمّت حديثاً إلى الجمعيّة. على كلّ حال، لم يكن ليونيل كثير الكلام؛ وعندما يتكلّم يكون ذلك بغية إعطاء أوامر بنبرةٍ قاسية، وكان معروفاً من قِبَل المجموعة كلّها بأنّه يدخّن لفائف الحشيش من الصباح حتّى المساء، وذلك لا يعني أنّ الآخرين كانوا يكرهون الحشيش، لكنْ لم يكن أحدٌ منهم يستهلك المقدار نفسه الذي كان يستهلكه ليونيل؛ لقد كان هو مزوّد المجموعة بالحشيش، الذي يضعه في أكياسٍ صغيرةٍ مكتوب عليها : « حليب مركّز » .

كلّما اقتربت المجموعة أكثر من « كراجينا » ، كان الطريق المتموّج يمرّ بأماكن أكثر فقراً؛ فقد مرّوا بقرى تبدو بلا روحٍ، تصطفّ بيوتها المبنيّة من صخرٍ وقرميدٍ كالسبحة على طول الطريق، وتكتظّ ساحاتها بالزبل وبآلاتٍ زراعيّةٍ أكلها الصدأ، ومن وقتٍ إلى آخر، كان ظهور كنيسةٍ بيضاء مع برجها المدبّب وسط المزارع يعطي انطباعاً بأنّها تشبه القرى النمساويّة، كأنّ خطباً قد حلّ بها، ولم يكن هناك بعد أيّ أثرٍ لمعارك، سوى تلك التي يخوضها الإنسان مع الطبيعة منذ بدء الوجود كي يحصل على قوت يومه، ولكنّهم، على الرغم من ذلك؛ كانوا واعين لاقترابهم من الأرض التي تدور عليها الحرب .

- لن يطول الأمر قبل أن نصل إلى الحواجز الأولى، أليس كذلك؟

سألت مود من دون أن تشيح بنظرها عن الطريق، وأومأ ليونيل برأسه موافقاً .

- لا، لن يطول بنا الأمر .

حتّى الآن، اقتصرت تجربتهم على عبور الحدود الرسميّة بين الدول؛ أمّا الحواجز، فشيء آخر، فحاجز التفتيش : هو نقطةٌ متحرّكةٌ لا يمكن التنبّؤ بوجوده، يقع بين مناطق

تسكنها إثنيّات مختلفة، ويعمل تحت إمرة قادةٍ صغار محلّيّين، وأعضاء الفريق الذين أقاموا سابقاً في البوسنة كانوا يتحدّثون عن هذه الحواجز كلّ مساء. لم يستعملوا المقابل الفرنسي لها : نقطة تفتيش، التي توحي بأنّ الحاجز ظاهرةٌ عاديّةٌ تعبّر عن حاجةٍ طبيعيّةٍ يلجأ إليها الناس أحياناً، بل كانوا يفضّلون استعمال كلمة : « تشيك بوينت » الإنجليزيّة، تلك الكلمة الفضفاضة تعبّر بدقّةٍ أكثر عن الارتجاليّة، والفوضى، والمباغتة، والخطورة التي تتّصف بها هذه الحواجز، وكانت مود متشوقةً للتعرّف أخيراً إلى ماهيّتها .

شقّت الشاحنة طريقها بتثاقلٍ على الطريق المتعرّج، وغابت الشمس عند الساعة السادسة، وأصبح عليهم أن يجدوا مكاناً يبيتون فيه، وفي نهاية منعطفٍ طويلٍ سمعت مود صوت زمّور شاحنة، فحدّقت في المرآة الخلفيّة المربّعة الكبيرة بعد أن أمسكتها لتخفّف من ارتجاجاتها، وتستطيع الرؤية بوضوح، فرأت ذراعاً تلوّح لها من خارج باب الشاحنة الخلفيّة، مشيرةً إلى طريقٍ رمليٍّ على الجانب اليساريّ يفضي إلى موقف سيّاراتٍ مهجورٍ ممتلئٍ بالأخاديد التي تدلّ على وجود مشروع بناء، وفي إحدى زواياه كومة من البحص كستها أعشابٌ بريّة، فدخلت مود بالشاحنة إلى الموقف، وأوقفتها بالقرب من السياج العشبيّ المكسوّ بالغبار الأبيض، ونزل ليونيل ليكتشف المكان .

في قمرة القيادة، مالت مود برأسها إلى الخلف كي تريح عضلات عنقها المتشنّجة بفعل القيادة الطويلة، وبما أنّ مقعد السائق لا يمكن تحريكه إلى الأمام على نحوٍ كافٍ، اضطرّت إلى وضع وسادةٍ خلف ظهرها كي تتمكّن من الضغط على الدوّاسات؛ إذْ إنّه قد توقّف نموّ مود منذ عامها الثالث عشر، وعلى الرغم من أنّ عمرها يبلغ الآن واحداً وعشرين عاماً، إلّا أنّها تتحسّر لأنّها لم تحظ بقامةٍ طويلة. عادةً ما تكون السيّدات القصيرات عرضةً لاهتمامٍ سخيفٍ من الرجال، وهي كانت ترفض أن تُعامل كأداة زينة .

– حسناً، يمكننا المبيت هنا .

قال ليونيل عندما عاد .

أطفأت مود المحرّك، فتوقّفت الارتجاجات بعد خضّتين قويّتين أخيرتين، وأحسّت بالراحة بينما كان جسدها ما زال متأثّراً باهتزازات محرّك الديزل، فلطالما كانت عودة الهدوء لحظة سعادة تامّة بالنسبة إليها، وأشبه بنشوةٍ جسديّةٍ، أو بحياةٍ جديدةٍ، يتوقّف العالم

المحيط فيها عن كونه منظراً طبيعيّاً، ليصبح مكاناً عاديّاً، تملأه أصواتٌ خفيفةٌ تمتزج بزقزقة العصافير التي تصل إليها عبر النافذة المفتوحة، والطقطقة الصادرة عند ارتخاء كتلة صفائح الحديد تشبه حركة حصانٍ تحرّر من عنانه بعد ارتحالٍ طويل؛ في تلك الّلحظة، بدا لـمود أنّ هذه الحياة المرفوضة من قِبل عائلتها هي ما كانت ترغب به دائماً .

فتحت مود الباب، وترجّلت عن الشاحنة ملامسةً الأرض بقدميها، أراحتها بعد خطواتٍ قليلةٍ، وأبعدتها عن رائحة المحروقات المنبعثة من المحرّك، نحو روائح الطبيعة الرقيقة، التي كانت بمنزلة لذّةٍ ثانية هذا المساء. نزعت نظّارتها، وراحت تمسحها بجانبٍ من الفرو الذي كانت ترتديه، كانت نظّارتها كبيرة الحجم، وداكنة العدسات، وذات هيكلٍ ثخينٍ يغطّي شطراً كبيراً من وجهها، اختارتها عمْداً لتخفي عينيها الزرقاوين اللتين كانتا سبباً لمجاملات الآخرين وغيرتهم على حدٍّ سواء .

في الكيلومترات الأخيرة التي عبروها كان الطريق منحدراً انحداراً شديداً؛ بحيث يمكن رؤية السهل والأجمات عند النظر إلى الأسفل. صخور ضخمة بيضاء الّلون تبعثرت على المساحات الخضراء التي تحيط بالمرآب، إلّا أنّه احتوى على مساحةٍ كافيةٍ مسطّحةٍ لنصب الخِيام .

استفاق فوتييه مزمجراً، ونزل من الشاحنة بدوره، وهو يحكّ رأسه الأصلع. لقد كان يوحي دائماً بأنّ مزاجه سيّئ، وذلك يعود – بلا شكٍّ – إلى شكل فمه عديم الشفاه، وجفونه المترهّلة. الكلّ يخشاه؛ فقد كانت عيناه السوداوان دائمتيّ الحركة، تحدّقان في الاتّجاهات كلّها، والجميع يهابون تحديقاته، وفي الحقيقة، كان الأمر يتعدّى التحديق؛ فهو لا يستطيع منع نفسه من التمحيص والتنصّت على المحادثات، والاختفاء لمدّةٍ في أيّة مدينةٍ يقفون فيها، والعودة ليقدّم تقريراً مفصّلاً عن أدقّ أسرار هذه الأماكن في كلّ مرحلةٍ من مراحل رحلتهم، وهناك من كان يظنّ أيضاً أنّه يعبث بحاجياتهم .

اقتربا منهم أليكس ومارك، سائقا الشاحنة الثانية، وهما يتمطّيان. لطالما كانت لحظات لقاء الفريقين صعبة؛ إذْ خيّم على المجموعة جوٌّ ثقيلٌ مشبعٌ بالعدائيّة منذ بداية الرحلة، لم يكونوا يعرفون بعضهم، باستثناء مود وليونيل، فقد وُظِّفَ الآخرون منذ مدّةٍ قصيرةٍ، وأقلّ ما يمكن قوله هو : إنّه ما من وشائج قويّة تربط بين أعضاء الفريق الخمسة، ولا شيء يوحي بتحسّن هذه العلاقة على الرغم من الكيلومترات التي قطعوها،

بلْ على العكس، تشكّلت أحلاف ظرفيّة تجمع مود وليونيل اللّذين يعرفان بعضهما، ويشكّلان فريقاً من جهة، ومارك وأليكس، سائقي الشاحنة الثانية، من جهةٍ أُخرى؛ أمّا ليونيل، فلم يكن يخفي اشمئزازه منهم كلّهم؛ ذلك كلّه جعل من لحظات اجتماعهم لحظاتٍ متوتّرة .

– سنكون بأمان هنا .

قال أليكس، وهو ينظر إلى أطراف المرآب .

استكشف مارك محيط المكان، والحذر بادٍ عليه .

خدم الاثنان في الجيش سابقاً، وكانت أعمارهما متقاربةً، لا تتجاوز الثلاثينيّات، ولكنّهما لا يشبهان بعضهما؛ فوجه أليكس خلاسيّ اللّون، وعيونه كبيرة، وذات ملامح آسيويّة، وأنفه مُنمنم. لم يسأله أحدٌ عن أصوله الهجينة التي منحته لون بشرته البرونزيّ، وشعره المجعّد. كانت مود تجده جميلاً، لكنّها لم تكن ترغب بأن يعلم ذلك، فيما كان مارك يتمتّع بجسمٍ رياضيٍ هو الآخر، ولكنّه أطول من أليكس؛ لقد كان مربوعاً، وأكتافهُ عريضةً، وعضلاتُ صدره بارزةً، وفكّاه مربّعيّ الشكل، وبشرتهُ مائلةً إلى السمرة، وشعرهُ أسْودَ فاحماً، وبدت عيناه دائمتيّ الترقّب، إلّا أنّه كان يحاول أن يظهر طبعاً هادئاً، وسلوكاً ينمّ عن فحولةٍ لم تعجب مود منذ البداية، ويتمتّع أليكس بليونة لاعبي التنس، في حين أنّ مارك كان مُهيّأً أكثر للعب رياضات تحتاج إلى قوّةٍ بدنيّةٍ، مثل : الرغبي والملاكمة، لكنّهما كانا يتشاركان ببعض الأمور، مثل : المشية، والوقوف مشدودي الظهر، ورفع الرأس عالياً، وعلى الرغم من محاولاتهما كلّها للاندماج في المجموعة من خلال اعتماد اللباس الذي درج عليه العاملون في المؤسّسات غير الحكوميّة من بناطيل الجينز المهلهلة، والقمصان القطنيّة ذات الألوان الماحّة، إلّا أنّ اختلافهما عن المجموعة بقي ظاهراً للعيان، يبدو أنّ النظام العسكريّ كان مكوّناً رئيساً في شخصيّتهما، وكان بالإمكان رؤية الجنديّ الذي يختبئ خلف هذه القشور الخدّاعة بسهولة .

الطقوس المسائيّة هي ذاتها منذ بداية الرحلة؛ تبدأ بإخراج الموقد من الشاحنة التي تقودها مود، ومعدّات الطبخ من المركبة الأُخرى، وكانوا قد جلبوا معهم علب كونسروة من « ليون » ، جمعوها في صندوقين خشبيّين، وواظبوا طوال الرحلة، عندما تسنح لهم الفرصة، على شراء منتوجاتٍ طازجة. منذ أن غادروا إيطاليا، لم يعودوا يجدون سوى البيض والحليب الذي كان المزارعون يسكبونه لهم من صفائح حديديّة بيضاء. اشتروا

بالقرب من « زغرب » جبناً طازجاً مرّ الطعم، وعلى الرغم من ذلك، كانت مود تفضّله على الفاصولياء المعلّبة .

كان فوتييه مولعاً جدّاً بإشعال النار بنفسه، سواء كان ذلك بالغاز أم بالحطب؛ إذْ خصّص لكلّ واحدٍ منهم مهمّةً يضطّلع بها بالتناوب؛ فقد أدركوا منذ البداية أنّه لا يمكن تحميل الفتاة الوحيدة في المجموعة أعباء الطبخ كلّها، وحاول ليونيل مرّةً أن يجعل من هذا الأمر موضوعاً للتندّر عندما قال لـمود : إنّها تفتقد روح العطاء؛ لأنّها تركت أربعة شبّانٍ يتعاركون وحْدهم مع قُدور الطبخ، فما كان منها إلّا أن ردّت عليه بقسوةٍ أخرسته، وكنوعٍ من الردّ، كان الذكور يتهكّمون عليها؛ لأنّها تجد صعوبةً في نصب الخِيام حين يأتي دورها في ذلك. لم تكن تلك المرّة الأولى التي توجّب فيها على مود أن تجابه هذا النوع من التصرّفات؛ فقد كان أخوها الأكبر، سابقاً، لا يوفّر مناسبةً للاستهزاء بها، وكانت تكره ملحوظاته الغبيّة، ولكنْ مع الوقت أصبحت تنظر إليها كنوعٍ من التحفيز، والغضب الذي كان يولّده في داخلها أصبح دافعاً محرّكاً، ومنذ الصغر، قرّرت أن تتجاوز بنجاحٍ التحدّيات التي تصادفها كلّها، وكان حصولها على رخصة قيادة الشاحنات الكبيرة بالنسبة إليها أوّل انتصارٍ كبير.

الانتهاء من تحضير العشاء كان بداية لحظة سلامٍ يتلاشى فيها التوتّر، بعد أن يجلس أعضاء المجموعة الخمسة على الأرض متحلّقين حول النار. يبقى فوتييه منعزلاً دائماً، يشرب بعيداً عن البقيّة، وبعد أن يلفّ ليونيل لفافة الحشيش، كان يمدّها إلى كلٍّ من مود وأليكس اللذين يسحبان منها نفساً صغيراً؛ أمّا مارك، فكان لا يقربها البتّة. شربوا خلال المراحل الأولى من الرحلة زجاجات النبيذ التي جلبوها معهم كافّة، ومنذ أن دخلوا حدود البلقان باتوا لا يشربون سوى البيرة، فقد كان الشراب الأكثر توفّراً، ولا تخلو منه أيّة قرية .

– غداً سنمر بالحاجز الأوّل .

قال ليونيل، وهو مستلقٍ بجانب النار، متّكئاً على مرفقيه .

– كرواتيّون؟

طرح فوتييه السؤال من دون أن يبدو عليه أنّ الأمر يهمّه، على الرغم من أنّه كان يتلمّس القرط الذهبي الصغير في أذنه اليمنى، الأمر الذي تجد مود فيه إشارةً على

التركيز عنده .

- بل من صرب مدينة « كارجينا » .

أجاب ليونيل .

- الجيش الصربي؟

- لا، بل المليشيات الصربيّة .

- « المنطق يقول : إنّنا يجب أن نلتقي بالكرواتيّين أوّلا » . أجاب فوتييه مُصرّاً على رأيه : « إذا صادفنا الصرب أوّلاً، فذلك يعني أنّنا لم نتّبع الطريق الرئيس الذي يمرّ بـِ (توزلا) ، أليس كذلك؟ » .

لم يكن ليونيل يحبّ أن يستفيض في إعطاء تفاصيل عن المسار، وكان يحرص على خرائط الطريق كما لو كانت حبيبةً يغار عليها، فيعطي إرشادات الطريق كلّ يومٍ بيومه؛ كي يتحاشى أن يناقشه أحد في الموضوع .

- « معك حق » . أجاب ليونيل متهكّماً : « سنتّجه يميناً لنسلك الطريق الذي يمرّ جنوب لاكراجينا » .

- ما الشيء الذي يسمّى لاكراجينا في الحقيقة؟

سألت مود .

كان ليونيل يستسيغ مثل هكذا أسئلة عامّة تتيح له أن يبدو بمظهر القائد والعارف بخفايا الأمور .

- الكلمة تعني الهوامش، أو الحدود؛ إنّه الشريط شبه المهجور الذي يحدّ البوسنة من جهة الغرب، منطقة ليس فيها إلّا القليل من السكّان، وقد طرد الصربُ الكرواتيّين منها، واستلموا زمام الأمور هناك. سوف ترون أنّهم ليسوا سوى فلّاحين يتسلّحون بمعازق وبنادق الهواء المضغوط؛ أي : لا شيء ممّا سترونه بعد ذلك .

مضى على ليونيل ثلاث سنوات، وهو يعمل مع الجمعيّة، وشارك خلالها في مهمّةٍ في جمهوريّة أفريقيا الوسطى، وكذلك في قافلة مساعدات أولى إلى البوسنة قبل ستّة أشهر، وخدم بعدها في مقرّ الجمعيّة في « ليون » ؛ فخبرته في العمل كانت تعطيه -

حين يتكلّم – ثقةً كبيرةً بالنفس، على الرغم من أنّه لم يكن يبلغ سوى أربع وعشرين عاماً .

– حواجزهم ليست سوى نادرة إذا ما قارنتها بالتي ستتبعها؛ ستكون نوعاً من التدريب لكم .

قام فوتييه بشرب كميّةٍ كبيرةٍ من البيرة من فوهة الزجاجة قبل أن يمسح فمه بكمّه، وكان من الواضح أنّ لديه أسئلة أُخرى يسألها، لكنّ ليونيل لم يكن يفسح له المجال من خلال مقاطعته؛ إذْ أردف قائلاً :

– أريد تذكيركم بكيفيّة التصرّف لدى المرور بالحواجز .

كانت لفافة الحشيش على وشك الانتهاء، فأخذ سحبةً طويلةً من العقب الرطب الذي بفعله استحالت أصابعه إلى اللّون الأصفر .

– إن سُئِلتم عليكم أن تجيبوا بأنّنا نتّجه إلى كاكاني في البوسنة الوسطى، ولدينا تصريحٌ من « قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة » كي نوصل مساعداتٍ إنسانيّةً إلى الّلاجئين؛ أمّا عن الحمولة، فهي عبارة عن موادّ غذائيّةٍ، وملابسَ شتويّةٍ، وأدوية، وعليكم ألّا تعطوهم أيّة إكراميّة إن طلبوا ذلك، مفهوم؟

كان يتكلّم، وهو يوحي بأنّه القائد، لكنّ مرافقيه العسكريّين السابقين كانا يستطيعان بخبرتهما السابقة الإحساس بأنّ ليونيل لم يكن يمتلك حسّ القيادة بالفطرة، وأنّ نبرته القاسية تخفي خلفها بعضاً من عدم الثقة بالنفس .

– وماذا نفعل في حال أرادوا تفتيش الشاحنتين؟

سألت مود .

– سوف نرفض .

أجاب أليكس مقاطعاً .

هزّ ليونيل كتفيه استهجاناً، ولحظ أليكس الحركة، فامتعض .

– ماذا؟ ألا تتّفق معي؟

– بالطبع لا . إذا أرادوا التفتيش فليفتّشوا، كيف لنا أن نمنعهم؟

ردّ عليه ليونيل، وهو ينظر إلى السماء .

ارتفع في السماء هلالٌ، ومرّت أمامه سحبٌ نحيلةٌ تدفعها الرياح العالية .

– « أنا أعرف حقيقة هؤلاء الناس » . ردّ أليكس : « اسمع منّي، إنّهم لا يجيدون سوى النباح، وإنْ حافظنا على رباطة جأشنا، لن يجرؤ أحد على تفتيش الشاحنات » .

خدم أليكس ومارك لمدّة ستّة أشهر في البوسنة ضمن قوّات الأمم المتّحدة (القبّعات الزرق) العام الفائت، وعلى العكس من مارك الغامض والكتوم، كان واضحاً أنّ أليكس يحبّ الحديث عن تجربته، ووجدته مود ظريفاً وجذّاباً؛ فقد كان اجتماعياً يرغب بالنقاش مع الآخرين؛ أمّا ليونيل، فقد كان ينظر إليه باشمئزازٍ وتعالٍ .

لم يكن ليونيل يحتمل أن يجاريه أليكس في معرفته المزعومة لهذه الأرض، وحتّى يهدأ كان يلجأ إلى إخراج كيس تبغٍ من البلاستيك من جيبه، ويبدأ بلفّ لفافة حشيشٍ محشوّة جيّداً .

حسم ليونيل الأمر قائلاً :

– أقول لك إنّهم لن يفتّشوا؛ ما من سببٍ يدفعهم إلى افتعال مشكلةٍ مع المنظّمات الإنسانيّة، فنحن نقدّم خدماتٍ جليلةً للجميع، ولو صدف والتقينا مجموعةً ليست على اطّلاعٍ بقواعد الّلعبة، سيفتّشون من دون مقاومةٍ منّا. يجب قبل كلّ شيء ألّا نستثيرهم، وألّا نستعرض عضلاتنا، أو نوحي بأنّنا أكثر ذكاءً، يجب ألّا نسمح لهم بأن يشكّوا في أمرنا لأيّ سببٍ كان.

أخذ ليونيل يفرك عينيه المتورّمتين بفعل الدخان، كما لو أنّه كان يرزح تحت ثقل المسؤوليّات الملقاة على كاهله، واختتم الحديث قائلاً :

– في نهاية الأمر، ليس لدينا شيء نخفيه .

عندما سمع أليكس هذه الجملة رمق مارك بنظرةٍ ونهض .

– ربّما يجب أن نفصح لك ...

تتابع كلّ شيءٍ بعدها بسرعة، ولَحظت مود الحدث الصغير الحاصل، وتولّد لديها الانطباع بأنّ فوتييه قد لَحظه أيضاً : كان مارك يراقب كلام زميله، ولمّا سمع الجملة،

التي بالكاد بدأها أليكس، جفل وانتفض واقفاً بكلّ حيويّةٍ، فأدركت مود أنّ ذلك بغية مقاطعة زميله الذي بالفعل توقّف عن الكلام عندها، لقد كانت متأكّدةً من أنّه ركله ركلةً خفيفةً في ظهره خلال هذه المعمعة .

قال مارك :

– هيّا إلى النوم!

وابتعد مصطحباً معه أليكس .

ارتاح ليونيل لانتهاء الحديث بانسحاب العنيدين، وراح يصيح :

– تصبحان على خير . الاستيقاظ في الساعة السادسة!

نظر فوتييه، وهو يمضغ علكته، نظرة كراهية إلى العسكريّين، ولم يكن قد توجّه إليهما بالكلام سابقاً، وبدا كأنّ حقداً مُبرماً يعتمل في قلبه تجاههما، فنهض واقفاً، وراح يُطفئ النار بجزمته السانتياغو السوداء القديمة الممزّقة .

دخل مارك وأليكس إلى الخيمة التي كانا يتشاركانها، في حين ظلّ ليونيل جالساً لبرهةٍ ريثما ينتهي من تدخين لفافة تبغه قبل أن يلتحق بـفوتييه في الخيمة الأُخرى، بينما كانت مود تنام على سرير الشاحنة .

صعدت مود إلى قمرة القيادة، وأغلقت الباب خلفها، وقبل أن تنزع ثيابها، ظلّت عدّة دقائق تنظر عبر الزجاج الأماميّ إلى الضوء المزرقّ الذي بثّه نور القمر في أرجاء المكان، فراحت تستذكر الليالي التي أمضتها في كوخ أهلها الجبليّ في مقاطعة « سافوا » العليا، عندما كانت تخرج ملتفّةً بغطاءٍ، والثلج حولها، إلى المصطبة الخشبيّة (الشرفة) كي تستسلم لأحلام اليقظة، لم تكن تشعر بحنينٍ إلى تلك اللّيالي، على العكس، كانت تشعر أنّ أحلامها تتحقّق، إلّا أنّه في هذه الأحلام التي أصبحت واقعها لم يكن من شيء يشبه هذا الجوّ المسموم الذي خيّب آمالها في هذه الرحلة .

كانت سعيدةً على الرغم من كلّ شيء .

2

صباحات شهر تشرين الأوّل/أكتوبر كانت دائماً مُتعِبة، ومنذ أن وصلوا إلى هذا العلوّ المرتفع، صارت الرطوبة تختلط مع البرد. الشباب الذين قضوا ليلتهم في الخيام وصلوا إلى حدّ التجمّد، ولكنّهم على الأقلّ لم يتفاجؤوا بالهواء الثلجيّ عندما غادروها؛ أمّا مود، وعلى الرغم من نومها في القمرة الجافّة والدافئة جدّاً في الشاحنة، فقد ارتجفت أعضاؤها كلّها لدى ترجّلها عنها، فارتدت ثياب أمس نفسها، التي لم تغيّرها منذ انطلاق الرحلة، وهي : بنطال جينز أخضر عفنيّ، وقميصٌ ثخينٌ من الصوف، ومعطفٌ بيج من الفرو القطبيّ، وحذاءٌ مخصّصٌ للنزهات الجبليّة، لم تختر أن يكون لباسها على هذا الشكل ليتلاءم وطبيعة الرحلة فحسب، بل لأنّها تكره أن تثير نظرات الشهوة لدى الآخرين أيضاً، لقد أخذت قراراً منذ سنواتٍ عديدةٍ بأن تقصّ شعرها الأشقر، وألّا ترتدي سوى ملابس واسعة وثخينة لا تُظهر شيئاً من مفاتنها، فكانت لا تخرق هذه القاعدة إلّا حين تذهب لرؤية جدّتها، التي كانت تحبّ أن تُظهر مود أنوثتها، وهي أحبّت أن تسعد الجدّة، وأحياناً أُخرى، كانت تتبرّج لنفسها، وتتعشّى مع قطّتها وحْدهما في غرفة الخدم التي كانت تستأجرها في ضاحية « فانسين » .

اليوم هي بعيدة كلّ البعد عن هذه النزوات، إلّا أنّها لم تستطع منع نفسها هذا الصباح، عندما بدأت ترتدي ملابسها، وهي نصف نائمةٍ، من أن تحلم بلبس قمصان خفيفة، وتنانير قصيرة، وصندل .

أشعل اختصاصيّ النار، فوتييه، موقدَ الغاز سيّئ الاشتعال، الذي لطّخ لهبه المائل إلى الصفرة أطراف القدْر الممتلئ بالماء بالسواد، وقام أليكس بتقطيع رغيف الخبز الكبير الذي اشتراه أمس من إحدى القرى، وأخذ ليونيل يلفّ – وهو جالسٌ على صخرةٍ – بيديه المرتجفتين لفافة تبغه الأولى لهذا اليوم .

وحْده مارك كان يحلق ذقنه كعادته عاري الصدر فوق إناءٍ من البلاستيك، وقد علّق على أحد الأغصان حافظة أدوات الحلاقة خاكية الّلون، والمزوّدة بمرآة، وكان يحافظ على شعره قصيراً؛ لأنّه كثيفٌ جدّاً؛ أمّا شعر ذقنه، فقد كان من شدّة كثافته يحيل وجهه إلى

اللّون الأزرق كلّ صباح، ولطالما تحاشت مود النظر إليه، فقد كانت لا تستسيغ الوشوم التي تصوّر أسلحةً وأفاعيَ على ذراعيه .

كان فوتييه، الذي لم يكن يغتسل أبداً؛ يرمق مارك من وقتٍ إلى آخر بنظرات اشمئزازٍ، فقد عدّ استعراض هذا الجسد بارز العضلات أمام الجميع نوعاً من الاستفزاز له .

الأعشاب المحيطة كانت مكسوّةً بهلامٍ أبيض، ولَحظوا مساء اليوم السابق – على بُعد قرابة مئة مترٍ باتّجاه الأعلى – وجود منزلٍ قليل الارتفاع، بجدرانٍ جافّةٍ يغطّيها سقفٌ من القشّ، ظنّوا في البدء أنّه ربّما كان زريبةً مهجورةً، إلّا أنّهم أدركوا أنّه مسكونٌ عندما رأوا أطفالاً بلباسٍ خفيفٍ قد خرجوا من المنزل فجراً، وراحوا يتأمّلونهم من فوق المنحدر .

لم ينتظر أعضاء الفريق خروج أهالي الأطفال، الذين سيكونون حتماً غير مضيافين، وهمّوا يلملمون مؤونتهم، ويطوون خيامهم مع عوازلها العلويّة والسفليّة المبلّلة بندى الصباح البارد، وقبل رحيله، نادى ليونيل الأطفال، وأعطاهم علبة مربّى، قدّمها لهم بفظاظةٍ من دون أن يبتسم، فتساءلت مود، التي كانت تراقبه : أكان عطاؤه هذا نابعاً من تعاطفٍ أم هو – بكلّ بساطةٍ – محاولةٌ لتعزيز سمعته كإنسانيٍّ عند الآخرين؟

كانت الشاحنتان تقلعان بصعوبةٍ دوماً، وتصدران أصواتاً تشبه الشخير؛ ولهذا قام الفريق مساءً بركنهما باتّجاه ميلان الطريق، كي يسهل عليهم دفعهما في حال واجهتهم صعوبةٌ في تشغيلهما، وكان عليهم أيضاً تحمية المحرّكات لمدّة عشر دقائق؛ لضمان عدم انطفائها ثانية، الأمر الذي يتيح لبعضهم أن ينام مجدّداً، وهو ينتظر في القمرة .

انطلق الفريق مع بزوغ أوّل خيوط الشمس الشاحبة على التلال، فجلس ليونيل خلف المقود، وجلست مود إلى جانبه تلفّ له لفافة التبغ كما طلب إليها، ولم تكن مود تتقن لفّ لفائف التبغ، وكانت تمتعض حين ترى ليونيل ينظر إليها بسخريةٍ، وهو يصحّح استقامة هذا الشيء الأسطوانيّ غير المستوي الذي لفّته له قبل أن يشعله .

صار الطريق أكثر صعوبةً؛ فالأمر لم يعد يقتصر على الحفر فحسب، فالإسفلت اختفى، والبقع المتبقيّة منه أصبحت عوائق إضافيّة يصعب اجتيازها، مثلها في ذلك مثل الحجارة والأخاديد في المنعطفات. لم يتحسّن الطريق إلّا بعد وصولهم إلى إحدى

الهضبات، وكان قد مرّت ساعة على انطلاقهم حين صادفوا هيكلاً محترقاً لإحدى العربات العسكريّة، التي لا بدّ من أنّها كانت ناقلة جندٍ اسودّ صفيحها بفعل النار، والتوى هيكلها بفعل انفجارٍ ما، ولا بدّ من أنّه قد مضى وقتٌ طويلٌ على وجودها هنا، فقد بدأ الصدأ ينهشها. على أيّ حال، هذا الحطام هو أوّل أثرٍ يدلّ على الحرب الدائرة هناك، ورؤية هذه المركبة المحترقة أعطتهم الإحساس فجأةً بأنّهم قد دخلوا جغرافيا جديدة، ليست تلك التي تدلّ عليها الخرائط، بل جغرافيا الحروب التي تحكمها حركة التاريخ. قال ليونيل الذي كان قد درس المسار قبل انطلاقهم :

- سنصل إلى الحاجز بعد كيلو مترين .

تمهّلوا قليلاً كي يفسحوا المجال للشاحنة الثانية لتلتحق بهم بعد أن تأخّرت عنهم قليلاً، قبل أن يتوجّهوا معاً نحو الحاجز الأوّل .

اكتشفوا الحاجز الأوّل عند نهاية أحد المنعطفات الطويلة في منطقةٍ حراجيّةٍ كانت أوراق أشجارها قد بدأت بالتساقط بفعل الشتاء الذي حلّ على هذا الارتفاع .

تكوّن هذا الحاجز البائس من حطام سيّارتين سوفييتيّتيّ الصنع، مقلوبتين على جنبهما بشكلٍ خماسيٍّ، ومن حجرتين شُيّدتا على أطراف السيّارة من عوارضَ خشبيّةٍ قديمةٍ، وأغصانِ شجرٍ، وأكياسِ خيشٍ زراعيّةٍ مُمزّقة، ثُبّتت على أوتاد حديديّة. كانت ألوان الحاجز تتماهى مع الألوان الرماديّة والبنيّة التي تتلوّن بها هذه المنطقة. خرج أربعة أشخاصٍ من الملجأ المُحصّن، كان فريق المساعدات الإنسانيّة قد رآهم من بعيد، وهُم يرتدون ملابسهم على عَجلٍ، ويحاولون الظهور بمظهرٍ يبعث على الرهبة، واثنان منهم كانا مسلّحين برشّاشاتٍ آليّةٍ، في حين حمل الاثنان الآخران معزقتين كما اعتادا أن يفعلا عندما كانا يشتغلان في الحقول .

أبطأت الشاحنتان من سرعتهما البطيئة جدّاً أصلاً، الأمر الذي جعلهما تتقدّمان بسرعة رجُلٍ يمشي، وقابل أفراد الميليشيا تباطؤ الشاحنتين بعجالةٍ انتهت بوقوف الرجُلين المسلّحين بالرشّاشات في منتصف الطريق رافعين أسلحتهما، فخفّف ليونيل من سرعته مجدّداً، وتوقّف على بُعد خمسة أمتارٍ من الحاجز، وأخفض زجاج نافذته، فاندفع الهواء البارد إلى داخل المقصورة، فقام المسلّح الذي يبدو أنّه المسؤول عن الحاجز هذا بالاقتراب من قمرة القيادة، في حين راح الآخر يلفّ حول الموكب من دون أن يزيح سلاحه عن الشاحنتين .

حشر المسلّح الذي كان يبدو أنّه مسؤول النقطة رأسه داخل نافذة المقصورة؛ كان شابّاً ذا شعرٍ أسود كثّ، وعيناه محتقنتين، وجلد وجهه أحمر اللّون، وكان يتنفّس من فمه بصوتٍ عالٍ ناشراً من حوله رائحة كحولٍ ممزوجةٍ بالتبغ، فأدخل جذعه داخل المقصورة، وراح يتفحّص المكان بدقّة، فأحسّت مود أنّ نظراته توقّفت عندها مطوّلاً، ولا بدّ من أنّ شعرها القصير، وثيابها عديمة الجنس، جعلاها في البداية تبدو مختلفةً قليلاً عن ليونيل الذي يتمتّع بملامح ناعمة شبيهة بملامح النساء، إذا ما قورنت بملامح المسلّحين الخشنة، لكنْ سرعان ما أيقن الرجُل بأنّها امرأة، فرأت مود شرارةً حيوانيّةً في العينين اللّتين كانتا تحملقان فيها، ولأنّها كانت شديدة الحساسيّة لتلك النظرات أشاحت بوجهها عنه.

– بوموش .

قال ليونيل بكلّ هدوء .

كانت تلك هي الكلمة السحريّة، وهي واحدةٌ من بضع كلماتٍ تعلّموها خلال اليومين التدريبيّين اللّذين خضعوا لهما في الجمعيّة في « ليون » قبل انطلاقهم، والكلمة تعني : « مساعدات » ؛ وبذلك فهي تشكّل التعبير الأبسط والأكثر سهولةً لإفهام المتحدّثين إليهم بأنّهم يعملون في المجال الإنسانيّ .

مدّ ليونيل يده إلى علبة القفّازات؛ من أجل إبراز تصاريح الأمم المتّحدة، إلّا أنّ المسلّح رأى في الحركة تهديداً له، فقام بركل جسد الشاحنة برجله، وصوّب سلاحه نحوه، ثمّ قام الرجُل بفتح باب الشاحنة بخشونةٍ، وأشار إلى الجميع بالنزول منها. لا بدّ من أنّ المسلّح الآخر قام بفعل الشيء نفسه؛ لأنّهم وجدوا أليكس ومارك قد ترجّلا هُما أيضاً من شاحنتهما، ووقفا بجانبها .

جمع المسلّح أعضاء الفريق تحت تهديد السلاح، في حين كان رفيقه يفتح الشوادر التي تغطّي حمولات الشاحنتين ليتفحّصها؛ لقد كانت الشاحنتان محشوّتين حشواً إلى درجة أنّ صناديق الكرتون كانت تبدو كما لو أنّها جدارٌ من الطرود المصفوفة جيّداً، والموسومة باسم المنظّمة غير الحكوميّة التي أرسلتها لاتيت دور .

– الأوراق .

قال رئيس الحاجز عندما عاد رفيقه.

الحوار في مثل هكذا ظروف ليس سوى تبادلٍ للكلمات التي يعرفها كلّ طرفٍ من أجل إتمام مهمّته. عاد ليونيل إلى الشاحنة ليخرج الأوراق الرسميّة نزولاً عند طلب المسلّح الذي ظلّ يراقبه، فأخذ المسلّح الأوراق الثلاثة الممتلئة بالأختام والتواقيع، وراح يتفحّصها مطوّلاً.

فهمت مود أنّ لهذه المسرحيّة التي يقوم بها المسلّح جمهورين مختلفين، ومن الواضح أنّه كان يرغب في إظهار سُلطته لهؤلاء الغرباء الذين يفتّشهم، لكنّ التمعّن مطوّلاً في هذه الأوراق المكتوبة باللّغة الإنجليزيّة، لم يكن سوى حرصٍ منه على التأكيد على زعامته أمام رفاقه. هناك شيءٌ كوميديٌّ في هذا المشهد، يُفهم منه في الوقت نفسه حقيقة واحدة، وهي : في العالم الذي دخلوه حالاً، الموضوع الوحيد الحقيقيّ، والدافع الأساسيّ للتصرّفات والأفكار كلّها هو الخوف، كان عليهم لعب دورهم فيه، وأن يظهروا جدّيّتهم في هذا الموقف من خلال إظهار احترامهم، وهذا ما سيسمح لقائد المجموعة المسلّحة بفرض احترامه على جماعته الخاصّة. أتقن ليونيل أداء هذا الدور؛ إذْ كان يؤدّيه بهدوءٍ ومن دون مبالغةٍ في إظهار التذلّل، وكان يبدي احتراماً عميقاً للسُّلطة، وثقةً مطلقةً ببراءته، وكان ذلك كافياً لكي يطمئن هؤلاء الرجال الذين لا يوحي لهم الآخرون سوى بالشك والخطر .

أمّا العسكريّان السابقان، فقد كانا يبديان نوعاً من عدم المبالاة الساخرة، التي تبعث على الاحتراز والعدوانيّة. خاصّةً أليكس؛ كان يثير غضب المسلّحين من دون أن يدري، وربّما حتّى من دون أن يعير اهتماماً لذلك، فقد كان ينظر إلى أسلحتهم الفلّاحيّة بنظرة الخبير الجارحة، ووصل الأمر به إلى أن يصفر معبّراً عن ملله من طول التفتيش، وقفته على رِجْلَيْن مشدودتين كانت توحي بجهوزيّته للانقضاض في حال اقتضى الأمر، وكان يحرص على إظهار احتقاره، وعدم خوفه من عناصر الحاجز الصغير، كما لو أنّهم كانوا أعداء محتملين يستطيع التغلّب عليهم بسهولة .

فهِم ليونيل ما يجول في بال أليكس، وحاول إفهامه بالإشارات ضرورة أن يهدّئ من حماسته، فلَحظ رئيس الحاجز ما يجري، فهو – على الرغم من غلظته – لم يكن يفتقر إلى الحدْس، خاصّةً عندما يكون الأمر يمسّ سلامته. بدأ المسلّحون يتحدّثون فيما بينهم، وبات الجوّ مشحوناً، فقد كان من الواضح أنّ أليكس قد أثار شكوكهم، حتّى مارك الواقف إلى جانبه بصمتٍ كان يبدو منزعجاً نوعاً ما من تصرّف زميله، كانا يشكّلان

فريقاً يبعث على الريبة للأسباب ذاتها التي جعلت ليونيل يفهم أنّهما عسكريّان سابقان، فالسحنة السمراء، والشعر المجعّد، زادا من ريبة المليشيا ليصرخ أحدهم :

– باسبور !

هذا النوع من الطلبات كان نادراً، خاصّةً بعد أن تبيّن أنّ المارّين هُم أعضاء بعثةٍ إنسانيّة. رأت مود في ذلك أنّ الصرب بعد أن أمِنوا جانب ليونيل، أحسّوا الآن بشيءٍ غير طبيعيٍّ تجاه الاثنين الآخرَيْن .

لحسن الحظ، كان الحاجز نائياً، ولا يحوي وسائل اتّصالٍ تسمح بإخطار السُّلطات العليا بسرعة، هذا إن كانت هناك سُلطات عليا، فلم يُفْضِ التمحيص بجوازات السفر إلى شيءٍ؛ فسُمِحَ للموكب بالمرور ومتابعة طريقه، ولكنّ ليونيل كان غاضباً .

– « هذان الغبيّان سوف يسبّبان لنا الكثير من المتاعب » . راح يتمتم، وهو يقود : « علينا أن نفصل بينهما » .

أوقف ليونيل شاحنته بعد عدّة كيلومترات في مسلكٍ حراجيّ، وترجّل عنها، والغضب بادٍ على مُحيّاه، وأعطى إشارةً للجميع بأن يلحقوه كي يتباحثوا في أمر .

– ستركب مود في الشاحنة الخلفيّة مع أليكس، وأنت يا مارك ستصعد معنا.

– لماذا؟

كان مارك يعرف حدوده، إلّا أنّه كان يرغب في إجبار ليونيل على إعطائه تفسيراً، لكنّ الأخير لم يقع في الفخ :

– إنّه أمر .

كان التوتّر ملموساً بين الرجُلين منذ انطلاق الموكب؛ فالجدال كلّه يدور مع أليكس، لكنْ في الحقيقة كان مارك بصَمْته المعهود، ونظرته الغامضة؛ يثير اضطّراب ليونيل، هذا البغض الغريزيّ، الذي يفتقد المسوّغ الواضح صار الآن معلناً بلا مواربة، وأصبح على أحدهم أن يغضّ الطرْف ويتنازل، فشعر مارك – بلا شكّ – أنّه ليس الوقت المناسب لاستثارة نزاعٍ مباشرٍ، فرضخ، لكنْ من الواضح أنّه لم يكن قد قال كلمته الأخيرة .

– كما تريد .

ذهب ليحضر حقيبة الظهر من الشاحنة التي كان يقودها، ورماها داخل الشاحنة الثانية. احتاجت مود إلى وقتٍ أكثر كي تجمع حاجياتها، وتجلس بجانب أليكس، وتقدّم الموكب من جديد .

كان الجوّ خانقاً في قمرة قيادة الشاحنة الأولى؛ إذْ إنّ ليونيل استمرّ بقيادة الشاحنة من دون أن يشيح بنظره عن الطريق؛ أمّا مارك، فقد تأرجح على وقع الموسيقا التي تصل إليه عبْر السمّاعات في أذنيه، وقدماه مستندتان على لوح التحكّم بالشاحنة، كان يمكن سماع زعيق « جوني كاش » الصادر عن السمّاعات على الرغم من ضوضاء المحرّك .

مرّوا عبْر أريافٍ كئيبةٍ لا تزال تقبع تحت ضباب الصباح، ولم يكن هنالك الكثير من القرى في هذه الناحية من (كارجينا) ، ومن وقتٍ إلى آخر كان بصرهم يقع على منزلٍ مدمّرٍ حفرت في جدرانه القذائف فتحات، وأحرقت عوارضه الخشبيّة، ومرّوا أيضاً بعربةٍ تحمل تبناً، ويجرّها جرّارٌ قديمٌ جدّاً يتقدّم ببطءٍ شديد .

قرّر ليونيل – بعد أن عاد إليه هدوؤه، وفي لحظة اختارها هو – أنّ الساعة قد حانت ليضع النقاط على الحروف مع زميله، وأراحهُ وجود فوتييه الصامت والقابع في الخلف .

لم يكن فوتييه يخفي كُرهه للعسكريّين؛ فكان قد روى لـليونيل أنّه يعارض العسكريّة لتنافيها مع مبادئه، وقد ادّعى مرّةً أنّه قد حُكم عليه بالسجن لمدّة شهرين في مدينة (تارب) ؛ بسبب بضعة جنودٍ مرتزقة في إجازة حاولوا الاعتداء على صديقته آنذاك، وبالطبع، هذا الكلام – إضافةً إلى ما كان يرويه كلّه – لا يمكن التحقّق من صحّته .

إلّا أنّ مارك كره المراسل الجوّال السابق، ولم يكن يوجّه إليه الكلام على الإطلاق، لا بل كانت عيناه القريبتان من بعضهما تطلقان شرراً مستطيراً عندما كان ينظر إليه، ولم يكن ليونيل يعبأ بمعرفة سبب هذه الضغينة، فهي – على كلّ حال – تجعل من فوتييه حليفاً مفيداً في هذا الموقف بالتحديد .

– أوقف الموسيقا التي تسمعها لدقيقتين .

– ماذا؟

– « أطلب إليك أن توقف الموسيقا » . صرخ ليونيل : « يجب أن نتكلّم » .

نزع مارك السمّاعات من أذنيه.

- أن نتكلّم عن ماذا؟

- عن إجراءات السلامة

راح مارك يبتسم بتهكّم .

- فلنتكلّم.

- عليك أن تفهم أنّك لم تعد تخدم في الجيش، إنْ أرادوا أن يسجنوننا، أو أن يسلبونا ما ننقل كلّه، فلا شيء يمكن أن يردعهم؛ لذا عليك عند المرور على الحواجز أن تخفّف من فحولتك، هذا أمرٌ تتطلّبه سلامة الفريق، وعليك أن تُفهمه لصديقك الآخر، ويمكنك أن تفكّر فيما تريد عن هؤلاء الأشخاص إلّا أنّهم همُ من يحملون السلاح هنا، وعلينا إظهار الاحترام لهم .

ابتسم مارك .

- أهذا ما تعتقده؟

- هذا ما تقتضيه مهمّتنا .

- حسناً، سأتكلّم في الأمر مع أليكس. على كلّ حال، لا تقلق كثيراً؛ فنحن نعرف هذا النوع من الأشخاص حقّ المعرفة، الشيء الوحيد الذي يفهمونه هو القوّة، وكلّما أظهرت لهم خوفك، بادروا لإذلالك. لدينا رغبتك نفسها، لا بل أكثر، في أن نصل إلى مبتغانا من دون مشكلات.

كان يضحك بظرافةٍ، وهو يقول ذلك، إلّا أنّ ليونيل لم يرَ في ذلك سوى تبجّحاً؛ لذا رفض أن يسترسل في الأمر، وسيندم على هذا القرار فيما بعد أشدّ الندم، لكنّه في تلك اللّحظة كان قد قرّر ألّا يغضب، وأن يكتفي بإيصال رسالته .

- يمكننا أن نناقش الأمر لدى عودتنا. ما عليك إلّا أن تأتي إلى إحدى الاجتماعات في الإدارة المركزيّة كي تعرض حججك؛ أمّا الآن، فعلينا التقيّد بالإرشادات التي تقول : لا مقاومة، ولا تكبّر، ولا استثارة. علينا أن نتّفق على هذه الأمور الثلاثة .

تثاءب فوتييه في الخلف بصوتٍ قويٍّ، وهذا التعبير عن الوجود كان موضع امتنانٍ من قِبل ليونيل؛ فقد أضفى بذلك على كلامه شرعيّةً مستمدّةً، ليس من سُلطةٍ، بل من غلبة الأكثريّة .

– سنعبُر الكثير من الحواجز في طريقنا، ولن تكون جميعها تشبه ما مررنا به من حيث الضعف، ناهيك عن الدوريّات التي يمكن أن ترغب في تفتيشنا في أيّ حين؛ لذا علينا أن نتصرّف كما يتصرّف أيّ عاملٍ في المجال الإنسانيّ .

– أي عامل في المجال الإنساني .

كرّر مارك الكلام بازدراء، وقد كان واضحاً أنّ لديه أفكاراً مسبقةً غير حميدةٍ عن هذه المؤسّسة .

– سواء أعجبك الأمر أم لا، هذا ما أنت عليه الآن .

امتنع ليونيل عن قول : لماذا تعمل معنا إن كان انطباعك عنّا بهذا السوء؟ إلّا أنّه لم يكن يريد أن يستجوب مارك عن دوافع تطوّعه، فيعطي الانطباع بأنّه يبني معه جسراً من التواطؤ .

لقد دار نقاشٌ في إدارة المنظّمة عندما طلب كلٌّ من مارك وأليكس الانضمام إليها؛ إذْ كرّس مديرو لاتيت دور اجتماعاً كاملاً شارك فيه ليونيل للنقاش في هذا الأمر، وكانت دوافع هذين العسكريّين السابقين محطّ شكوك بعضهم، الذين أوصوا بعدم تشغيلهم، إلّا أنّ الحاجة كانت شديدةً إلى سائقين لتسيير المواكب، وكان المسؤولون عن الموارد البشريّة يردّدون أنّه ليس من الضروريّ التدقيق كثيراً في الأمور كلّها، فجرى –أخيراً– التصويت من قِبل الحاضرين، وقرّروا أنّهم إنْ أرادوا الانضمام فلْيكن، وأنّه ليس من داع لمعرفة نيّاتهم الخفيّة طالما أنّهم يحترمون القواعد، وكانت تلك إرادة المنظّمة، وما على ليونيل إلّا الالتزام بها، وعدم المبالغة في التمحيص أكثر من المديرين .

– « حسناً » . ختم مارك، وهو يهمّ بوضع السمّاعات في أذنيه مجدّداً : « أنت القائد، لكنّك ستجد في النهاية أنّني مُحقّ » .

أفرغ الجانبان ما في جعبتيهما، وقال كلٌّ منهما ما رغب بقوله، وتناول ليونيل لفافة الحشيش التي كان يضعها خلف أذنه، كما كان يفعل الباعة في السابق مع القلم، فأشعلها

وأخذ منها سحبةً طويلةً، ولم يكن مطمئنّاً تماماً، لكنّ المسألة حُلّت، على الأقلّ في الوقت الراهن .

3

تفهّمت مود قرار ليونيل، لكنّها كانت حانقةً بسبب تغيير شاحنتها؛ لقد كانت تقود الشاحنة الأُخرى منذ انطلاق الرحلة، ولقد اعتادت ذلك، وأحبّت صوت محرّكها، وعرفت نقاط ضعفها، حتّى إنّها ابتكرت حيلاً لتدجين هذا الحيوان العجوز، على سبيل المثال : لقد نجحت في إيجاد الطريقة المثلى للتعشيق بسلاسةٍ عندما كانت علبة السرعة تطقطق عند الانتقال من السرعة الثانية إلى الثالثة لتعطّل المزامن، وعرفت أيضاً كيف تضطّجع براحةٍ في الأخدود المحفور في فرشتها، وبدا كلّ شيءٍ لها في قمرتها الجديدة مختلفاً، وغير منظّمٍ، وغير ملائمٍ لها، ولم تكن تحبّ رائحة مزيل العرق الرخيص التي عشّشت في نسيج الستائر والمقاعد، وكانت تفضّل رائحة زيت التشحيم والتبغ التي كانت تعبق بها قمرة القيادة الأُخرى .

أدركت مود جيّداً أنّ طبعها يميل إلى أنْسَنة الأشياء والديكورات على هواها، وأنّها ترتبط بما يحيطها بعلاقة حبٍّ، أو كرهٍ، كما لو كانوا أحياء، وقد كانت تفضّل الموت على البوح بأنّها كانت مغرمةً بالشاحنة التي انفصلت عنها؛ ولهذا اكتفت بإظهار مزاجها الكتوم، وبالنظر إلى الطريق نظرة شرّ .

كياسة أليكس فرضت عليه ألّا يبادرها بالسؤال، وأن يحترم صمتها، وبعد عدّة كيلومترات عاودت إدراك أنّه موجودٌ إلى جانبها، فالخطأ لم يكن خطأه في نهاية الأمر، فأحسّت بأنّها ظلمته بتحميله مسؤوليّة كدَرها .

التفتت إليه وابتسمت له، ولم تكن في الحقيقة تشارك ليونيل كراهيته له؛ فقد ارتأت أنّه من خلال هذه « المساكنة » ستتسنّى لها فرصة التعرّف على نحوٍ أفضل إلى هذا الشابّ الصلب الذي لا تنقصه الأناقة، وقرّرت أن تكسر جدار الصمت .

– التوتّر شديدٌ بينهما هناك في المقدّمة؛ لا بدّ من أنّهما يتجادلان بقوّة .

ردّ أليكس على الابتسامة بابتسامةٍ مثلها، ثمّ أضافت مود :

– لحُسن الحظ لديهم فوتييه كي يقف حَكماً بينهما .

– لماذا يلومنا ليونيل في الحقيقة؟

– يظنّ أنّكما لا زلتما تتصرّفان كعسكريّين، وأنّكما لم تفهما قواعد العمل الإنسانيّ

.

هزّ أليكس رأسه، كان ما يزال حذراً في الحديث، فلا أحد منذ انطلاقة الرحلة وجّه إليه الكلام إلّا لسؤاله حول أمور إداريّة، ومنذ مغادرتهم « ليون » حتّى الآن، لم يحظَ بفرصة التحدّث على انفرادٍ مع أحدهم سوى مع مارك .

– هذه ردود فعل المدنيّين، اعتادوا أن يضعوا العسكريّين جميعهم في خانةٍ واحدة. مارك صديقي، ولكنّنا مختلفان، وهذا الاختلاف كان أشدّ وضوحاً عندما كنّا في الجيش .

– هل خدمتما في الوحدة نفسها؟

– نعم، لقد كنّا نخدم في كتيبة الهندسة التابعة للقبّعات الزرق، لكنّ هذا لا يعني شيئاً، فهو كان متطوّعاً؛ أمّا أنا، فقد كنت مجنّداً .

لم يخطر على بال أحد سابقاً أن يسألهما عن خلفيّتهما العسكريّة، ولم تكن مود على درايةٍ بأعراف هذا العالم، لكنّها كانت تدرك – بلا شكّ – وجود اختلافاتٍ عميقةٍ في هذا المجال كما في أيّ مجالٍ آخر .

– هل كانت لكما الرتبة نفسها؟

– هو كان رقيباً؛ أمّا أنا، فقد كنت مجنّداً من الدرجة الثانية، لكنّ هذا ليس بالأمر المهمّ، فالرتب هي ما يظهر للعيان دون ما يَخْفى .

– ما يَخْفى؟

– العقليّات والعادات. بالنسبة إلى العسكريّين المتطوّعين المجنّدين أمثالي، لا يعْدون كونهم مدنيّين يلبسون بدلةً عسكريّةً، أو متدرّبين عموماً؛ كانوا يحتقروننا قليلاً .

– لكنّ هذا الأمر لم يمنعكما من أن تصبحا أصدقاء .

– لا، وذلك لأنّ مارك لا يشبه في طباعه طباع الآخرين، وهو لم يكن يشعر بالارتياح خلال خدمته في الجيش.

– لماذا؟

- من الصعب أن أشرح لك الأمر؛ لقد كان على خلافٍ مع رؤسائه، الأمر الذي دفعه إلى الرحيل، إنّه شخصٌ كريم النفس، أعتقد أنّكم تسرّعتم في الحُكم عليه .

بدأت مود تشعر بارتياحٍ أكبر؛ لقد قدّرت أن يتحدّث إليها زميلها بعفويّة، وشعرت بالارتياح لأنّها لم تعد مجبرةً على تحمّل صمت ليونيل الذي كان دائماً في حالةٍ من الخدر جعلته يفضّل صحبة سجائر الحشيش على أيّة صحبةٍ أُخرى، أضف إلى ذلك أنّهما كانا وحْدهما بعيداً عن نظرات فوتييه الثقيلة التي كان يرمقها بها من الخلف .

- ماذا كنت تعمل قبل الالتحاق بالجيش؟

- لا شيء . كنت أتسكّع في إحدى الثانويّات المهنيّة .

- أين؟

- في مدينة (غرونوبل) .

- هل تنحدر من تلك المنطقة؟

ظنّت مود أنّه سيقوم بالتحدّث إليها عن أصوله الاستوائيّة، لكنّ جوابه أربكها .

- لقد ولدتُ في قريةٍ صغيرةٍ تقع في سلسلة جبال (تريبيف) . أتعرفين المنطقة؟

- أتقصد بالقرب من (شارتروز) على جبل إيجويي؟

لقد كانت قد ذهبت مرّةً في رحلة تزلّجٍ إلى تلك المنطقة مع والديها عندما كانت في العاشرة .

- تماماً .

انتابتها رغبةٌ جامحةٌ بأن تسأله كيف يمكن لطفلٍ خلاسيٍّ (ملوّن) مثله أن يولد في قريةٍ في أحد جبال الألب، لكنّ الأمر كان يبدو له طبيعيّاً جدّاً، فلم تجرؤ على سؤاله .

- أراهن أنّكِ لَحظتِ أنّني لا أشبه أهالي الجبل!

- لم أعلّق على الأمر .

ابتسم أليكس، وبدا كأنّ الأمر مسلٍ له، وأنّه مرتاحٌ للتطرّق إلى الموضوع .

– أبي من جزيرة (غوادلوب) ؛ إحدى جُزر الانتيه، قَدِم إلى فرنسا ليقيم مع عمّه في « غرونوبل » بعد أن فقد والديه عندما كان صغيراً، فتزوّج بأمّي التي جاءت من (روينيون) ؛ إحدى جُزر الانتيه، واضطرّ إلى العمل مباشرةً بعد الزواج، وأمضى حياته متنقّلاً بين أشغالٍ صغيرةٍ إلى أنْ وجد – في أحد الأيّام – عملاً بصفة مراقب جودة الحليب في الجبال، فبقي هناك .

– أصبحت الصورة واضحةً الآن.

– يصحو والدي عند الساعة الخامسة فجراً ليمرّ بالمزارع، ويجمع عيّناتٍ من الحليب. إنّه عملٌ صعبٌ وذو أجْرٍ زهيد؛ وهذا ما دفع والديّ إلى حثّي على متابعة دراستي، إلّا أنّ الدراسة لم تكن تناسبني. كانت لديّ مشكلة مع القراءة لم تُعالج باكراً. ألم تشعري بأنّني أخلط الأحرف؟

– هل تعاني من عُسر اللّفظ؟

– سأترك لكِ عناء لفظ الكلمة؛ لأنّني لم أستطع يوماً أن ألفظها لفظاً صحيحاً .

ضحك الاثنان، ولَحظت مود أنّها لم تضحك منذ بداية الرحلة، عِلماً بأنّها كانت تمزح كثيراً مع صديقاتها، وتنتابها أحياناً نوبات ضحكٍ جنونيٍ عندما تكون وحيدة .

– باختصار، لم أنجح في امتحاناتي؛ فانتهى الأمر بأنْ أوقفوا تأجيلي الدراسيّ، فالتحقت بخدمة العَلَم .

كان أليكس يتكلّم بهدوء، فأُعجِبت مود بصوته، وانتبهت إلى أنّها منذ انطلاق الرحلة كانت ملتصقةً بطاقم الشاحنة الثانية، وأنّها قد أساءت الحُكم عليه. لقد كانت فكرةً صائبةً أن تكسر الحواجز، وأن يختلط الفريقان .

– هل كانت فكرتك أن تأتي إلى البوسنة مع الأمم المتّحدة؟

– لقد تطوّعت مباشرةً بعد أن أنهيت صفوفي. قاموا بفرزي إلى ثكنةٍ في منطقة (مولان) ، فأصابني اكتئابٌ هناك. لقد أتممت – بنجاحٍ – إجازات السياقة كافّةً، من سيّاراتٍ، ودرّاجاتٍ ناريّةٍ، وشاحنات، الأمر الذي شغلني بعض الوقت، لكنّني أحسست بعد

ذلك بأنّني أضيّع وقتي في الرتابة وأعمال السُّخرة، فقد تطوّعت لأنّني أفضّل أنْ أرى العالم.

تفهمّت مود هذا كلّه؛ فقد قامت بدراسة القانون لمدّة سنتين لأنّ أباها كان كاتباً بالعدل، وقد حاول والدها الدفع بأخيها لكي يسير على خُطاه، ولكنْ لم يكن يخطر على باله أن تكون هي أيضاً قادرةً على فعل ذلك. قرّر أخوها في النهاية أن يصبح مدرّس رياضيّات، وأخذت هي على عاتقها دراسة القانون؛ لكي تستلم زمام أعمال والدها من بعده، لكنّها لم تكن ترغب في أن تمضي حياتها كلّها في مكانٍ واحدٍ، فقرّرت أن تترك الدراسة كي تشارك ببعثاتٍ إنسانيّة. في سياقٍ آخر : كان ردّ فعلها هو ردّ فعل أليكس نفسه .

- هل أرسلوك مباشرةً إلى هنا؟

- اتّبعنا دورة تدريبٍ عسكريٍّ خاصٍّ لمدّة شهرين قبل ذلك، بعدئذٍ قاموا بوضع خوذ زرقاء على رؤوسنا، وفرزونا إلى الموكب المتّجه إلى كاكاني، كان ذلك في عزّ شتاءٍ تميّز ببرده القارس. الطبيعة قاسية في البوسنة الوسطى، والثلج في كلّ مكان، والجبال يكسوها البياض؛ لقد ذكّرني ذلك بمسقط رأسي، لقد كنت سعيداً جدّاً هناك .

سبقتهم الشاحنة الأماميّة، ولمّا لحقوا بها كانت قد توقّفت عند الحاجز .

- « لسنا بعيدين عن (جيب بيهاتش) » . قال أليكس : « منطقة يقطنها مسلمون، وحسب علمي، ليونيل لا يرغب بأن يمرّ بها، بل يفضّل السير بمحاذاتها من جهة الجنوب » .

يُدار الحاجز هذا من قِبل أفراد ميليشيا يرتدون بدلاتٍ عسكريّة نظاميّة كاملة، وكان أكثر تنظيماً من سابقه، فقربه من المدينة جعله مزدحماً. صادفوا الكثير من القوافل الإنسانيّة على الطريق المؤدّي إلى الجيب المسلم، وكانت أمامهم عشر شاحنات تابعة للمفوّضيّة العليا للّاجئين تنتظر دورها بالمرور، وكان أفراد الميليشيا يتحقّقون من الأوراق، ويفتّشون الشاحنات تفتيشاً سطحيّاً؛ كلّ شيءٍ كان يتمّ هنا على نحوٍ طبيعيٍّ وبحرفيّةٍ أكبر، ولم يضطرّوا إلى النزول من قمرات القيادة، ومرّوا بسلام .

- « هنالك كتيبة فرنسيّة في بيهاتش » . قال أليكس .

صادفوا الكثير من سيّارات الجيب التي كانت تقل قوّات القبّعات الزرق؛ حيث أمكن رؤية شارة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة على أذرعهم إلى جانب الأعلام الفرنسيّة : (الأزرق، والأبيض، والأحمر) ، وعاد الفريقان إلى عزلتهم الريفيّة بعد أن قطعوا الحاجز، والمنشآت الصناعيّة جميعها التي مرّوا بها كانت مدمّرةً، والغيوم المنخفضة زادت من كآبة المكان.

مع انقشاع التوتّر عاودت مود الحديث إلى أليكس الذي كان قد استلم دفّة القيادة عند الحاجز الأخير. وجدت مود علكةً في علبة القفّازات، وطعم النعناع في فمها ذكّرها بأنّها لم تنظّف أسنانها منذ ثلاثة أيّام .

- كيف هي كاكاني؟ بما أنّك تعرفها .

- إنّها منطقةٌ قذرة؛ عبارة عن جيب كرواتيّ يحيط به المسلمون من كلّ جانب، الذين هُم بدورهم محاطون بالصرب. الحرب في الأماكن الأُخرى رسمت مناطقَ متجانسةً إثنيّاً، إلّا أنّ الأمر كان مستحيلاً في كاكاني؛ حيث الإثنيّات متداخلة في بعضها، والتوتّر بينهم على أشدّه.

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- كنا نعمل على حماية منجم الفحم .

بما أنّها لم تكن تقود الشاحنة، كان بإمكان مود التحديق في وجه أليكس عندما تكلّمه، وأحسّت بأنّه كان متردّداً في الإجابة عن سؤالها الأخير، ولم يكن مرتاحاً وطبيعيّاً كعادته، كما لو أنّ السؤال كان يخفي فخّاً .

- هل كان هذا المنجم مهمّاً؟

- ليس للبوسنة من موارد للطاقة سوى الفحم الحجريّ، والمناجم التي أتحدّث عنها ضخمة للغاية. كانوا سابقاً يستخرجون الفحم من فوق مستوى سطح الأرض، الأمر الذي أدّى إلى رسم حفرةٍ كبيرةٍ في التلّة التي يقع فيها المنجم؛ أمّا الآن، فإنّهم يحفرون دهاليزَ تحت الأرض تمتدّ إلى كيلومترات .

لم يكن واضحاً تماماً لماذا كانت تنتابه الحماسة عندما يتحدّث عن هذا الأمر ويصف المنجم .

– أما زالوا يواظبون على استخراج الفحم منه حتّى خلال الحرب؟

– لا، المنشآت متوقّفة عن العمل، ليست الآن سوى معامل ضخمة قاتمة وصامتة، بأحزمتها المتحرّكة الجامدة عن الحركة، وأفرانها الهامدة. بإمكاني تخيّلها عندما كانت تعمل بكامل طاقتها؛ أمّا الآن، فقد بات كلّ شيءٍ مهجوراً كما لو كنّا في مشهدٍ من نهاية العالم .

– لماذا فُرزت قبّعات زُرق إلى هذا المكان؟

– أوّلاً : كي لا تُدمَّر المعامل، وثانياً : كي تظلّ المضخّات تعمل .

– مضخّات؟

– تمتدّ دهاليز المناجم عميقاً في باطن الأرض، ومهمّة المضخّات هي سحب المياه باستمرارٍ حتّى لا تغرق الأنفاق، ويصبح من المستحيل وضعها في الخدمة ثانيةً؛ غرق المنجم يعني خروجه من الخدمة إلى الأبد .

كانت مود تشعر بأنّ رفيقها يأخذ هذا الموضوع على محمل الجدّ على نحوٍ كبير، لكنّها لم تستطع الإحاطة تماماً بأسباب هذا الاهتمام؛ فالأشياء التي تكلّم عليها كانت مهمّةً بالفعل، ولكنْ لماذا كان شغوفاً بها إلى هذا الحدّ؟ لماذا كان الأمر يهمّه شخصيّاً؟

– مهمّتكم – إذنْ – هي المحافظة على تشغيل المضخّات؟

خشيت للحظةٍ أن يفهم هذه الملحوظة كنوعٍ من التهكّم، لكنّها لم تُلقِ بالاً للأمر، وتابعت فكرتها.

– هذا واحدٌ من الأسباب لوجودنا هناك، كنّا نحمي الموقع والأشخاص الموجودين داخله .

– واللاجئون الذين أتينا لمساعدتهم، أين يوجدون؟

كان من الغريب أنّه لم يُتطرَّق إلى هذه المسألة من قبل، وحاولت مود استجواب ليونيل حول الأمر سابقاً، لكنّه لم يكن يملك أيّة أجوبة، أو أنّه لم يرغب بالإجابة. قيل لهم ببساطة في الإدارة العامّة للجمعيّة : إنّ مهمّتهم هي إيصال موادّ غذائيّة، وثيابٍ، وأدويةٍ، إلى لاجئين موجودين في أحد المخيّمات، فشرعوا في مهمّتهم، ولم يعد أحدٌ يسأل عن ماهيّة الحمولة، وعن هويّة الأشخاص الذين يعملون في الفريق، والآن وقد اقتربوا

من غايتهم، بدأت أسئلةٌ أُخرى تخطر على بالهم، أو على الأقلّ على بال مود، والأسئلة تتعلّق بالأشخاص الذين يتوجّهون للقائهم وتقديم العون لهم. لقد صادفت طوال هذه الرحلة مزارعين بائسين، وأطفالاً وسخين تسيل أنوفهم، ويلبسون ثياباً رثّة، فراحت تتساءل عن الأشخاص الذين أتوا لنجدتهم، عن حياتهم، عن ظروف معيشتهم وتاريخهم .

- « اللاجئون موجودون في المنجم » . قال أليكس بنبرةٍ سوداويّة .

- في الدهاليز؟

- لا، في المعمل .

- لكنْ من هُم هؤلاء اللاجئون بالضبط؟

لَحظت مود أنّها حتّى الآن اكتفت بمعرفةٍ سطحيّةٍ للأمور، ولم تكن الوحيدة في ذلك؛ فمنذ دخولها الجمعيّة صدمها الوجه التجريديّ في العمل الإنسانيّ، فكانوا يتحدّثون في الجيوبوليتيك، وفي تموضع القوى على الأرض، وفي المكاسب الاستراتيجيّة، في حين بقي الناس المحتاجون إلى مساعدةٍ ضمن النطاق الافتراضي، الناس الذين يُسمّون (ضحايا) ، أو عندما يتكلّمون عن المساعدات : (المستفيدون من المعونات) ، وكانوا أشخاصاً غير حقيقيّين، أشخاصاً لا أحد يرغب في أن يتخيّلهم يملكون هويّة، والأسوأ من ذلك كلّه أنّها كانت حتّى الآن مرتاحة لذلك، وكانت تودّ تقديم المساعدة، وهي راضية عن وجود أشخاصٍ يحتاجون إلى النجدة في مكانٍ ما في هذا العالم، كانت تفكّر بحاجتها هي إلى تقديم المساعدة أكثر من فعل تقديم المساعدة بحدّ ذاته إلى أشخاصٍ محتاجين؛ لقد رأت أنّ رغبتها في ذلك تشبه نزوات الأطفال .

- يصل عددهم إلى خمسين ألفاً تقريباً من نساءٍ، وأطفالٍ، وكبارٍ في السنّ؛ أمّا الرجال، فيحاربون على الجبهات على الأغلب .

أظهرت نبرة أليكس - التي اتّسمت بالكآبة - أنّ هؤلاء الناس بالنسبة إليه، وعلى العكس من مود، هُم أشخاص من لحمٍ ودمٍ عرفهم وشاطرهم حياتهم .

- كيف وصل الأمر بهم إلى الّلجوء إلى هناك؟

- كان أغلبهم يعيش في محيط المكان، وعندما بدأت الحرب قام الكرواتيّون الذين يشكّلون الأغلبيّة هنا بحرق منزل كلّ من كان من غير دينهم، فلجأ الصرب إلى منطقةٍ

صربيّةٍ، والمسلمون إلى المناطق المسلمة. بعضهم – خاصّةً من كانت لهم أصول مختلطة – لم يستطع الهرب إلى مكانٍ آمنٍ، فلجأوا إلى هذا المنجم.

– انتظر قليلاً! أحاول أن أتخيّل الأمر : هناك المنجم، والمشاركة مع القبّعات الزرق الذين يحمون اللّاجئين، ومن حولهم الميليشيات الكرواتيّة تحاصرهم، أهذه هي الصورة العامّة؟

– تماماً، المنجم عبارة عن التلّة، والمعامل التي تحيط بهما أسلاك شائكة، وعلى جانبٍ منها يوجد اللاجئون، وعلى الجانب الآخر الأشخاص الذين كانوا سبب تحوّلهم إلى لاجئين. إنّهم ينتظرون أن نرحل كي يقضوا عليهم .

– يا للمعادلة!

– إنّها الكراهية في أسوأ تجلّياتها. جُلّ هؤلاء الأشخاص كانوا جيراناً قبل الحرب، وقد عاشوا معاً لقرونٍ خَلت، يتكلّمون اللّغة نفسها، ويشبهون بعضهم في ملامحهم وملابسهم، وبالنسبة إلينا هُم ذاتهم لا فروقات بينهم، إلّا أنّ اللاجئين فقدوا كلّ شيءٍ، وأصبح منظرهم بائساً .

نظرت مود إلى أليكس، فانتابها شعورٌ قويّ؛ لقد كانت تعتقد بصحّة الصورة النمطيّة التي يتشاركها العاملون في المجال الإنسانيّ حول أنّ العسكريّين وحوشٌ لا يمتلكون أيّة أحاسيس. أليكس، على الأقلّ؛ كان يُبدي تعاطفاً وإنسانيّةً أكثر من أولئك الذين اتّخذوا من تخفيف أوجاع الناس حول العالم مهنةً لهم .

– هل كنتم على اتّصالٍ معهم؟ أكنت تعرفهم شخصيّاً؟

نظر إليها أليكس نظرةً خاطفةً، وتردّد قبل أن يقول :

– معرفةً وثيقةً جدّاً .

أحسّت مود كما لو أنّه كان يرغب بأن يستفيض في الكلام على الأمر .

– هل لديك أصدقاء بينهم؟

ابتسم الشابّ ابتسامةً خفيفةً، ولم يترك المِقود الذي جعل أضلاعه ترتجّ للاهتزازات التي تسبّبها حفر الطريق، ولم يفتأ يناور به كي يحافظ على استقامة مسار المركبة، وانتظر طويلاً قبل أن يردّ على السؤال .

– لقد التقيت بفتاةٍ هناك .

– لاجئة؟

– نعم .

شعرت مود بالغبطة والفخر إثر اكتشافها هذا السرّ الصغير. لقد اكتشفت أنّها لامست شيئاً أساسيّاً يشرح – على نحوٍ أفضل – التزام أليكس بالعمل الإنسانيّ، وفي الوقت نفسه شعرت بخيبة أملٍ في داخلها .

– كم عمرها؟

– تسعة عشر عاماً .

– ما اسمها؟

– بوبا. لجأت إلى المنجم مع أخويها الصغيرين بعد أن توفّي والداها من جرّاء الحريق الذي التهم منزلهم .

– كيف كنتما تتقابلان؟ هل كانت تعيش معك؟ هل كان لكما الحقّ في أن تكونا معاً؟

– لا، ليس للاجئين الحقّ في دخول معسكرات الأمم المتّحدة؛ أنا من كنت أذهب للقائها في الفرن الذي كانت تعيش فيه .

– في الفرن؟!

– نعم، لقد كانت من ضمن اللاجئين الذين يعيشون ضمن أحد أفران الفحم الفارغة منذ أن توقّف المعمل عن الإنتاج؛ يغلقون على أنفسهم باباً ضخماً مصنوعاً من المعدن المخلوط، والجوّ في الداخل أكثر دفئاً منه في الخارج، وبالطبع حياتهم ليست مريحةً، لكنْ على الأقلّ هُم في ملجأ من الرياح، ويستطيعون إشعال النار لأغراض الطبخ .

دبّت فيه الحماسة، وهو يجيب؛ لأنّه أحسّ بأنّه تخلّص من عبْء سرٍّ ثقيلٍ على كاهله، ولأنّه استطاع أخيراً أن يتكلّم على الفتاة التي يحبّ، ولكنْ فجأةً، عادت واكفهرّت أساريره .

– يُستحسن ألّا تخبري مارك بما قلته لك .

- هل لديه صديقة هناك هو الآخر؟

- لا .

- حسناً، لن أتفوّه بشيء، لكنْ ما الذي سيتغيّر إذا علم بالأمر؟

- إنّه يعرف، لكنّني أفضّل ألّا يدري بأنّنا تكلّمنا حوْل الأمر معاً .

عاد أليكس إلى شروده، في حين ظلّت مود صامتةً، ولم يتكلّموا مجدّداً في الساعات التالية، لكنْ تلك كانت المرّة الأولى منذ انطلاق القافلة التي تتحدّث فيها مود عن أمورٍ شخصيّةٍ مع أحد أعضاء الفريق؛ كانت تشعر بوحدةٍ أقلّ .

4

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً تماماً حين تعطّلت الشاحنة الأماميّة فجأةً! كانت القافلة قد انتهت من صعود منحدرٍ قاسٍ ارتفعت من جرّائه حرارة المحرّكات، وعندما وصلوا أرضاً مستويةً سال ماء المبرد كشلّالٍ، وتصاعد دخانٌ أبيضُ من تحت غطاء المحرّك؛ إنّها فرصة فوتييه لكي يظهر قدراته .

كان الوحيد بينهم الذي لا يملك رخصة قيادة مركبات كبيرة، وقد وُظِّفَ لخبرته في مجال الميكانيك، وكان مولعاً بالدرّاجات الناريّة، ودائم التبجّح بفوزه ببضعة سباقاتٍ من فئة الـ 250 س م، إلّا أنّ سقوطه عن الدرّاجة في إحدى المنافسات منعه من متابعة المشاركة في السباقات، وعلى الرغم من عدم خبرته بميكانيك المركبات العاملة على المازوت إلّا أنّ خبرته في الميكانيك عموماً جعلت منه الميكانيكيّ الرسميّ للبعثة .

رفع غطاء المحرّك، وانكبّ يتفحّصه، في حين كان الآخرون ينتظرون، وهُم يدخّنون من حوله. وحْده مارك انعزل بنفسه جالساً على رفراف الشاحنة الأُخرى؛ لقد انتقد منذ البداية حالة الشاحنة، وتوقّع ألّا تستطيع المحرّكات التحمّل حتّى نهاية المهمّة .

وجد فوتييه مكمن العطل :

- أنبوب منفجر.

أخرج عدّة مفاتيح من صندوق عتاده، وفي غضون بضع دقائق كان قد فكّ القطعة المعطّلة، وهي عبارة عن قطعةٍ مصنوعةٍ من الكاوتشوك، كان لونها أسْود قبل أن يُحيلها الزمن إلى اللّون الرماديّ، ويملأها بالشقوق، فتوسّع أحد الشقوق من تأثير الحرارة بلا شكّ، فانسكب الماء منه .

- « ما العمل؟ » . تساءل ليونيل الذي لم يكن يخفي قلقه .

كانوا قد توقّفوا في أرض فلاة يحمل إليها هواء الهضبة العليا البارد رذاذاً خفيفاً، وقد وقف غرابان ضخمان في الأراضي المحروثة المجاورة.

– يمكننا أن نسدّ الثقب بشريطٍ لاصقٍ، لكنّه لن يدوم طويلاً .

– سيكفينا حتّى نصل إلى البلدة التالية؟

– علينا المحاولة كي نعرف .

قام فوتييه بلفّ الشريط اللاصق حول الأنبوب، وأعاد وضعه في مكانه، ثمّ ملأ دارة التبريد بالماء، وأدار المحرّك. صعد الجميع إلى الشاحنات، وساروا ببطءٍ، وسمح لهم إصلاح الأنبوب بقطع كيلومترين اثنين وتأمّلوا خيراً حين لمحوا من بعيدٍ أضواء بيوت إحدى القرى من خلال الضباب، كان عليهم مع الأسف أن يعبُروا منحدراً طويلاً كي يصلوا إليها، وبالكاد قطعوا مسافة مئة مترٍ حتّى عادت الأنبوبة إلى تسريب الماء من جديد .

– علينا تبديل القطعة المهترئة هذه المرّة .

قال فوتييه الذي كان قد جلس على المقعد الأماميّ منذ أن حدث العطل، كي تتاح له مراقبة تجاوب المحرّك عن قرب .

– هل يمكننا إيجاد قطعةٍ مثلها بسهولة؟

– إذا كانوا يستعملون الجرّارات الزراعيّة، فلا بدّ من أنّ لديهم أنابيب، حتّى إن لم يكن لها القطر نفسه، نستطيع أن نكيّفها بما يتلاءم مع الشاحنة .

ترجّلوا جميعهم عن الشاحنات، وانكبّ فوتييه من جديد يتفحّص المحرّك .

– سأرى إن كان بالإمكان إيجاد حلٍّ بديلٍ، لكنّني أشكّ في ذلك. في تلك الأثناء، على أحدكم الذهاب إلى القرية، ربّما يوجد هناك ورشة تصليح سيّارات، أو آليّات زراعيّة.

تبرّع ليونيل بالذهاب .

– « سأرافقك » . قالت له مود .

لقد كانت ترغب منذ عدّة أيّام في أن تحرّك قدميها. عندما كانت في فرنسا، كانت تمارس رياضة المشي كلّ صباح؛ لم تكن معتادةً البقاء داخل الشاحنة طوال النهار .

– لك ذلك إن أردتِ؛ أمّا أنتم، فعليكم أن تنتظروا هنا مع فوتييه .

لم يكن هناك تجمّعٌ بشريٌّ في محيطهم سوى القرية، إلّا أنّهم ما زالوا في منطقةٍ تشهد حرباً، وكان من الأسلم ألّا يتركوا الشاحنات من دون حماية .

كان واضحاً للعيان أنّ ليونيل لا يحبّ أن يمشي؛ فهو يقف منحني الظهر دائماً، وعلى الرغم من أنّه يملك رِجْلين طويلتين إلّا أنّه لم يستطع اللّحاق بـمود .

– على رِسْلك! تسرعين كأنّكِ تهربين من مصيبة!

أبطأت رغماً عنها، فقد كانت في داخلها تودّ أن تركض المسافة كلّها، فحذاء الـ « نايك » الذي تلبسه مريحٌ، والهواء النقيّ يلفح وجهها، وكانت تحبّ أصوات الريف المكتومة، ورائحة الحقول التي فُلِحَتْ اللّاذعة .

– كيف هي الأمور مع أليكس؟

– إنّه لطيفٌ جدّاً .

– أتعتقدين ذلك حقّاً؟

– يكفي أن تتكلّم معه بلطفٍ، وألّا تتعامل معه على أساس أنّه عسكري .

هزّ ليونيل كتفيه لا مبالياً، فقد كان له رأيه في الموضوع، ولا أحد يستطيع أن يغيّره بسهولة .

– هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟

كانت قد أذعنت وراحت تسير بإيقاع مسير رفيق دربها نفسه .

– بالطبع، تفضّلي .

– كيف صدف أنّنا نتوجّه إلى (كاكاني) ، المكان نفسه الذي خدم مارك وأليكس فيه ضمن قوّات الأمم المتّحدة؟ هل هذا بالفعل بمحض المصادفة؟

– لا .

– ما المسألة إذن؟

أخرج ليونيل منديلاً قديماً من جيبه، وأبطأ في سيره كي يجفّف العرق عن جبهته، على الرغم من الجوّ البارد؛ فقد كان السير يرفع من حرارته .

– عندما حضر صديقك أليكس إلى لاتيت دور كان ذلك بناءً على إعلانٍ يطلب سائقي شاحناتٍ ثقيلةٍ متّجهةٍ إلى ساراييفو .

– الإعلان نفسه الذي قرأته في صحيفة لودوفينيه؟

– تماماً، إلّا أنّنا كنّا نواجه مشكلاتٍ في ذلك الوقت. هل تعلمين أنّ البعثة تموّلها صناديق أوروبيّة؟

– سمعت بشيءٍ من ذلك .

كان ليونيل يسعد دائماً بأن يظهر بمظهر المسؤول العالِم بخفايا الأمور، وليس بمظهر المتطوّع العادي. عندما كانا يعملان في الإدارة العامّة، لَحظت مود أنّه كان يستمتع بإعطائها مثل هكذا دروس .

تابع ليونيل بنبرةٍ توحي بأهميّة ما سيقول :

– في بروكسل، هناك الكثير من المساعدات المخصّصة لـ (ساراييفو) ، والقليل لباقي مناطق البوسنة؛ لذلك طلبوا إلينا أن نقترح جهاتٍ جديدةً تذهب إليها المساعدات .

وصلوا إلى مشارف القرية، لكنّ مركز القرية كان ما يزال بعيداً، أسفل سفح الوادي، فخاب أمل ليونيل، لكنْ على الأقلّ كان مسروراً بأنّ الطريق يتّجه الآن نزولاً .

– بالنتيجة كان عليهم أن يُرسلوا مهمّةً استكشافيّةً ليجدوا موقعاً جديداً، الأمر الذي كان يعني هدْر المال والوقت .

– أرى ما ترمي إليه : عندها اقترح أليكس أن تذهب المساعدات إلى (كاكاني) .

– أنتِ ذكيّةٌ بالنسبة إلى فتاة .

كرهت مود أشخاصاً كثر بسبب تعليقاتٍ أقلّ قسوةً من تلك، ولو حدث أن سمعت هذا التعليق قبل ثلاث سنوات لكانت صفعته، إلّا أنّها قرّرت ألّا تنفعل، فصمتت وأطبقت فمها .

– لقد أخبرنا بوجود لاجئين في منجم فحمٍ يفتقدون كلّ شيء .

– هل أخبركم عن الأفران؟

- الأفران؟ أيّة أفران؟

فهمتْ أنّه لا يعلم بأمر بوبا، فقرّرت ألّا تخبره بأيّ شيءٍ عن هذا الأمر، لقد كانت عازمةً على ذلك .

- يبدو أنّ الّلاجئين يعيشون في الأفران المهجورة .

- آه!

صورة اللاجئين في الأفران التي صدمتها لم يكن لها الوقع نفسه على ليونيل؛ لقد كان لا يعبأ بمعرفة ظروف حياة الناس الذين هو ذاهبٌ لمساعدتهم، الشيء الوحيد الذي يُعنى به هو إيجاد مستفيدين للمساعدات، حاله في ذلك حال موظّفي الإدارة العامّة جميعهم، الذين يعملون خلف شاشات حواسيبهم، وبفضل المستفيدين ستحصل المنظّمة على تمويلٍ من الاتّحاد الأوروبيّ يكفي كي تبقى عَجَلة العمل الخيريّ دائرة .

وصلوا إلى مدخل القرية، التي كانت في الحقيقة بلدةً زراعيّةً مترامية الأطراف، تفوح منها رائحة الروث والإسطبلات، ويحدّ حدائق البيوت سورٌ من شبكٍ حديديٍّ ممتلئٍ بريش دجاج. حارَ ليونيل في أيّ اتّجاهٍ يذهب حين وصل إلى نقطةٍ وسط البلدة يتفرّع منها طريقٌ آخر .

- هل تعرف المنطقة؟

- لا، لقد سلكت طريقاً آخر حين ذهبت إلى (سارايفو) ؛ هذه المرّة الأولى التي آتي فيها إلى هذا المكان .

كانت الشوارع فارغةً، ولم يعرفا إن كان ذلك بسبب الحرب أم برودة الطقس، أو لأنّه وقت وجبة الغداء. هذا الفراغ أوحى بالطمأنينة والخوف معاً، فاتّجها يميناً نحو هنغارٍ كبيرٍ، ولمحا في الداخل آليّاتٍ زراعيّةً أكل الدهر عليها وشرب، إلّا أنّها بدت صالحةً للاستعمال، وإلى جانب الهنغار، كان هناك منزلٌ مضاءٌ من دورٍ واحدٍ، قرعا الباب، ففتحت سيّدةٌ فلّاحةٌ طويلة القامة، تلبس مئزراً مزيّناً برسومات ورود، وكان وجهها جميلاً، وتقاسيمه قاسيةً، وشعرها قصيراً، وعيناها زرقاوين؛ لقد كانت تنضح بأنوثةٍ قويّةٍ أُعجِبتْ بها مود، التي فرحت لرؤية ليونيل وقد تقزّم أمامها، وأخذت نبرة استجداءٍ تشوبُ كلامه .

- بوموش، فرانسا، فرانسوسكي، غطاء الشاحنة .

راح ليونيل يهذر بالكلام، وهو يلوّح بالأنبوبة المثقوبة أمامها بصورةٍ مثيرةٍ للسُّخرية.

نظرت المرأة إليه نظرةً قاسيةً قبل أن تلتفت، وتنادي أحدهم من الداخل، فانضمّ إليها رجُلٌ عجوزٌ على عتبة المنزل، لا بدّ من أنّه قد كان أطول وأقوى منها ذات يوم، إلّا أنّ الزمن قد أحنى ظهره، وجعل ثيابه تبدو فضفاضةً عليه، وكان شاربه الضخم يسطّر خطّاً عريضاً في منتصف وجهه، وكان حاجباه الكثيفان يخفيان عينيه الرماديّتين الصغيرتين .

عرض ليونيل حاجته من جديد، فأخذ الرجُل يتفحّص الأنبوبة، تأمّلها مليّاً ودخل المنزل من دون أن يغلق الباب، وبعد بُرهةٍ خرج من جديد بعد أن استبدل جزمةً من الكاوتشوك بشبشبهِ، وقطع الباحة الأماميّة بخطواتٍ صغيرةٍ، وأشار إلى الغريبَيْن بأنْ يلحقا به، فدخلوا الهنغار الذي كانت تنبعث منه رائحة الحبوب الجافّة، وزيوت المحرّكات، وفتح إحدى الغرف التي في صدر الهنغار، وراح يبحث في صندوقٍ مفتوحٍ ممتلئٍ حتّى الشفة بقطعٍ ميكانيكيّةٍ وحديديّة .

لم يجد ما كان يبحث عنه، فخرج من الغرفة، واتّجه نحو منضدة الورشة المتّسخة ببقع زيوت التشحيم، التي رُكِّبَ عليها مربطٌ ضخمٌ، وتحت المنضدة كان هناك الكثير من الصفائح الصدئة، التي تعود إلى حقبة الحرب العالميّة الأولى، فنظر ليونيل إلى مود بتعجُّب؛ لقد فقد أمله في أن يجد العجوز ما يمكن أن يكون مفيداً لهم .

- « الأمر مشابهٌ في أفريقيا » . قال ليونيل واثقاً من أنّ العجوز لن يفهم لغته : « يعشّمونك لساعاتٍ عوضاً عن أن يقولوا لك منذ البداية : إنّهم لا يملكون ما تبحث عنه » .

كان الرجُل العجوز يخرج بيديه المتغضّنة أغراضاً مختلفة الاستعمالات، يرفعها باتّجاه الضوء كي يستطيع نظره الضعيف تحديدها قبل أن يضعها على طاولة الحرفيّ، التي تحوّلت إلى معرض خردوات، الأمر الذي أثار سُخرية ليونيل .

- أتساءل : لما يحتفظون بهذا الكمّ من القذارة؟

أشارت إليه مود بأنْ يصمت .

- ربّما يمكنه فهم ما تقول!

- هل تعتقدين بأنّ ثمّة احتمال أن يفهم لغتنا؟

اضطّرب الرجُل العجوز فجأةً! لقد كان يدير ظهره لهما، ولم يكن باستطاعة مود أن ترى ما وجده، وعندما التفتَ رأتْ أنّه كان يحمل أنبوبةً ثخينةً من المطّاط أطول من تلك المثقوبة، ولكنّها تقريبا بالقطر نفسه .

- هاكما .

قالها بالفرنسيّة وقد انفرجت أساريره، فأمسك ليونيل بالقطعة بنوعٍ من الدهشة، وفرحت مود؛ لقد سجّلت نقطتها الثانية!

- هل تتكلّم الفرنسيّة يا سيدي؟

سألت مود، فقام الرجُل العجوز بوضع يده حول أذنه على شكل مخروطٍ، فكرّرت مود السؤال بصوتٍ أعلى .

- قليلاً، قليلاً .

أجاب الرجُل بلكنةٍ غريبة .

- هل زرتِ فرنسا من قبل؟

لقد كان أصم كالصخر، وكان عليها أن تصرخ مجدّداً .

- « حرب » . وبعد برهةٍ قضاها يبحث عن الكلمة المناسبة قال : « ضدّ النازيّين. فرنسا أصدقاء. أنا جنديّ » .

لم يستمرّ الحوار طويلاً؛ فقد رفض الرجُل باشمئزازٍ النقود التي قدّمها إليه ليونيل، وشكرته مود بابتسامةٍ عريضة .

عادا أدراجهما الآن نحو الشاحنات، وهما يحملان غنيمتهما الثمينة .

- من حظّنا أنّه أصمّ .

قالت مود لليونيل الذي كان يمشي، وهو يعرج .

***

عند وصولهما بالقرب من القافلة، كان الرجال الثلاثة يجلسون بصمتٍ حول النار، وكان فوتييه يشوي قطعاً من السجق، يقطر منها الدهن الذي لوّن النار بلونٍ برتقاليٍّ، وبدا راضياً عن القطعة التي أحضرها ليونيل معه .

– قطرها كبير نسبيّاً، لكنْ إن أحكمنا شدّ الأقمطة لن تكون هناك مشكلة .

قام بمسح يديه بقطعة قماشٍ قديمةٍ، وبدأ بالعمل على إصلاح المحرّك الذي عاد يعمل في غضون أقلّ من ساعة. أنهوا طعام الغداء بسرعة، وقام العسكريّان السابقان بإعادة تركيب بطّاريّة المطبخ في مكانها .

أراد ليونيل متابعة الرحلة مباشرةً، إلّا أنّ فوتييه الذي كان قد انعزل قليلاً على طرف المنحدر أشار إليه بأن ينضمّ إليه .

صاح بصوتٍ عالٍ :

– انتظر قليلاً! لقد أصلحت الأنبوبة، لكنّني أنا الذي خرِبت، الآن سندخّن معاً واحدةً صغيرة .

هذا النوع من الطلبات لم يكن ما اعتاد عليه الآخرون من ميكانيكيّ الرحلة، فقد كان يفضّل البيرة. لا بدّ من أنّ هنالك أمراً ما .

– « سنلحق بكم » . صاح ليونيل متوجّهاً للآخرين الذين كانوا قد صعدوا إلى قمراتهم : « قوموا بتحمية المحرّكات » .

كانت مود تقصّ على أليكس أحداث رحلتها مع ليونيل إلى القرية .

ما إنْ جلسوا الواحد بقرب الآخر، حتّى توجّه فوتييه بنبرةٍ طبيعيّةٍ جدّاً إلى ليونيل الذي كان يسخّن قطعة الحشيش على لهب قدّاحته قائلاً :

– لا أعرف ما الذي يحضّر له هؤلاء الاثنان.

– عمّن تتكلّم؟

– عن العسكريّين .

– ماذا قالا لك؟

– لا شيء لي مباشرةً، لكنّي كنت قد سمعتهما يتكلّمان فيما بينهما، بينما كنت أصلح المحرّك؛ لقد كانا بعيدين، لكنّ الهواء البارد يحمل الصوت بعيداً، سمعت الكثير حينما بدآ يتجادلان .

– ما الذي سمعته؟

– لا أعرف تماماً بمَ كانا يتناقشان، لكنّ الأسْود، أظن ...

– أتقصد أليكس؟

– نعم، أليكس كان يقول للآخر : « علينا إخبارهم » . وكان مارك يردّ عليه بغضب : « إنْ أقدمت على ذلك كسرت لك رأسك » . لم يكن أليكس سهل المراس، وكان يصرّ قائلاً : « لقد تكلّمت مع الفتاة، وأنا متأكّدٌ من أنّها ستتفهّم » .

– ألم تستطع فهم ما الموضوع؟

– لا، لكنّ أليكس كان لا يفتأ يردّد : « إنْ وجدت المليشيات ذلك الشيء لدى وقوفنا على إحدى الحواجز سيقوم ليونيل بإلقاء الملامة علينا، وسوف لن ينجح الأمر » . لكنّ الآخر لم يكن يودّ الاستماع إلى مثل هذه الحجج : « أتظنّ أنّه سوف يحمي ظهرنا إنْ صارحناه بالأمر؟ » . كان يشتمنا أيضاً : « هؤلاء الأشخاص مخصيّون وجبناء؛ لن يقوموا أبداً بالمشاركة في مخطّطنا » . غضب الأسْود، وقال أخيراً : « أنت غبيٌّ، وسوف لن ينجح الأمر بسببك » .

– هذا كلّ شيء؟

– نعم .

– ما الشيء الذي كانا يتكلّمان عنه؟ ماذا تظنّ أنّه يمكن أن يكون؟

– هاذان العسكريّان خبيثان، صدّقني، ما من شيءٍ يردعهما. أقطع يدي إنْ لم يكونا يحضّران لشيءٍ سيّئ. سنقع في شرك مخطّطاتهم إنْ لم نحْتط للأمر .

نظر ليونيل إلى الشاحنة الأولى، واستطاع أن يميّز وجه مارك الذي كان ينظر إليه من خلال الزجاج الأماميّ، ولحُسن الحظّ كانت لفافة الحشيش تهدّئ من روعه، فالفزع

بدأ يتسرّب إلى جوارحه، الأمر الذي لَحظه فوتييه .

كان ليونيل يشعر أنّ الميكانيكيّ يحتقر العاملين في المجال الإنسانيّ كلّهم، كذلك لم يكن يشكّ في أنّه لا يكنُّ له أدنى احترام، لكنّه كان حليفه في هذه المسألة، وكان عليه ألّا يُلقي بالاً لمشاعره تجاهه هو أيضاً .

– ماذا كنت لتفعل لو كنت في مكاني؟

– كنت سأفتّش مؤخّرة الشاحنة من بابها إلى محرابها، وأفتح الصناديق كافّةً؛ لأرى إن كانا قد قاما بإخفاء أيّة أسلحة، أو أشياء يمكن أن تورّطنا ضمن الحمولة .

رمى ليونيل عقب لفافة التبغ بعيداً، وانتصب واقفاً .

– سنرى .

كانت تلك هي طريقته في إظهار أنّه القائد هنا، لكنّه شعر أنّ طريقته هذه لم تعد تقنع أحداً .

5

تابع الفريقان رحلتهما، وعندما مرّت القافلة بالقرية التي يسكنها الرجُل العجوز الذي ساعدهم، قام ليونيل بإيقاف شاحنته أمام الهنغار، وذهب ليتحدّث إلى مود التي كان دورها في القيادة قد حان .

– هل يمكنكِ أن تسألي المرأة إن كان لديها ما تستطيع أن تبيعنا إيّاه؟ بيض، أرانب، أيّ شيء، وأنا بدوري سأقوم بطرح بعض الأسئلة على الرجُل العجوز .

أطفأت مود المحرّك، وذهبت لتقرع الباب، ففتحت المرأة لها، وأخذت مود تحاول أن تشرح ماذا تريد. كانت المرأة لطيفةً جدّاً هذه المرّة، ومبتسمةً أيضاً، وبما أنّ مود لم تكن تفهم أيّة كلمةٍ من لغتها، قامت المرأة بسحبها من يدها إلى مطبخها؛ كانت مساحة المطبخ كبيرةً، والمكان يوحي براحةٍ يصعب على الناظر إلى مظهر المنزل المتقادم من الخارج أن يتوقّعها، وكان بالإمكان رؤية أنّ ربّة المنزل قد حاولت جهدها تقليد الديكورات التي رأتها في المجلّات : الأدوات الكهربائيّة جميعها مصفوفة أسفل ترس المطبخ، والخزائن الجداريّة المدهونة بالأبيض بشقّاط البخار الكهربائيّ. مع الأسف، صُنع كلّ شيءٍ من موادّ غليظة توحي بذوقٍ سوفييتيٍّ لا مجال للشكّ فيه، وفي صدر المطبخ غرفة مؤونةٍ ممتلئةٌ برفوفٍ مصنوعةٍ من أخشاب صناديق قديمة، وكان هناك تفّاحٌ يُجفّف على مشبكٍ خشبيٍّ، وعلى أكثر من رفٍّ صفّت قطع جبنٍ بياضها كلسيّ، وتفوح منها رائحة عفونة. عرضت السيّدة كنوزها على مود، وهي تحاول أن تجعلها تردّد الاسم الصربي–الكرواتيّ لكلّ منتج، وكانت مود تشوّه الكلمات وتثير بذلك ضحكات مضيفتها القويّة .

وجد ليونيل الجدّ في الهنغار، وجلس الاثنان في الغرفة الرئيسة التي تقوم مقام صالون وسُفرة، التي ينتظم أثاثها حول تلفازٍ ضخمٍ مغطّى بقطعةٍ من الدانتيل. مع أنّ حديث ليونيل مع الجدّ لم يكن محطّ اهتمامها، إلّا أنّ مود استطاعت سماع صراخ ليونيل، وهو يحاول أن يتواصل معه .

جلب من الشاحنة خريطة طرقٍ، وقام ببسطها على الطاولة، فقام الريفيّ العجوز بوضع نظّارةٍ إحدى عدستيها مكسورة، وانكبّ يتفحّص الخريطة. أعطى العجوز ليونيل أفضل ما يمكنه من معلوماتٍ حول حالة الطرق، وعن أماكن وجود الحواجز العسكريّة في المنطقة. خرجت مود أخيراً من غرفة المؤونة محمّلةً بأنواع الغذاء كلّها، وأجلستها السيّدة في المطبخ، وأصرّت أن تسقيها من ذلك الشراب الأسْود الذي كان يحتويه إبريق قهوةٍ مصنوعٌ من الخزف، والذي لا بدّ من أنّه مغليّ الشعير المحمّص. أحبّت مود الانسجام النسائيّ الذي نشأ بينهما، الذي سمح لها أن تشعر بالأمان مع السيّدة، وأن تضحك معها، ولم تكونا تستطيعان التفاهم لغويّاً، لكنّ التواصل كان يتمّ على مستوى آخر .

هذا النوع من التواصل كان يبثّ الاضطّراب في نفسها؛ فقد كانت تقدّر عالم النساء جدّاً على الرغم من أنّها لطالما حاولت التملّص منه بأسلوب الحياة الذي اختارته.

ناداها ليونيل، فتذكّرت أنّ عليها أن تدفع ثمن مشترياتها، وعلى العكس من العجوز الذي رفض النقود التي عرضها عليه ليونيل، لم تُبدِ المرأة أيّ حرجٍ من قبول النقود التي قدّمتها لها مود، لقد رأت في ذلك البساطة، والبراغماتيّة (الواقعية) ، وعزّة النفس غير المبالغ فيها، التي تميّز إحساس النساء بالعالم في مختلف المواقف في الحياة؛ فعلى الرغم من التفاهم، أو حتّى الصداقة التي تجمعهما، إلّا أنّ قيمة الأشياء ومتطلّبات الحياة جعلتها لا تتردّد في قبول ثمن المنتجات التي أعطتها إيّاها مود .

– هل أعطاك معلوماتٍ مفيدة؟

سألت مود ليونيل، وهُم في طريق عودتهم إلى الشاحنات .

– نعم، علينا متابعة المسير قليلاً. لم يبق سوى ساعتين على مغيب الشمس. سأقوم بشرح كلّ شيءٍ في أثناء العشاء .

نبرة الأمر هذه أضحكتها، إلّا أنّها لم تعلّق بشيءٍ، وتابعت طريقها لتجلس خلف المقود بجانب أليكس .

عاودوا الانطلاق، وهُم يطلقون مزامير شاحناتهم كي يفسح المتجمهرون من أهل القرية الطريق لهم. دخولهم القرية جذب أشخاصاً فضوليّين إلى الطريق الرئيس، وهناك مجموعات من الأطفال راحت تزعق أيضاً، وهي تركض حول الشاحنتين.

ازداد جمال المناظر الطبيعيّة بعد أن غادروا الوديان المنخفضة، وكانت التلال تتموّج بهدوءٍ أمام أعينهم، وتبدو أكثر مقاومةً للنشاط البشريّ كلّما ازدادت ارتفاعاً، وامتداد الحقول يتوقّف عند حدودٍ رسمتها الصخور، أو غابات الصنوبر التي تكسو المنحدرات القاسية، والتي تشكّل المضائق الجبليّة الباردة. أحياناً، كان المرء يستطيع مشاهدة قمم أعلى ترتسم عند الأفق. ازداد ضباب ذلك اليوم الغائم كثافةً مع مجيء اللّيل
.

توجّه ليونيل بشاحنته نحو مدخل مقلع حجارةٍ قديم، وكانت جروف المقلع المصطفّة في طبقاتٍ الواحدة تلو الأُخرى تشكّل حائطاً لونه مائلٌ إلى الصفرة، حفرت فيه سيول الأمطار أخاديدَ يحيط بها فضاءٌ دائريٌّ واسعٌ ممتلئٌ بالحصى، وفي إحدى زواياه جُمعت هياكل سيّاراتٍ قديمة، لم تكن هذه الهياكل جزءاً من الأضرار التي خلّفتها الحرب، بل ما تبقّى من معدّات الحفر المهجورة .

بدأوا برنامجهم الرتيب المعتاد، الذي باتوا يحفظونه عن ظهر قلب. فوتييه – وبعد أن عرف المجد لمدّة ساعةٍ بصفته ميكانيكيّاً – عاد إلى دوره بصفته مسؤولاً عن إشعال النار، الذي تزامن مع دوره في تحضير الطعام في ذلك اليوم أيضاً .

عانوا قليلاً في غرز أوتاد الخيام في الأرض الصخريّة، وفتح ليونيل عدّة علب سردين بوساطة حجرٍ كبيرٍ، وأشعلوا مصابيح الطوارئ عندما أصبح الظلام حالكاً، وتناولوا عشاءهم بصمتٍ، وهُم يتحلّقون حول النار. كان الكلّ يعلم أنّ ليونيل سوف يبادر بالكلام، إلّا أنّ الأخير أطال مدّة الانتظار كي يعطي أهميّةً للكلام الذي سيقوله .

– بعد اثني عشر كيلومتراً سوف نغادر (كراجينا) لندخل ضمن حدود (ريبوبليكا سيربيسكا) ، دولة صرب البوسنة المعلنة من جانبٍ واحدٍ، وسوف نواجه فيها حواجز صعبة بلا شكّ، وعلينا أن نستعد لذلك جيّداً .

جلس أليكس القرفصاء، وهو يصغي بانتباهٍ، في حين كان مارك يرسم أشكالاً قبالية خفية على الأرض بوساطة طرف عصا خشبيّة، وكادت مود تغفو عندما قام ليونيل فجأةً برفع صوته .

– لهذا قرّرت أنّنا لن نتابع رحلتنا غداً صباحاً .

اعترى الجميعَ تعجُّبٌ صامتٌ، قاطعه أليكس بمزحة :

– فلنستقرّ هنا، ما رأيكم؟ هذه المنطقة تبدو جميلة .

– لن نتابع رحلتنا إلّا بعد أن نكون قد أتممنا جرد محتويات الشاحنتين .

جفل أليكس، ولحظت مود أنّه على الرغم من ثقته الكبيرة كان يتبادل نظراتٍ يشوبها القلق مع مارك .

– « ماذا تعني بجرد؟ » . قالها بنبرة تحدٍّ .

– يعني أن نقوم بإنزال الحمولة بأكملها، لدينا متّسعٌ من المكان هنا لحُسن الحظّ؛ نفتح الصناديق كافّةً لنتأكّد من أنّ محتوياتها تطابق الوثائق، ثمّ نعيدها إلى الشاحنة .

عمَّ صمتٌ طويل .

– « لقد خسرنا يوماً بأكمله بسبب العطل » . اعترض أليكس : « أتريد أن نخسر يوماً آخر أيضاً؟ إذا تابعنا على هذا المنوال سنصل بعد انتهاء الحرب » .

تهكّم أليكس هذا لم يثر ضحك أحد، فاستغل مارك الصمت ليطرح سؤاله بهدوء .

– أهذا إجراءٌ روتينيٌّ أم أنّ هنالك خطباً ما؟

– لدينا مشكلة .

– هل نستطيع معرفة ماهي؟

– قال لي الرجُل العجوز بعد ظهر اليوم : إنّ المليشيات شديدة الحساسيّة في هذه المنطقة في الوقت الراهن، ولا أريد أن أخاطر بأيّ شيء؛ سنقوم بتفحّص الحمولة، نقطة انتهى .

لم يكن هنالك من داعٍ لجدالٍ أطول؛ كان العسكريّان السابقان يعلمان بماذا يتعلّق الأمر، وأنّهما يثيران ارتياب ليونيل، ولم يكن الأخير يرغب بالجدال، أو الشجار معهما، فحيّا الجميع وانصرف للنوم .

– لا تنسوا إطفاء النار .

صرخ فوتييه، وهو يتبعه .

تفاجأت مود بهذا القرار، إلّا أنّها لم تكن تملك القوّة لمناقشته. لم تنم جيّداً في اللّيلة الفائتة، والمشي كان قد أتعبها، فحيّتهم وانصرفت بدورها .

وحدهما : أليكس، ومارك، بقيا حول آخر الجمرات المتّقدة، وعندما أغلقت مود الستائر في الشاحنة وأُطفئت الأنوار في خيمة ليونيل وفوتييه البعيدة عن النار، بدأ الاثنان بالتهامس فيما بينهما .

– لقد تكلّمت .

بدأ مارك الكلام بنبرةٍ هجوميّة .

– لا، أؤكّد لك .

– لا بدّ من أنّك قلت كلّ شيءٍ للفتاة، وإلّا فكيف استطاعوا معرفة الأمر؟

– من قال لك إنّهم يعلمون؟

– لماذا يريد تفتيش الشاحنة إذن؟

– بحق الله، ألا تريد أن تصدّقني؟

صوت أليكس كان مرتفعاً، فاستدار مارك نحو الخيمة .

– أخفض صوتك! لا تنقصنا المشكلات .

– « لم أقل شيئاً للفتاة » . أكّد أليكس بلهجةٍ عنيدة : « ربما يعود كلّ شيءٍ إلى بعد ظهر ذلك اليوم. أتذكر عندما احتدّ النقاش بيننا حين كانت الشاحنة معطّلة؟ حينها لم نُعِر أيّ انتباهٍ لوجود فوتييه على مقربةٍ منّا » .

– هذا ممكن .

أجاب مارك من دون أن يبدو عليه الاقتناع بما يقول، ولم يكن قد غيّر قناعته، لكنّه أزاح عن تفكيره هذا الأمر في الوقت الراهن؛ لأنّ الوقت غير ملائمٍ لتبادل اللّوم، بل لتقرير ما يجب فعله في الغد .

– على كلّ حال لقد فات الأوان؛ إنْ لم تتكلّم وإيّاها في السابق، فعليك أن تفعل ذلك الآن .

– لم أعد أفهم! كنت تتّهمني بأنّني تكلّمت مع مود، والآن تطلب إليّ أن أفعل ذلك .

– لقد تغيّر الوضع، هذا ما في الأمر كلّه. لم يكن مسوّغاً أن تتحدّث إليها في الأمر في السابق؛ لأنّها يمكن أن تفضحنا، وبما أنّك لم تخبرها، فالأمر اختلف، من الأفضل أن تشرح لها بنفسك ماهيّة الموضوع، على أن يقوموا هُم باكتشاف الشيء الذي نحمله. أفضل الممكن هو ألّا يفتح أحدٌ منهم العلبة. أتوافقني الرأي؟

لطالما كان الأمر على هذا المنوال بينهما؛ كان لمارك كلمة الفصل دائماً من دون سببٍ واضحٍ، حتّى عندما كان أليكس واثقاً من أنّ مارك على خطأ، كان دائماً يقوم بما يُمليه عليه، ولم يكن ذلك بسبب سُلطةٍ له عليه، ولا حتّى بسبب التراتبيّة العسكريّة، كان أليكس ينعت نفسه بالضعيف والغبيّ قبل أن يتصالح مع الأمر ويرى في خضوعه أمراً جميلاً، وشكلاً مميّزاً من التعبير عن الصداقة، لقد كانت ثقته فيه مطلقة، هذا ما في الأمر كلّه. لقد كان يعرف مارك جيّداً ليكون على يقينٍ من أنّ ما يفعله يجلب الخير لهما معاً، وكان ينظر إلى نفسه على أنّه أكثر جبناً، وأنانيةً، وتقليديّةً من رفيقه، إلى درجةٍ جعلته – على الرغم من تحفّظاته كلّها – يرضخ للرأي الآخر .

– حسناً، سأتكلّم معها غداً صباحاً .

أطال التفكير بذلك كلّه، وهو متمدّدٌ على الأرض الباردة غير المستوية في خيمته. تطلّب منه الأمر عدّة ساعاتٍ قبل أن يغمض له جفن .

كانت الرطوبة تتركّز في عمق الميدان الصخريّ الذي يشكّله المقلع، وتتكثّف على شكل ماءٍ منسابٍ على السطح الداخليّ للخيمة. استفاقوا، وهُم يشعرون ببردٍ يفوق العادة، ولكنّ السماء كانت صافيةً، والشمس خريفيّةً دافئةً فوق الأجمة، ومن جهة الشرق أضاءت الشمس جدران المقلع بلونٍ أصفر يشبه لون القشّ، وأوراق الأشجار التي لم تسقط بلونٍ أصهب ترتاح له العين .

قالت مود في سرّها : إنّه يومٌ جميلٌ للسفر، ولكنْ عوضاً عن السفر، وبعد التهام وجبة الفطور، قاموا برفع شوادر الشاحنة، وإخراج قوائم المنتجات التي يحملون، وبدأوا بالجَرد .

أظهر مارك حماسةً غير مسبوقةٍ إلى درجة أنّ الشاحنة الأولى تجهّزت بفضله لعمليّة التفريغ قبل الشاحنة الأُخرى، فبدأ ليونيل جَرد تلك الأخيرة بمساعدة فوتييه .

كان أليكس ومود يحتسيان كوباً آخرَ من القهوة ريثما يحين دورهما، وهُما يمسكان الأكواب المصنوعة من حديد الستانلس في راحتيهما لبثّ الدفء فيهما .

- « ألا ترغبين في السير قليلا؟ » . اقترح أليكس : « دورةٌ صغيرةٌ بخطواتٍ قصيرةٍ ستزيل هذا الخدر من أرجُلنا؛ لدينا متّسعٌ من الوقت قبل أن ينتهوا » .

- فكرةٌ جيّدة .

انتهوا من الشرب، وقالت مود للآخرين :

- سنهرول قليلاً ونعود .

ابتعدا، وهُما يهرولان، وكانت أشعّة الشمس لم تصل بعد إلى الطريق، والرطوبة قويّة، فتكثّفت أنفاسهما على شكل بخارٍ أبيض يخرج من فمهما، وكان أليكس يركض براحةٍ، خطواته سهلة، وعلى الرغم من سرعته إلّا أنّه لم يكن يلهث .

- « أتعرفين؟ » . بادرها بالكلام حين بدأت الحرارة تدبّ في جسديهما : « لديّ شيءٌ أقوله لكِ؛ لهذا السبب أردت الابتعاد قليلاً » .

نظرت مود إليه بطرف العين. لو لم يكن أليكس هو الذي بجانبها لظنّت أنّ الكلام سيكون للتعبير عن الحُبّ، أو لعرض ممارسة الجنس معه، لكنّها كانت تشعر بالأمان معه. لمَ كانت لا تخشى شيئاً من هذا الصبيّ؟

- كلّي آذان مُصغية .

أفضى الطريق بهما بعد تجاوز منعطفٍ طويلٍ إلى سهلٍ ممتلئٍ بالمراعي، فأزاحت مود وجهها باتّجاه الشمس، وأغلقت عينيها بسعادة .

- تذكرين ما قلته عن المنجم في (كاكاني) ؟

- اللاجئون في الأفران .

كانت تلك الصورة أكثر ما أثّر فيها، على الرغم من أنّها بثّت في نفسها نوعاً من الرعب، إلّا أنّها كانت تواجه صعوبةً في تخيّل المشهد بدقّة، لقد حلمت بذلك؛ تراءت لها

أفرانٌ رأتها مرّةً في كتابٍ حول المحارق النازيّة، وجدته في مكتبة والديها .

– نعم، لكنّني تكلّمت معك أيضاً حول المضخّات .

– المضخّات التي تسحب الماء من الأنفاق، أليس كذلك؟

– المضخّات التي لولاها لغرق المنجم، وأصبح خارج الخدمة إلى الأبد .

– إذنْ؟

– المضخّات تعمل على الفحم .

أصيبت مود بخيبة أمل؛ فقد توقّعت أن تحصل على معلوماتٍ عن خطيبة أليكس؛ أي : أن يكلّمها عن موضوعٍ إنسانيٍّ ملموسٍ وعاطفيّ، شيء ما تدبّ فيه الحياة، ولم تفهم لِمَ استمرّ في إخبارها عن المضخّات .

– لم يعد أحدٌ يستخرج الفحم كما قلت لك؛ لأنّ المنجم متوقّفٌ عن الإنتاج .

كان سرْبٌ من عصافير الشحرور يتأمّلهما، وهو يحطّ على صخرةٍ على شكل قاطرة، فتأمّلت مود المشهد، وهي تبتسم .

– إذنْ، كيف يتدبّرون الأمر بلا فحم؟

قالت مود ذلك من دون تركيز، ولكنْ لتعطي الانطباع لـأليكس بأنّها تهتمّ لما يقوله .

– في بداية الحرب، ظلّ المنجم يعمل، إلّا أنّه لم تكن هنالك من إمكانيةٍ لنقل المنتج، وخلال بضعة أيّام، تجمّع المخزون وتوقّف الإنتاج؛ يستعملون هذا المخزون الآن لتشغيل المضخّات .

– يا له من شابٍّ ظريفٍ حقّاً! لماذا كان يبدو محرجاً ومنزعجاً من التحدّث عن قصص الفحم هذه؟

على كلّ حال، توفرت لهم الفرصة للقيام بهذه الهرولة القصيرة التي حسّنت من مزاج مود بصرف النظر عن أهميّة الحديث .

– هذا المخزون كبير؟

سألت مود لتعطي انطلاقةً جديدةً للحديث .

– المشكلة كلّها تكمن هنا؛ المخزون على وشك النفاد .

– ألا تستطيع الأمم المتّحدة أن ترسل لهم قافلة فحم؟

– لا، هذا ممنوع! تُعدّ المحروقات موادَّ استراتيجيّة، وهي في رأس أولويّات الصرب في حربهم، إنّهم يقومون بتدمير مخزونات المحروقات كافّةً، الموجودة خارج مناطق سيطرتهم، على سبيل المثال : في (سراييفو) ، هاجموا محطّات توليد الطاقة منذ البداية لحرمان المدينة من الكهرباء .

على الرغم من كونه رياضيّاً، إلّا أنّ أليكس وجد صعوبةً في الحفاظ على وتيرة الركض نفسها، وهو يتكلّم بهذا القدْر، لقد كان يلهث، وكانت مود تبطئ من عَدْوها حتّى يلتقط أنفاسه. أفسد هذا الحديث لها بهجتها؛ ولهذا بحثت عن طريقةٍ لتغييره من دون أن تضايق محدّثها .

– هناك حلٌّ وحيدٌ لكي تبقى المضخّات تعمل، ويعود المنجم إلى الحياة .

أصرّ أليكس .

– وما هو؟

– استخراج الفحم من المنجم، القليل منه، ما يكفي فقط لتعويض النقص في المخزون .

– أرى أنّه ما من شيءٍ يمنعهم من ذلك، أليس كذلك؟

– بلى .

لم يكن لدى أليكس الرغبة في التكلّم عن شيءٍ آخر، الأمر الذي عكّر مزاج مود؛ فاقترحت أن يعودوا أدراجهم إلى مقلع الحجارة. استسلم اليكس لرغبتها بالعودة، لكنّه توقّف بعد مئة مترٍ، وقال بنبرةٍ مختلفةٍ كليّاً :

– عليكِ أن تصغي إليّ جيّداً مود؛ حديثنا هذا ليس بالحديث العابر .

انصدمت من تعابير وجهه الجديّة، ومن نبرة صوته التي تنمّ عن قلقٍ عميق .

– سنجلس هنا .

قالت مود، وهي تشير بإصبعها إلى مرجٍ جفّت أعشابه بفعل الشمس .

– « سأدخل في صلب الموضوع » . قال أليكس : « كي يُستَخْرَجَ الفحمُ من منجمٍ كهذا الذي في (كاكاني) ليس هنالك من طريقةٍ سوى تفجير جدران الأنفاق؛ العروق المعدنيّة قاسيةٌ جدّاً، والمواد التقليديّة المستعملة لم تعد كافيةً لتفتيتها؛ أمّا إذا أُحْدِثَ شقٌّ في العرق، فسيصبح بالإمكان كسرها بالأيدي، أو بمطرقة رجراجة وجمع الفحم، لكنْ لا بدّ من تفجيره في البداية » .

– وكيف يمكننا تفجير طبقة صخورٍ كهذه في منجم؟

سألت مود التي بدأت تفهم بماذا يتعلّق الأمر .

– بوساطة المتفجّرات .

التفتت نحو أليكس الذي حدّق في عينيها، ففهمت الأمر .

– وتأمين المتفجّرات هو أمرٌ أكثر صعوبةً من تأمين الفحم، على ما أظنّ .

– الصرب لم يتعاونوا في هذا الشأن على الإطلاق؛ هُم يرفضونه كليّاً .

نظرت إليه مليّاً، وفجأةً! تولّد لديها الانطباع بأنّه كان غريباً عنها، وبأنّه يحاول التلاعب بها . أضاف أليكس مسرعاً :

– إنّها ليست متفجّرات العسكريّة؛ هي عبارة عن قضبانٍ ننصبها في ثقوبٍ كي تُحدث شقوقاً في الصخور، ولا تصلح لأيّ شيءٍ آخر، لا يمكن تفجير أيّ شيءٍ آخر بها .

– لكنّها في النهاية عبارة عن متفجّرات .

– ليس هنالك من تسمية أُخرى لها، إلّا أنّها في الحقيقة لا تمتُّ بصِلةٍ إلى المتفجّرات المستعملة في العمليّات العسكريّة . فلْنسمّها مفرقعات ورشات عمل إنْ أردتِ .

– ولقد حمّلتموهما في شاحناتنا، أليس كذلك؟

هزّ رأسه موافقاً كطفلٍ يعترف بذنبٍ اقترفه .

– وضعتما متفجّراتٍ داخل حمولتنا؟

انتفضت واقفةً، وأخذت تنظر إليه بعينين يملأهما الغضب .

– وضعتما متفجّراتٍ في الحمولة؟! لا بدّ من أنّكما فقدتما عقلكما تماماً. أتدريان حجم الخطر الذي تعرّضوننا له؟ تورّطان جمعيّةً خيريّةً بأكملها بحماقاتكما. ألا تباليان بأن يُسجن ثلاثة أشخاصٍ أبرياء بسببكما؟

تقدّمت بضع خطواتٍ باتّجاه المقلع، فقفز أليكس ولحق بها، وأمسكها من ذراعها، إلّا أنّها استطاعت التملّص منه، وتابعت مسيرها. هذه هي حال الرجال دائماً؛ لا يمكن تصديقهم، وإنْ ظهروا بمظهر الصادقين. أحسّت مود بأنّها تعرّضت للخيانة، فلامت نفسها لأنّها وثقت به، على الرغم من تمتّعه بوجهٍ ملائكيٍّ، إلّا أنّه لا يختلف عن الآخرين بشيء. كان ليونيل على حقّ حين صنّفه في خانة صديقه نفسها .

– اهدئي! إن كنت أتحدّث إليكِ فذلك لأنّه ...

– لأنّك تظنّ أنّك تستطيع أن تعبث بي، وتشركني في خطّتك. أتظنّ أنّني لم أكن أتوقّع هذا؟

أخفض أليكس بصره .

– ظننت أنّكِ ستتفهّمين الأمر .

لقد كانت نبرة صوته تنمّ عن خيبة أملٍ حقيقيّة، فاستأنفت مود مسيرها نحو المخيّم من دون استعجال. لحق بها أليكس بصمت. كانت تفكّر بهذا الموقف، فتباطأت خطواتها بوتيرة تقدّمها نفسها، وشعرت أنّها حائرةٌ، وغير واثقةٍ تماماً من موقفها، وتلاشى غضبها، وأخذت تتخيّل ما الذي سيحصل. الاحتمال الوحيد هو أن تفضح أليكس مطالبةً إيّاه بتوضيح. على الرغم من كلّ شيء، كانت هذه الفرضيّة تثير حنقها، فقد وثق بها، وتحدّث إليها أوّلاً بصرف النظر عن دوافعه، ولم تكن لديها الرغبة بأن تتصرّف بحماقةٍ كموظّفةٍ رسميّةٍ من العهد السوفييتيّ كما كان ليونيل يفعل، لقد كان عليها على الأقلّ أن تستمع إليه حتّى النهاية، وأن تحاول فهم وجهة نظره .

– لماذا لم تقودا قافلةً وحْدكما كي تنقلا هذا الشيء؟

قالت ذلك كما لو كانت تتكلّم مع نفسها، ومن دون أن تنتظر جواباً : « في نهاية الأمر، هناك العديد من الأشخاص غير المنتمين إلى أيّة منظّمةٍ يقومون بنقل المعونات

إلى البوسنة، ولم يكن عليكما توريط منظّمةٍ إنسانيّةٍ برمّتها في هذا الأمر » .

تركها أليكس تفرّغ شحنات غضبها، وتخفّف التوتّر الذي أثاره بكشف السرّ، وقام بعد ذلك بالجلوس على قارعة الطريق، ممسكاً برأسه بين يديه، وبدأ بالكلام من دون أن يبدو أنّه يردّ عليها مباشرة .

6

– « عندما يعتاد المرء معاشرة هؤلاء الأشخاص » . قال أليكس من دون أن يوجّه كلامه إلى مود مباشرةً : « سيرى الأشياء من منظورٍ مختلف » .

كانت مود تنظر إليه غاضبةً. سوف يتباكى على حال صديقته، وسيحاول استجداء عطفها بمشاعره. لقد كانت مستعدّةً لأنْ تُظهر نوعاً من التعاطف على الرغم من مشاعر الغضب التي تخالجها، لكنْ ما الذي سيتغير من جرّاء ذلك؟

تابع أليكس كلامه :

– في الحقيقة، إنّهم لا يَعْبؤون بما نحضره من مساعدات؛ إنّهم معتادون شظفَ العيش إلى حدٍّ كبير، هُم ليسوا مثلنا، لا يشعرون بالضياع من دون صيدليّاتهم، أو مراكز تسوّقهم؛ لم تدلّلهم الحياة قطّ .

تساءلت مود : لماذا ما زالت تستمع إليه؟ لكنّه أثار نقطةً صحيحةً، ربّما بمحض المصادفة، فهي أيضا كانت قد طرحت على نفسها هذا السؤال؛ هنالك حرب، والكلّ يتكلّم عن الفظائع التي تُرتكب، وما الذي تفعله هي؟ تقوم بإحضار ألواح الشوكولاتة وموادّ التضميد. لقد أذعنت للأمر الواقع من باب أنّ ذلك من غرائب هذا الزمن؛ هكذا جرى الأمر، ولم تكن تدري في داخلها ما الشيء الآخر الذي تستطيع فعله، إلّا أنّها كانت لا تزال تشعر بنوعٍ من عدم الراحة، بنوعٍ من الخجل .

– « يعلمون أنّ الحرب ستضع أوزارها يوماً » . أردف أليكس متأمّلاً : « الكثير من الحروب وقعت في هذه المنطقة، وانتهت جميعها » .

كانت هناك عربة تتّجه نحوهم، يجرّها بغلٌ، ويقودها مُزارعٌ عجوزٌ متغضّن الوجه، يجلس على مقعدٍ خشبيّ. لم ينظر إليهما في أثناء عبوره من أمامهما، وبدا الأمر كأنّ ظهوره جاء ليدعم فكرة أليكس، فالمرء يشعر بأنّ قدَر هذا الرجُل العجوز محكومٌ منذ ولادته بالمقاومة والخضوع على حدٍّ سواء، وفكرة تقديم مساعداتٍ ماديّةٍ له كانت مثيرةً للسُّخرية كليّاً، وفي غير محلّها .

جلست مود بدورها على المرج، وتابع أليكس :

– ما يريدونه هو أن يستمرّوا في حياتهم .

دَهمتهم شمس الخريف الشاحبة بأشعّتها الدافئة، فأداروا وجوههم نحو الضوء .

– هذا ما يعنيه لي العمل الإنسانيّ .

دبّت الحياة في أليكس من جديد، ووجّه نظره إلى مود .

– يجب ألّا يكون كلّ شيءٍ مدمّراً حين تنتهي الحرب، أتفهمين؟ على الناس أن تتابع حياتها مجدّداً. في هذا البلد الذي لا يملك أيّ موردٍ للطاقة، أيّ موردٍ لطاقةٍ يتدفّأ عليها، أو يشغّل مصانعه بها، أكثر ما يهمّ هو الحفاظ على القليل الموجود منها؛ صناعة الفحم هذه هي ما يملكونه كلّه من ثروة .

انتظر برهةً قبل أن يختتم مرافعته بنبرةٍ ملؤها شغف وحماسة، ولا يشوبها أيّ شعورٍ بالذنب :

– صدّقيني، إنّ الشيء الأكثر أهميّةً في قافلتنا هو قطع المتفجّرات الصغيرة هذه التي ستنقذ المنجم من الهلاك .

لم تكن مود تستسيغ الأفكار المسبقة، فلطالما استهجنت أنّ الكثير من الناس لا يستطيعون فهم التعقيد الذي تكون عليه الأشياء، لقد كانت مغرمةً بالتناقضات، وبدت التناقضات بالنسبة إليها الغذاء الذي يقتات عليه الذكاء، وفكرة أنّ العمل الإنسانيّ شيءٌ مختلفٌ كليّاً عمّا يظنّه الناس، وكما ظنّت هي أيضاً حتّى بضع لحظات؛ كانت اكتشافاً مقلقاً، ونوعاً من التحدّي، وكانت ستلوم نفسها لو لم تقبله .

– أتظنّ أنّ العمل الإنسانيّ يجب أن يقوم على نقل المتفجّرات؟

سألت مود رغبةً منها بالمتابعة في تلك اللّعبة الفكريّة التي بدأها أليكس، وليس للسُّخرية من أفكاره .

– أظنّ أنّ العمل الإنسانيّ يقوم على عدّة أشياء، وأنّ هنالك الكثير من أنواع العمل الإنسانيّ على الأرض. شيءٌ طبيعيٌّ أن تقوم منظّمات الأمم المتّحدة بالاكتفاء بتقديم المعونات الغذائيّة، فالمعونات ضروريّة على كلّ حال، ولا يمكن للمنظّمات أن تعمل خارج الإطار الذي تحدّده لها الدول؛ أمّا المنظّمات غير الحكوميّة، فلا ترزح تحت

الضغوط نفسها؛ فهي حرّة، وبماذا تنفعها حريّتها إن لم تسمح لها بالارتقاء بعملها، والقيام بأعمالٍ محظورة؟

– شرط أن تقرّر فعل ذلك، وأن يوافق العاملون على الأرض جميعهم على المجازفة؛ أنتما لم تناقشانا بشيءٍ، ووضعتما المتفجّرات في الشاحنتين من دون علمنا .

– صحيح، وها أنا أخبركم بذلك الآن .

هزّت مود كتفيها لا مبالية .

– كلام سهل، لكنّكم لم تتركوا لنا خياراً آخر .

– « ليس ذلك بالشيء المهمّ. ها نحن نقول لكم » . تابع أليكس، وهو ينظر في عينيها : « نقول لكم ما ننوي أن ننقل، ولماذا. السؤال الوحيد الذي يجب طرحه هنا هو : هل ترون فائدةً في هذه الحمولة؟ نعم أم لا؟ » .

انتصبت، وهي تنفض الغبار الملتصق ببنطالها الجينز .

كان ذلك كلّه مثيراً للغرابة، ودّت لو تضحك؛ فقصّة المتفجرات هذه كانت أوّل حدثٍ مثيرٍ للاهتمام حصل معهم منذ بداية الرحلة، ولم تكن في داخلها تريد أن تعترف بأنّها كانت تشعر بالملل في هذه الرحلة، وباستثناء الإثارة التي توفّرها لها قيادة الشاحنة ما من شيءٍ آخر أثار حماستها، فكان تتالي النهارات واللّيالي قاتلاً، والجوّ ثقيلاً، والمناظر الطبيعيّة كلّها رتيبة. كانت تتمنّى في لا وعيها حصول شيءٍ ما شرط أن يكون غير متوقّع، وقصّة المتفجّرات هذه كانت تفوق ما كان باستطاعتها توقّعه كلّه .

– ما الأخطار التي تحدق بنا إذا ما انكشف أمرنا؟

– ليس بالشيء الخطير؛ سوف يصادرون الشاحنات، ويسجنوننا لعدّة أيّام، وستقوم فرنسا بعد ذلك بإرسال موظّفٍ، قنصل، أو أيّ شخصٍ آخر؛ ليقوم بتحريرنا، وإن لم يُرسلوا أحداً، ستضجّ عناوين نشرات الأخبار المسائيّة بنا، والصرب لا يتمنّون ذلك البتّة .

ضحكت مود في سرّها، وهي تتخيّل أمّها تبكي أمام شاشة التلفاز. لا شيء سيختلف عمّا هو الآن؛ فأمّها كانت على قناعةٍ بأنّ ابنتها ذهبت إلى الموت بمحض

إرادتها، ولن تزيدها الورطة الجديدة من القلق أكثر ممّا هي عليه، على العكس، ستثبت لها بأنّها كانت على حقّ .

– على الرغم ممّا تدّعيه، لم تكن مطمئنّاً عند المرور بالحواجز؛ لقد رأيتك .

– ذلك لأنّكم لم تكونوا تعرفون، هذا أكثر ما كنت أخشاه، فلو كنّا على اتّفاقٍ لقلّت حظوظهم بأن يكتشفوا أمرنا، وحتّى إن اكتشفوا شيئاً بمحض المصادفة، لكنّا استطعنا أن نتّفق على المسوّغ الذي سنقدّمه إليهم. هذه المتفجّرات ليست بالشيء المثير للانتباه حقّاً، إنْ لم يكن المفتّش خبيراً بها، ويمكننا أن نقول : إنّها... فلْنقل : إنّها موادّ طبيّة على سبيل المثال .

– لماذا؟ ماذا تشبه هذه المواد؟

– عبارة عن عيدان أسطوانيّة ملفوفة بورق الألمنيوم .

– أهنالك الكثير منها؟

– مئتان، موزّعة على عدّة علب كرتونيّة .

– خبأتموها هناك قبل انطلاقنا؟

– نعم، مارك هو من قام بذلك؛ لقد اختبأ في أحد المساءات داخل مرآب لاتيت دور، وفتح بعض الكراتين .

– في الشاحنتين؟

– لا، في التي نقودها فقط .

طال الحديث بينهما حتّى وصولهما إلى أطراف المقلع، على الرغم من سيرهما البطيء .

– ما العمل الآن؟

سأل أليكس، وتوجّه بسؤاله هذه المرّة مباشرةً إلى مود؛ إذْ إنّه لم يعد يملك خياراً .

– لا أدري .

قالت ذلك، وهي تحثّ خطاها. لقد كانت بالفعل صادقةً بقولها : إنّها لا تدري ما العمل .

***

كان الجوّ مشحوناً؛ فمارك وليونيل منشغلان بتركيب رابط الشادر الخلفيّ للشاحنة الأولى، وفوتييه يحوم مكفهرّاً حول الموقد .

– « أين كنتما أنتما الاثنان؟ » . قال ليونيل : « ليس هذا بالوقت المناسب للبدء بعلاقةٍ غراميّة » .

أثارت هذه الملحوظة الغبيّة حنق مود، وبما أنّها كانت متردّدةً إلى أيّ جانبٍ تصطفّ، جاء هذا التفصيل غير المهمّ ليرجّح كفّة أحد الطرفين، مع إدراكها بأنّ الأمر برمّته سخيف، شعرت – بصورةٍ مبهمةٍ – أنّ هذه الكلمات الثلاث الّلاتي تلفّظ بهنّ ليونيل من دون أن يفكّر في وقعها عليها سوف تقرّر الطرف الذي ستميل إليه في النهاية .

– « سنبدأ تفتيش الشاحنة الثانية » . قال ليونيل : « لكنْ دعونا نتناول طعام الغداء قبل ذلك، هكذا يصبح بإمكاننا متابعة الطريق بعد أن ننتهي من تفتيش الشاحنة » .

– مازال الوقت باكراً على تناول الغداء .

– نحن تعبنا، ونشعر بالجوع .

رفعت مود غطاء الوعاء على النار، كانت طبخة خضار مشكّلة معلّبة تغلي داخلها، وسبحت على وجهها قطع سجق أضافها فوتييه إليها. وزّعوا صحون البلاستيك التي ما زالت لسوء غسلها تلتصق عليها بقايا صلصة طبخة البارحة، فسكبت مود الأكل للجميع بمساعدة مغرفةٍ من الحديد الأبيض، وذهبوا جميعاً ليجلسوا على الأرض متباعدين عن بعضهم. فكرة تكرار برنامج الرتابة هذا لأيّامٍ وأيّامٍ أُخَر، مع هذا الجوّ المشحون كلّه، والكراهية غير المعلنة التي تنمّ عنها كلّ حركة، جعلتها تتأمّل انفجار الأمور دفعةً واحدةً لتجري تصفيتها ولو بطريقةٍ عنيفة .

أنهت صحنها بسرعة، ومسحته بقطعة خبزٍ، ووضعته في ماعون الجلي .

– أما زال هناك قهوة؟

هذه كانت إحدى نقاط قوّة مارك؛ كان يجهّز كلّ صباحٍ ليترين من القهوة يسكبها في ترمس. القليل الذي تعرفه مود عنه هو أنّ أصوله تنحدر من شمال فرنسا، وأنّه يشحن طاقته بشرب الكثير من القهوة .

– الترمس البلاستيكيّ الكبير فارغ، لكن هناك في ترمس الإينوكس. سكبت مود لنفسها كوباً، كان الشراب بالكاد أسْود اللون، يشبه الشاي أكثر من القهوة، وطعمه يحمل آثار الأوعية جميعها التي حُفِظ فيها .

اقترب الآخرون كي يسكبوا لأنفسهم أيضاً .

– أوجدتم شيئاً في الصناديق؟

– لا شيء .

– هل من مسوّغٍ لعناء البحث في الشاحنة الثانية؟

– سنكمل ما بدأناه .

حسم ليونيل الأمر .

كان هناك غرابان جذبتهما رائحة الطعام، يراقبان المشهد من بعيد. لَحظت مود أنّ مارك كان ينظر إلى أليكس، وتشكّل لديها انطباعٌ بأنّ هذا الأخير يرفع حاجبيه، كأنّه يريد التعبير عن إرباكه .

– حسناً، هل نعود إلى العمل الآن؟

زمجر فوتييه .

كان هو الأكثر عزماً وتصميماً على المضيّ في الأمر حتّى نهايته، على الرغم من مظهره المتعالي لم يكن ليونيل يقوم سوى بتنفيذ أوامره، وكانت مود تعتقد في المراحل الأولى للرحلة، حين كانت ضمن فريق الشاحنة الأولى؛ أنّ مارك هو الأكثر إثارةً للقلق في تلك المجموعة لكونه غامضاً وكتوماً، لكنّها بدأت تفهم الآن أنّ العنف الصامت الذي كان سائداً في الفريق هو من فعل فوتييه وحْده .

- سأنهي لفافة تبغي ونبدأ .

قال ليونيل .

- ابقيا حيث أنتما .

بالكاد صرخت مود حتّى راح الكلّ ينظر إليها، لقد تفاجأت هي من ردّ فعلها .

- ابقيا، لدينا ما نقوله لكم .

تردّدوا قبل أن يقفوا، وهُم يمسكون بأكوابهم، فاقتربوا أخيراً من بعضهم، وقام الواحد تلو الآخر بالجلوس على الأرض على غرار ما فعلت مود التي بدأت حديثها بالقول :

- ما من داعٍ لفتح الصناديق .

شعرت فجأةً بالخوف! واعترتها الرغبة بالتراجع وعدم التدخّل، لكنّ الأنظار كلّها كانت تتوجّه إليها . فجأةً! خطرت لها إحدى ذكريات الطفولة حين كانت في المسبح مع أخيها؛ كانا يغطسان من أعلى حوافّ حمّام السباحة حين خطر لأخيها أن يتحدّاها بالغطس من أعلى خشبة القفز التي ترتفع عشرة أمتارٍ عن السطح، ولم يكن للأطفال الحقّ باعتلائها، فصعدا إليها، وبدا حوض السباحة صغيراً من أعلى الخشبة، وكان مسبحاً مكشوفاً تعكس مياهه نور الشمس على شكل ومضاتٍ بيضاء . حاول أخوها التقدّم، إلّا أنّه ما كاد يصل إلى طرف الخشبة حتّى عاد راكضاً، ووجهه شاحبٌ من الخوف، فقامت مود بالتقدّم بدورها، فجمد حينها الدم في عروقها، وانتابتها الرغبة في هجر جسدها، فشاهدها أحدهم من الأسفل، وصرخ معلناً الأمر، كانت تسمع صرخاتٍ بعيدة، لكنّ نوعاً من الصمت وجد الطريق إلى قلبها، لقد أخذت قرارها بالتراجع وبالنزول عن الخشبة مع أخيها على السلّم، وانتبهت في تلك اللّحظة إلى النظرات، عشرات من النظرات المشدوهة التي كانت تحدّق فيها؛ حصل هذا منذ خمس عشرة سنة خلت، إلّا أنّها كانت على قناعةٍ أنّ هذه النظرات هي ما حفّزها على القفز، على الرغم من أنّ هذه المغامرة انتهت بقضائها عشرة أيّامٍ في المستشفى، وبكسر في عظام العنق، كان من الممكن أن يصيبها بالشلل، إلّا أنّها كانت لا تتذكّر هذه اللّحظة من دون شعورٍ كتومٍ بالفخر والقناعة بأنّها حدّدت كلّ ما ستكون عليه حياتها .

- سأقول لكم بنفسي ما الذي ستجدونه .

اقترب فوتييه الذي كان قد بقي متطرّفاً في البداية، فتبادل أليكس ومارك النظرات، وراح ليونيل يضغط بعصبيّةٍ على لفافة تبغه .

– هناك متفجّرات في بعض الصناديق .

– حقراء! لقد كنت متأكّداً!

صرخ فوتييه .

– أيمكنك أن تدعني أنهي كلامي؟

لقد تفاجؤوا بما أعلنته لهم مود، ولكنّ مفاجأتهم الكبرى كانت بالشخصيّة القياديّة التي أبدتها .

– ليست متفجّرات العسكريّة، إنّما متفجّرات تُستعمل لاستخراج الفحم من المناجم .

من دون أن يقاطعها أحد، قامت مود بشرح كلّ شيء بوضوح : المنجم، والمضخّات، والسراديب التي يمكن أن تغرق بالمياه، وأنهت كلامها بإبداء رأيٍ تولّد لديها في الّلحظة نفسها التي قالته فيها، الذي لم يكن سوى تكرار لكلمات أليكس :

– هذه المتفجّرات هي – بلا شكّ – ما يحتاجون إليه أكثر من أيّ شيءٍ آخر، وأنا على استعدادٍ لتحمّل المخاطرة .

أعقب كلامها صمتٌ ثقيلٌ لا ينبئ بفألٍ حَسَن، وبالفعل ما إن انتهت من كلامها حتّى ثارت عاصفة .

– « متفجّرات! » . صاح فوتييه : « أتريديننا أن ننقل متفجّرات؟ لا بدّ من أنّني أحلم » .

نهض بحركةٍ واحدة .

– سأقوم أنا بفتح الصناديق حالاً، وسنترك قذارتهم هذه هنا .

خرج فوتييه عن طوره، وكان واضحاً بأنّ رغبةً بدقّ عنق العسكريّين قد اجتاحته، خاصّةً مارك الذي حظي بالحصّة الأكبر من بغضه .

طار الغرابان، وهُما ينعقان، وظهر التباين بين صوتهما وبين الصمت الثقيل الذي ساد المقلع .

حدث آنذاك شيءٌ غير متوقّع؛ فقد أدرك فوتييه أنّه كان وحيداً في موقفه هذا، على الرغم من أنّ ليونيل كان تحت تأثيره، لكنّه كان يَعي أنّ ميزان القوى لم يكن في صالحه، ومود والعسكريّان لم يُحرّكوا ساكناً؛ كانت تنبعث منهم قوّةٌ لا يوازيها هياج فوتييه بشيء .

– فلنحاول التفكير .

قال ليونيل أخيراً .

فهمت مود أنّها قد ربحت الجولة، وزاد من إثارتها أنّها لم تكن متأكّدةً من كونها على حقّ فيما تفعله، لقد قفزت من فوق خشبة المسبح من دون أن تدرك ماهي النتائج التي سيترتّب عليها سقوطها في المجهول .

***

استمرّ الحديث شكليّاً لما يقارب الساعتين، وتمحور حول حلّ الإشكالات، وتقييم المخاطر، وتوزيع الأدوار، وشعرَ الكلّ أنّ القرار المبدئيّ كان قد اتُّخِذ .

ذهب أليكس لإحضار رزمةٍ من أعواد المتفجّرات التي كان قد احتفظ بها عمداً بسبب شكلها، وبالفعل، على المرء أن يكون خبيراً بالمتفجّرات كي يدرك أنّ هذه العيدان هي متفجّرات حقّاً؛ فقد كانت تشبه عجينة اللوز، ومغلّفة بورقٍ لمّاع، وكثافتها تشبه كثافة الشمع، ويخرج من طرفها فتيلٌ قصيرٌ ملتوٍ على نفسه. اقترح أليكس أن يعلنوا بأنّها شموعٌ مرسلةٌ كهديّةٍ لإحدى كنائس المنطقة، وأضاف ليونيل كأنّه العالِم بخفايا الأمور، والواثق من نفسه بأنّه على أيّ حال لم يرَ يوماً أحد أفراد الميليشيا يقوم بفتح الصناديق على الحواجز : يمكنهم أن يستولوا على بعضها، إذا تركنا صندوقاً، أو اثنين مفتوحين في الخلف سيكتفون بتفتيشها، وأكّد مارك أنّ العيدان مموّهةٌ جيّداً، وأنّه يجب تفتيش الحمولة تفتيشاً دقيقاً كي يتسنّى لهم اكتشاف مكان المتفجّرات، أخذ فوتييه المنعزل عنهم قليلاً يدخّن، ولم يكن أحدٌ يعيره أيّ انتباه، ولقد توقّع الآخرون أن يعلن أنّه لن يتابع الرحلة معهم، وأنّه سيتدبّر نفسه ليعود إلى البلاد، إلّا أنّه لم يقل شيئاً من هذا القبيل، فتساءلت مود إن كان حقاً شجاعاً كما يدّعي .

طرح العديد من الأسئلة حول احتمال أن تشتعل هذه المتفجّرات، فأكّد أليكس في البداية أنّ هذا الخطر غير موجودٍ على الإطلاق، لكنّ مارك قاطعه قائلاً : إنّ عليهما أن يكونا صريحين مع الباقين، وإنّ هذا الاحتمال يبقى قائماً، فالخطر محدودٌ، وليس معدوماً، كأنْ يتعرّضوا لهجومٍ ما، وهو الاحتمال الذي لا يرغب أحدٌ بالتفكير به، أو في حال اندلاع حريق؛ لذلك يجب الحذر، ومن الطريف أنّه كان لهذا الحديث وقعٌ مطمئن؛ أوّلاً : لأنّه يظهر صراحةً في القول، الأمر الذي وطّد الثقة بينهم. ثانياً : المخاطرة – وإن كانت بسيطة – جعلت من هذا الخلاف أمراً أكثر إثارةً بالنسبة إليهم .

عندما انتهت الأسئلة أخيراً حلّ نوعٌ من السلام بين أفراد المجموعة، وخفّ التوتّر بينهم من دون سابق إنذارٍ، وتمخّضت الأزمة عن استبعاد فوتييه، وتعاضدٍ أكبر بين باقي أفراد الطاقم، وانتابت ليونيل سعادة غير متوقّعة؛ لقد اقتنع بالحجّة الإنسانيّة التي تسوّغ نقل المتفجّرات في وقتٍ أسرع من الذي توقّعته مود .

بما أنّ الوقت أصبح متأخّراً لمعاودة الانطلاق ماطلوا بالحديث حتّى وقت العشاء، وتحدّث ليونيل كثيراً، وما قاله وضّح – على نحوٍ أفضل – الأسباب التي دفعته إلى القبول بهذه المخاطرة، ونقل بضائع ممنوعة، كانت بداخله – مثله مثل العديد من الشباب العاملين في الحقل الإنسانيّ – عقدة نقصٍ تجاه مؤسّسي الحركات الإنسانيّة : بطولات حرب « البيافرا » ، والمهامّ السريّة في كردستان، ومهامّ المتطوّعين في قمم الجبال الثلجيّة في أفغانستان، التي احتلّتها روسيا إبّان الحرب الباردة، تحوّلت كلّها بالنسبة إلى المنظّمات غير الحكوميّة إلى أساطير تروي قصص أبطال زمنٍ مضى. الشبّان المنخرطون مؤخّراً في العمل الإنسانيّ كانوا يتحسّرون على أنّهم أتوا في وقتٍ متأخّرٍ، في وقتٍ أصبحت فيه المهامّ أقلّ مجازفةً، وأكثر تنظيماً، وقصّة هذه المناجم التي تحتاج إلى إنقاذٍ عبر إحضار المتفجّرات أعطت فرصةً غير مأمولةٍ لمغامرةٍ تاريخيّةٍ لكي يسيروا على خطى المؤسّسين؛ ولأنّه موظّفٌ يعمل في المجال الإنسانيّ، ومشبعٌ حتّى النخاع بثقافة الجمعيّة التي يعمل بها، وافق ليونيل بكلّ سهولةٍ على خرق قواعدها .

حضّرت مود طعام العشاء من دون أن تسأل إن كان دورها في ذلك اليوم، وذهب مارك لإحضار زجاجة نبيذٍ أبيض من أغراضه، ولم يقل لأيّة مناسبةٍ كان قد احتفظ بها، فشرب منها الجميع من دون أن يطرحوا أسئلة، الكلّ ماعدا فوتييه الذي كان يغلي وحْده منعزلاً في زاويته .

II
الالتزام

1

كان الاستيقاظ باكراً مرهقاً، ربّما أكثر إرهاقاً الآن؛ لأنّهم ذهبوا للنوم متأخّرين، ولأنّ النبيذ بثّ الدفء في أجسادهم، ولكنّ الشمس أشرقت من جديد، وما إن تركوا المقلع الشنيع حتّى تحوّل المشهد إلى أحراجٍ صهباء، ومراعٍ خضراء. كانوا يشعرون أنّ الجوّ اللطيف لن يدوم طويلاً؛ فالغيوم الكثيفة التي كانت تتراكم من جهة الغرب كانت تتحضّر لتفسد بهجة السماء، لم يهتمّوا لذلك، فأكثر ما كانوا يحتاجون إليه في تلك اللحظة هو الفرح والتفاؤل، فاستغلّوا الفرصة، وخزّنوا الفرح والتفاؤل لِما هو بعد ذلك .

سقط الحاجز الذي كان يفصل بين العسكريّين وباقي أفراد البعثة، ولَحظت مود خلال الفطور أنّ مارك وليونيل تبادلا الحديث، الأمر الذي لم تَعْتَدْ رؤيته، فراحت تتخيّل فوتييه حرداً على سريره الخلفيّ بعد أن انخفض التوتّر ما بين السائقين. كان مزاج أليكس هو الآخر رائقاً جدّاً، وتولّى هو الورديّة الأولى في القيادة. نجحت مود في التقاط تردّد محطّة راديو على الجهاز القديم، فامتلأت قمرة القيادة بأنغامٍ معسولةٍ غير معروفة الأصول، لكنّها مناسبةٌ لمزاجهما الهادئ والمرح. ظاهريّاً لم يبد أنّ شيئاً قد تغيّر؛ فقد كانوا يقودون الصناديق المهلهلة نفسها التي تحمل شعار لاتيت دور، ومع ذلك، كان شيء ما قد تغيّر بالفعل، كما لو أنّ هذه المهمّة أصبحت فجأةً مهمّتهم الخاصّة، لقد قرّروا هدفها، وسيحتملون جميعاً خطراً لم يفرضه أحدٌ عليهم. لم يكونوا أكثر درايةً من السابق بما ينتظرهم، إلّا أنّهم اختاروا أن يقرّروا مسار الأحداث من الآن فصاعداً .

كانت مود سعيدةً على نحوٍ خاص، والفضل يعود في ذلك إلى النقاشات التي أعطتها نظرةً أشمل عن الأشخاص التي هي ذاهبة لتقدّم العون إليهم، وكانت مسرورةً؛ لإدراكها أنّ المستفيدين من المساعدات ليسوا مجرّد أفواهٍ تنتظر إطعامها، أو بطونٍ

فارغة، فهُم أشخاصٌ راغبون بالصمود، وبأنْ يكونوا فاعلين في المشاريع التي تخصّ مستقبلهم، مثلهم في ذلك مثل البشر كلّهم .

– كيف تبدو بوبا؟

رمقها أليكس بنظرة المتفاجئ، هو أيضاً بلا شكّ كان منشغلاً بالتفكير بسكّان المنجم .

– بوبا؟ بوبا طويلة القامة، وللصراحة حين قابلتها للمرّة الأولى ظننتها أكبر سنّاً ممّا هي عليه في الحقيقة، لقد ظننت أنّ سنّها لا يقلّ عن خمسة وعشرين، أو ستّة وعشرين عاماً .

– أهي سمراء أم شقراء؟

بحث في جيب بنطاله الصغير، وأخرج منه محفظة. أمسكت مود بالمقود بيدها اليسرى، في حين كان يفتح المحفظة، ويخرج منها صورة .

كانت صورةً مشوّشةً مهترئة الحواف، وضوء الشمس يحجب قسماً كبيراً منها، وفي منتصفها، كان يمكن رؤية وجهٍ طويلٍ أشبه بنسخةٍ شبابيّةٍ من وجه المزارعة طويلة القامة التي استقبلتهم في منزلها؛ فهي أيضاً شعرها كستنائيّ الّلون، وقصير، ومقصوص على نحوٍ سيّئ، وثيابها تخلو من الأناقة، عبارة عن قميص من النايلون الرخيص، وبنطال عريض من الكتّان، وكانت ترفع أكمامها، وتفتح عريضاً ياقة قميصها، وقد أخذت وضعيّةً لطيفةً من أجل التقاط الصورة، كانت تبتسم ابتسامة تحدٍّ كما لو أنّها كانت تقول : ليس لهذا كلّه أيّة أهميّة، وعلى يسار الصورة بابٌ ثخينٌ من حديدٍ أسود، زواياه دائريّة .

– أهذا هو الفرن؟

– نعم .

– أين كانت تعيش قبل الحرب؟

– في المدينة؛ كان أبوها مهندساً .

– أهي مسلمة؟

– بالنسبة إلى الصرب والكرواتيّين هي كذلك؛ أمّا هي، فلم تكن واعيةً لهذه الهويّة من قبل .

– معقولٌ ما تقوله؟

– دائماً ما يكون أهل المدن مختلطين، تتحدّر أصول أمّها من (سراييفو) ، وأبوها مسلمٌ، وأمّها كرواتيّة. يتحدّر أبوها من أصولٍ مختلطةٍ، حتّى إنّ لديه أصولاً ألبانيّة. لم يطلب إليهم أحدٌ أن يختاروا هويّةً إثنيّةً محدّدةً في عهد تيتو، كانوا يوغسلافيّين، وكان ذلك كافياً، وكان لديهم في بداية الحرب جارٌ يكرههم بسبب خلافٍ على مستودعٍ مجاورٍ للحصيد، فانخرط الجار في صفوف القوميّين الكرواتيّين (الأوستاشي) ، وعند بدء المعارك قام باتّهامهم بأنّهم مهاجرون مثيرون للشكوك، وكان منزلهم من أوّل المنازل التي حُرقت .

– هل وضع الجار يده على المستودع؟

– نعم، على الأغلب. على كلّ حال، لقد اضطرّوا إلى الهرب في منتصف اللّيل، والمكان الوحيد الذي استطاعوا اللجوء إليه هو المنجم، وأظنّ أنّهم كانوا سيُقتلون لو لم تتدخّل قوّات حفظ السلام .

– أين كنتما تلتقيان؟

– كنّا نتمشّى معاً في المعمل. لقد أخبرتكِ أنّني لم أكن أملك تصريحاً بإدخالها إلى المباني العسكريّة، وكان عليّ أن أتصرّف على نحوٍ لائقٍ أمام عائلتها؛ لذا كنّا نذهب في نزهات، وحتّى هذا كان محفوفاً بالمخاطر؛ فإذا اقتربنا كثيراً من الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمنطقة كان يظهر على الجانب الآخر شبّانٌ يمطرونها بالشتائم .

– أتعرف شبّاناً آخرين عاشوا قصصاً مماثلة؟

– ليس في (كاكاني) ، فأغلبهم كانوا جنود هندسة الميدان، وأصولهم ريفيّة، ذاتهم الذين ترينهم في استعراض الرابع عشر من تموز/يوليو مرتدين مئزراً من الجلد، ويحملون مطارق كبيرةً على أكتافهم. ما يهمّهم كان العاهرات؛ ينتظرون الحصول على إجازةٍ كي يذهبوا ويعاشروهنّ في (سبليت) .

– مارك أيضا؟

– بالتأكيد لا! حتّى إنّه دافع عنّي حين اتّهمني الآخرون بأنّني مثليٌّ جنسيّاً .

ضحك أليكس ضحكةً طويلةً، وساد الصمت بعد ذلك .

قرّرت مود أن تقاطعه؛ لأنّها شعرت أنّ أليكس كان في طور الانزلاق نحو نوعٍ من السوداويّة المؤلمة .

– ماذا تنوي أن تفعل بعلاقتك مع بوبا في المستقبل؟

تريّث أليكس قبل أن يجيب. كانت هناك حفرةٌ كبيرةٌ في الطريق، فناور بالمقود كي يتجنّب المرور فوقها .

– « أريد أن أعيش هناك معها » . قال ذلك من دون أن ينظر إلى مود.

التزما الصمت لبرهةٍ بعد هذا التصريح. كانت تلك المرّة الأولى بلا شكّ التي تقترب فيها مود من مفهوم الحُبّ إلى هذا الحدّ، حُبّ يجعل المرء يقطع الدروب من دون أن يهاب أيّ خطر، حُبّ يجعله ينسى نفسه؛ هذا هو الحُبّ الذي كانت تؤمن به، وكانت تظنّ أنّه مستحيل .

***

بعد تناول الغداء، تابعوا طريقهم تحت سماءٍ رماديّةٍ ثقيلةٍ، ومع احتجاب الشمس، عاد البرد من جديد. الفاصل السعيد القصير الذي أتى بعد أزمة البارحة انتهى تماماً، وعادت فكرة الخطر تسيطر على عقولهم، ولكنْ هذه المرّة كان الخطر خارجيّاً يواجهونه معاً، عن وعيٍ كامل .

التحقوا بقافلةٍ طويلةٍ تابعةٍ للأمم المتّحدة، ومؤلّفةٍ من مقطوراتٍ صغيرةٍ بيضاء وجديدة كليّاً. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً حين توقّفت مركبات الأمم المتّحدة لتنجز معاملات الدخول إلى (ريبوبليكا سيربيسكا) ، فتّش عسكريّو صرب المركبات، وكانوا باللباس الحربيّ الكامل متسلّحين بعتادٍ جيّد، وبدا الحاجز شبيهاً بنقطة عبورٍ حدوديّةٍ بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى، وبكلّ تأكيد كانت هذه الحدود هي خطّ فصل بين متحاربين، تحرسها مدرّعاتٌ سوفييتيّةٌ قديمةٌ في حالة تأهّبٍ للرمي، ودشم تخرج منها فوهات سبطانات الرشاشات، لكنّ كلّ شيءٍ كان منظّماً ومنضبطاً، وكان الجوّ جدّيّاً

ومطمئناً أكثر؛ حيث لا خشية هنا من نزوات أفراد الميليشيا الخائفين الذين يعملون من دون قيادةٍ، والقادرين على القيام بردود فعلٍ لا عقلانيّة .

الأمور إداريّةٌ بحتة في هذا الحاجز؛ وما في الأمر كلّه هو إبراز وثائق صالحة، ووثائقهم كانت كذلك .

سمح لقافلة الأمم المتّحدة بالمرور، فتقدّم ليونيل بشاحنته حتّى الحاجز، وكان الطريق مغلقاً بحاجزٍ حديديٍّ مدهونٍ بالأحمر والأبيض، ولم يكن يقتصر على ممرٍّ، أو حبلٍ ممدودٍ بين طرفي الطريق، كالتي كانوا يصادفونها على حواجز الأرياف .

دخل الجنديّ الذي استلم الأوراق إلى منزلٍ سقفه محروق، ويقوم دوره الأرضيّ بمقام المكتب .

انتظروا أن يعاود الخروج، وهُم يثرثرون مع بعضهم، عدا فوتييه الذي كان قد انعزل قليلاً، وهو يدخّن. كان الجوّ غريباً، فهُم يخاطرون مخاطرةً كبيرةً ويعلمون ذلك، إلّا أنّ الخوف قد اختفى تماماً، وربّما يعود ذلك إلى كون الحاجز نفسه هادئاً؛ حيث الجنود يقومون بالتدقيق في الوثائق على نحوٍ رتيب، ويؤدّون مهمّتهم برتابةٍ مقيتة من دون عنف. كانت مود تعيش إحساساً آخر، وهي متأكّدة من أنّ الآخرين يشاركونها فيه؛ كانت تشعر بالقوّة، وقد تولّد لديها الانطباع بأنّها وجدت لها مكاناً في هذه الحرب، وبأنّها تقوم بشيءٍ فيه مخاطرة، ولكنْ له معنى .

عندما كانت طفلةً، اعتادت أن تقضي أشهر تموز/يوليو كلّها عند جدّتها في (لو بيري) ، ولطالما طلبت إليها أن تحدّثها عن خطّ الفصل الذي كان يقطع الريف في أثناء الحرب على بُعد أقلّ من ثلاثة كيلومترات. كانت جدّتها في سنّها نفسها الآن تقريباً عند وقوع الحرب، وبحسب الصورة التي أرتها إيّاها فهي تشبهها أيضاً. اعتادت الجدّة أن تقطع هذا الخطّ يوميّاً على درّاجةٍ كي تتابع دروس الخياطة في مدينة (بورج) ، وكانت المقاومة تكلّفها غالباً بنقل رسائل إلى الجانب الآخر، وقد قُلّدت وساماً بعد التحرير. لم تكن مود تهتمّ قطّ بتفاصيل شبكات المقاومة، والمسائل السياسيّة، أو تطوّرات النزاع، جُلّ ما أرادت معرفته هو شعور جدّتها حين كانت تقترب من الجنود، وحين كانت تتوقّف كي تبرز أوراقها، كان هذا السؤال يُشعر السيّدة العجوز بالحَرج، فكانت تبحث في ذاكرتها وتجيب : « لا شيء » . الآن فهمت مود معنى ذلك .

هي أيضاً لو وُجّه إليها سؤالٌ حول ما تشعر به الآن لأجابت : « لا شيء » . فقد فارقها الخوف، وشعرت به في الأيّام الأخيرة؛ أمّا الآن، فهي تبحث عنه من دون أن تجد أيّ أثرٍ له في داخلها، وكانت السكينة تعمّ جسدها وروحها، ولم يعد قلبها يطرق بسرعة، ولم تعد تشعر بعرقٍ باردٍ في يديها، أو بأيّ قلقٍ، أو توتّر، وأقصى شعور لديها في الوقت الراهن أنّ الألوان أصبحت أكثر صخباً، حتّى لون الصفيح الخاكي، أو لون سواد الأسلحة المشحّمة اللامع، وبدت الأصوات آتيةً من مكانٍ أبعد، كزقزقة العصافير التي كانت تصل إليها من شجرة الدردار المتساقطة أوراقها جزئيّاً، والتي تنتصب على طرف الطريق على بعد مئة مترٍ منها. حاولت أن تُدخل نفسها في التجربة بأن تقول لنفسها : أنا أقوم الآن بتهريب متفجّراتٍ إلى منطقة حرب، لكنّ هذا التفكير كان بعيداً البعد كلّه عن إشاعة أيّ ذعرٍ في نفسها، وهي – بالطبع – ليست بالمتفجّرات الحقيقيّة، والخطر كان محدوداً بالمُجمَل، إلّا أنّها كانت خارج أعراف العمل الإنسانيّ، ويمكن أن ينظر إليها كبادئةٍ لحركة مقاومة، ولقد كانت فخورةً بذلك .

خرج العسكريّ بعد برهةٍ حاملاً الأوراق المختومة أصولاً، وصعدوا إلى قمراتهم، وانطلقوا من جديد .

في المساء، في مخيّمهم، أثبت ليونيل أنّه هو أيضاً قد تغيّر؛ فبسط الخريطة التي كان يحافظ عليها بغيرةٍ مطويّة في باب شاحنته، وشرح ما كان يعلمه كلّه عن الحواجز التي سيواجهونها، حتّى إنّه ذهب في انفتاحه إلى حدّ أنْ يسأل بقيّة الطاقم عن رأيهم في الطريق الأمثل الذي سيتّبعونه؛ هذا التحوّل المفاجئ إلى الديمقراطيّة له سبب : طبيعة مهمّة القافلة قد تغيّرت بالنسبة إليه؛ إذْ لم يعد ذلك العضو المطيع في منظّمةٍ كان يمثّلها، الأمر الذي كان يرغمه على أن يقرّر وحيداً، وأن يفرض آراءه، على الأقلّ كان هذا السلوك الذي اعتاد عليه، فهكذا تصرّف قائد الحملة الأولى التي شارك فيها كسائق، لكنْ وبسبب الحمولة الخاصّة التي كانت تنقلها أصبحت هذه القافلة من الآن فصاعداً مسؤوليّة الفريق برمّته، وأصبحت قيادتها مسؤوليّة الجميع. لم يكن ليونيل مرتاحاً في دوره كقائدٍ للبعثة؛ لقد لعب هذا الدور بقسوةٍ نابعةٍ من عدم اليقين، ومسألة المتفجّرات – وإن لم يكن يتمنّاها قطّ – وفّرت له حجّةً لم يكن يتوقّعها كي يتقاسم ثقل مسؤوليّاته مع الآخرين .

– من الآن فصاعداً سيتطوّر الموقف يوميّاً. بقي لدينا ثلاثون كيلومتراً من الهدوء ضمن القطاع الصربيّ، بعد ذلك سوف نسير في جيوب كرواتيّة ومسلمة، الوضع سيتغيّر

من دون توقّف، وخريطة البوسنة الوسطى أشبه بجلد نمرٍ مرقّط .

– هل هناك معارك؟

سألت مود .

– دائماً، لكنْ على مستوى صغير. مناطق توزّع الإثنيّات متداخلة ببعضها، ويمكنهم أن يتقدّموا في اليوم الواحد مسافة ثلاثة منازل، وأن يسيطروا على حقلٍ، وأحياناً على قريةٍ بأكملها لتعود السيطرة في اليوم التالي للطرف المقابل .

لم يعد مارك منعزلاً؛ لقد نزع عن نفسه هيئة المتجهّم منذ أن أبدى ليونيل انفتاحاً للنقاش، ومنذ أن خرج فوتييه من دائرة القرار .

– هل يمكنك أن ترينا المسار الكامل الذي تريدنا أن نتبعه؟

ضغط ليونيل على الخريطة لتستوي تجاعيد الورق، ثمّ أشار بإصبعه على طول خطٍّ رماديٍّ صغير .

– هذا هو طريقنا .

– « هذا محورٌ ثانويّ » . تدّخلت مود : « لمَ لا نتبع الطريق العريض الذي يسير بمحاذاة النهر حتّى (توزلا) ؟ » .

– « سؤالٌ وجيه » . قال مارك بهدوء : « وللحق يا ليونيل، منذ زمنٍ ونحن نريد أن نسألك إيّاه. لم نفهم لماذا اتّجهت جنوباً قبل (بيهاتش) » .

– هذا هو الطريق المباشر للوصول إلى (كاكاني) ، أليس كذلك؟

– بالتأكيد هو الطريق المباشر إذا أردنا الذهاب مباشرة. مع الأسف، هناك صعوبات لا تُظهرها الخريطة .

– ماهي؟

– التضاريس. يا أخي، لمَ في اعتقادك لم نلتقِ تقريباً بأحدٍ منذ أن اتّبعنا هذا الطريق؟

– لقد صادفنا قافلةً للأمم المتّحدة منذ مدّةٍ قصيرة .

– لو بقينا على الطريق الرئيس لكنّا صادفنا مئة وخمسين قافلةً، وليس تلك القافلة التعسة فقط .

كان ليونيل يدخّن بعصبيّة .

– لِمَ لم تعترضوا إن كنتم غير موافقين؟

لم يُشِر مارك إلى الغرابة في جوابه، فلم يكن لديهم الحقّ في الإدلاء بآرائهم في السابق .

– ظنّنا أنّ لديك أسبابك .

أضاف مارك .

– لاحظ أنّنا لا نمانع المرور من هنا حيث الحواجز أقلّ منها على الطريق الرئيس

.

أضاف أليكس .

– عليك أن تشكره إذن، أليس كذلك؟

قال فوتييه بسُخرية .

جفل الجميع، فلم يلحظ أحدٌ منهم أنّه قد اقترب؛ كانوا يظنّون أنّه ما زال بالقرب من الشاحنتين .

التفت مارك بسرعة، وراح يحدّق في فوتييه بحدّة، وكانت نظرته استفزازيّة تنمّ عن تحدٍّ، والرغبة في العراك والاحتقار مجتمعين، ولم تكن الكراهية محرّكاً لأحدٍ سوى فوتييه، ومارك الذي كان مدركاً لهذا البغض، امتنع عن الردّ عليه حتّى الآن، لكنْ منذ أن وشى الميكانيكيّ بهم لم يعد مارك يحرص على إخفاء مشاعره تجاه فوتييه. كانت مود مذهولةً لقدرة مارك على تغيير أسلوب تعامله بسرعة؛ إذْ كان يبدي قوّةً حيوانيّة أمام خصومه، فملامحه وفكّاه المرصوصان يعطيانه هيئةً قاسيةً، لكنْ ربّما لأنّها تعرّفت إلى وجهه الإنسانيّ، كانت ترى شيئاً من الجاذبيّة في عنفه. على أيّ حال، إنّ انضمام فوتييه إليهم جعلهم ينهون النقاش :

– سنقرّر صباحاً .

قال ليونيل، وأعاد طيّ الخريطة، وتفرّق الجميع كلٌّ إلى مهجعه كما جرت العادة كلّ ليلة .

***

جرى عبور الأراضي الصربيّة من دون مشكلاتٍ تُذكر كما توقّع مارك، وصادفوا القليل من القوافل، ووجدوا دائماً ما يشترونه من منتجاتٍ في القرى، ولم تكن المنطقة قد تعرّضت إلّا للقليل من الدمار؛ فالريف يعيش حياته اليوميّة على إيقاع الأعمال الزراعيّة، وآخر يومٍ لهم في ذلك القطاع كان يوم أحد، فجذبت الكنائس الأرثوذكسيّة – بجدرانها القرميديّة، وأجراسها، وقببها – أعداداً غفيرةً من المؤمنين الذين يتوجّهون إليها إمّا راكبين على الجرّارات، أو العربات، وإمّا مشياً على الأقدام، أو على ظهور البغال، ولا بدّ من أنّ الشاحنات والسيّارات التي بدت كأنّها اختفت من هنا صودِرَتْ لأغراضٍ عسكريّةٍ، أو لم يكن لها وجود هنا على الإطلاق .

عند حلول اللّيل، غادروا (لاريبوبليكا سيربيسكا) [(1)]، ومرّوا بحاجزٍ يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ ذلك التي دخلوا الجمهوريّة من خلاله، إلّا أنّه أقلّ اكتظاظاً بالمركبات العسكريّة، ومقابل الحاجز وجدوا في أرضٍ خاويةٍ قطعة أرضٍ صغيرة جدّاً ومزروعة، ولم يميّزوا في البداية لمن كانت تتبع، قبل أن يلحظوا عند أطراف البلدة مئذنتيّ الجامع العثمانيّتين، وكانت هيئات الفلّاحين هنا وفي المناطق الصربيّة متطابقة تماماً . رأت مود أنّ أغرب ما في هذه الحرب أنّها تقع بين أشخاصٍ يتكلّمون اللّغة نفسها، ويسكنون الأرض نفسها، ولديهم العادات اليوميّة نفسها .

دار نقاشٌ في الشاحنة الأماميّة لمعرفة إن كان من الأفضل التوقّف هنا خلال اللّيل أم مواصلة السير . بدأت الشمس تغيب، وبعد أقلّ من ساعةٍ سيحلّ الظلام، فاقترح مارك أن يحطّوا الرحال ويعسكروا على الفور، فاعترض ليونيل قائلاً :

– غداً سنكون قد وصلنا إلى مناطق الكرواتيّين . . . إذا شكّوا بأنّنا أمضينا اللّيلة هنا، سوف يقومون بتفتيشنا من رأسنا حتّى أخمص قدمينا .

– وماذا سيغيّر ذلك في الأمر؟

– إنّهم يزدادون ذعراً يوماً بعد يومٍ في هذه الأنحاء، وسمعة الفرنسيّين هي أنّهم يدعمون المسلمين. لن يصدّقوا أبداً أنّنا توقّفنا هنا من دون سببٍ واضحٍ، إنّهم يخشون أن نقوم بتهريب أشخاصٍ يرغبون بالخروج من المنطقة .

– ولكنْ لو حاولنا العبور في اللّيل سيزيد ذلك من شكوكهم .

– هذا ما يُفعَل عادةً، وإنْ أسرعنا يمكننا العبور، ما زال الوقت نهاراً .

ظلّ ليونيل على إصراره، فاستسلم مارك لرغبته، وقرّروا متابعة المسير .

حسب ما أشار إليهم أحد المزارعين، كان عليهم أن يصعدوا من الوادي، ويمرّوا بالممرّ الذي يلمحونه فوقه كي يصلوا إلى الحاجز الكرواتيّ، إلّا أنّهم وصلوا إلى قمّة المكان، ولم يعثروا على شيءٍ يشبه الحاجز. لا بدّ من أنّ الجيب أكبر ممّا كانوا يتوقّعونه. هبط اللّيل، والسماء لم تكن مقمرة، ولم تكن أضواء الشاحنات الأماميّة تضيء جيّداً؛ لأنّ الوحل يغطّيها، فكان عليهم القيادة ببطءٍ، وبالكاد قطعوا مئة مترٍ نزولاً حتّى تعرّضوا لرشقات رصاص. لم تكن مود قد سمعت في حياتها صوت إطلاق الرصاص إلّا من بعيد، من عمق غابات الصنوبر في جبال الألب إبّان موسم الصيد، ولم تستوعب – مباشرةً – الرابط بين الفرقعة التي كانت تسمعها من بعيد وبين الأزيز الذي كان يصل إليها من حول القمرة، لكنّها فهمت ما يحدث حين سمعت دويّاً أكثر قوّةً، وكانت إحدى عجلات الشاحنة قد انفجرت .

من ناحيته، كان أليكس يفهم تماماً ماذا يحدث، ففتح بابه، وقام بسحبها من ذراعها لينتهي بها المطاف داخل حفرةٍ، متمدّدةً على الأرض الرطبة .

لما انتهى إطلاق الرصاص، سمعت ليونيل يصرخ قائلاً : (بوموش) . قام مارك الذي كان يعرف عدداً أكبر من المفردات بالتعريف عن المجموعة بصوتٍ عالٍ، فعمَّ صمتٌ طويلٌ لم يعكّره سوى صوتٍ خفيفٍ لماءٍ يجري في مكانٍ ما، فسمعوا من بعده صوت خطواتٍ على الطريق، ففهموا أنّ المليشيات تتقدّم نحوهم. رأوا في البداية بساطيرهم من تحت الشاحنة قبل أن يروهم، وقد أصبحوا فوقهم، وأسلحتهم موجّهة نحوهم .

وقفوا ببطءٍ، واصطفّوا على خطٍّ واحدٍ في منتصف الطريق، واضعين أيديهم على رؤوسهم. فُحصت وجوههم الواحد تلو الآخر بضوء مصباح جيب، وكان ما يزال يسمع

صوت خرير سائلٍ من جهة الشاحنتين .

– « الوقود » . همس أليكس .

كان هنالك برميلٌ أسطوانيٌّ ملحومٌ بهيكل كلٍّ من الشاحنتين لنقل مخزونٍ من البنزين، لا بدّ من أنّ رصاصةً قد اخترقت أحد خزّانات الطوارئ، لكنْ أيّها؟ لم يكن من الممكن التمييز في الظلام إن كان مصدر التسرّب هو الشاحنة الأولى أم تلك التي تحتوي على المتفجّرات .

كانت الدوريّة التي أوقفتهم مؤلّفةً من ثلاثة رجالٍ، ربّما كان هنالك المزيد منهم في الأرجاء، لكنّهم لا يرونهم، وكان أفراد الميليشيا يسدّدون أسلحتهم نحوهم ليبقوا من دون حراك، بحيث يبدون كمن ينتظر أمراً ما من شخصٍ ما .

---

(1) جمهورية الصرب .

2

بدأت أعينهم تعتاد على الظلمة. كان أفراد الميليشيا عبارة عن ثلاثة شبّانٍ مذعورين يعتمرون قلانس صوفيّةً سوداءَ مكفوفة الأطراف، وكانت أصابعهم على زناد رشّاشاتهم التي يمكنها أن تطلق عشرات الطلقات بأقلّ من لمسة .

استمرّ الوقود بالتسرّب، ولا بدّ من أنّ حجم البقعة التي كان يخلّفها على الأرض قد أصبح كبيراً كما كان يوحي صوت السائل المنساب .

أحسّوا أخيراً بصوت خطواتٍ على الطريق؛ أحدهم كان يقترب ببطءٍ، ووقع نعل بسطاره المعدنيّ يرنّ على الإسفلت، فتنحّى أفراد الميليشيا جانباً من دون أن يخفضوا سلاحهم، ليقف شخصٌ جديدٌ أمام الغرباء الخمسة، وبدا لهم، بحسب ما سمحت لهم الظلمة من رؤية ملامحه، أنّه شخصٌ متقدّمٌ جدّاً في العُمْر، عجوزٌ تقريباً، وكان أعلى رأسه أصلعَ محاطاً بهالةٍ من الشعر الأبيض على الجوانب، ووجهه كثير التجاعيد، ومع ذلك كان يقف باستقامةٍ، وعلامات القوّة والسُّلطة تبدو عليه، هو – بلا شكّ – واحدٌ من العسكريّين المتقاعدين الذين طلب إليهم الكرواتيّون – لقلّة خبرتهم – أن يعاودوا الخدمة لقيادة هذا الجيش المكوّن الذي ارتجله هواةٌ في بداية الحرب. على أيّ حال، في هذا المكان، وهذا الزمان، كان هو القائد، وإن كانوا يأملون أيّ شيءٍ، فهو الوحيد القادر على تحقيق آمالهم .

طرح سؤالاً على الصغار الذين يمسكون بالسلاح، وقام أحدهم بالإجابة ببضع كلمات، فتدخّل مارك في تلك اللحظة قائلاً جملةً طويلةً بصوتٍ هادئٍ، واستطاعت مود – التي كانت قد درست الروسيّة في الثانويّة لسنتين من دون أن تتكلّم بها – أن تتعرّف إلى هذه الّلغة .

تقدّم الرجُل وقام بالوقوف أمام مارك، فحلَّ نوعٌ من عدم اليقين في تلك الّلحظة. لقد كان وجهه يوحي بالعدوانيّة، كأنّه تعرّض لإهانةٍ، فشعرت مود بأنّه سيقوم بضرب مارك، وكان مارك واقفاً بلا حراكٍ ينظر مباشرةً أمامه، لكنْ من دون وقاحةٍ هذه المرّة

.

تكلّم الرجُل أخيراً، وسأل مارك إن كان روسيّاً، ولمّا أجابه بأنّه فرنسيٌّ ضحك، فانخفض مستوى التوتّر. أغلب الضبّاط في الجيش اليوغسلافيّ، خاصّةً الجيل الذي خاض الحرب العالميّة الثانية، تلقّوا تدريباتهم في الاتّحاد السوفييتيّ، والتشابه الكبير بين اللّغتين السلافيّتين أتاح لهم تعلّم الروسيّة بسهولة، الأمر الذي سمح بحصول تواصلٍ ما بين الرجُل ومارك الذي كان يتكلّم الروسيّة بطلاقة .

على الرغم من ذلك، لم يسترخِ مارك، وظلّ بوضعيّة الاستسلام واضعاً يديه على رأسه .

أرضت الشروحات التي قدّمها مارك الضابطَ، فأشار إلى رجاله بخفض سلاحهم، وأخرج لفافة تبغٍ من جيب سترته فأشعلها، وكان على وشك أن يرمي عود ثقابه على الأرض حين أثار مارك انتباهه إلى أنّ الأرض مشبعةٌ بالوقود. توسّعت البقعة باتّجاه ميلان الطريق، ووصلت قربهم، فتراجع الرجُل قليلاً، وقام أحد أفراد المليشيا بتتبّع السائل حتّى مصدر التسرّب بمصباح الجيب خاصّته. يقع الثقب في أعلى الخزّان، الأمر الذي جعل التسرّب بطيئاً الآن، فطلب مارك السماح بسدّ الثقب، فوافق الضابط على الأمر مباشرة .

– « سيقوم فوتييه بإصلاحه في غضون دقيقتين » . قال مارك .

كان الميكانيكيّ يستشيط غضباً، إلّا أنّه كان مجبراً – نظراً إلى الظروف الراهنة – على إطاعة مارك. قال العسكريّ العجوز جملةً بالروسية .

– « يريدني أن أرافقه كي يتحقّق من الأوراق » . ترجم مارك .

ذهب ليونيل ليحضر الأوراق من الشاحنة، وقام بتسليمها إلى مارك الذي لحق بالضابط، فاختفيا في الظلام .

في تلك الأثناء وتحت أنظار المليشيا، أخرج البقيّة إطار الطوارئ والرافعة، وبدأوا بتبديل الإطار. كانت الشاحنة مركونةً على نحوٍ مائلٍ؛ لكونها قد توقّفت فجأةً، مع جزءٍ من إطاراتها داخل الحفرة، الأمر الذي لم يكن يسهّل عمليّة الرفع، وبدا أنّ الأمر سيحتاج إلى وقتٍ كثير، فجلست مود على المرج تنتظر، واقترحت أن تشارك في التصليح، لكنّهم أجابوها بفظاظةٍ بأنّهم لا يحتاجون إليها، فبدأ ينفد صبرها لتأخّر مارك في العودة .

– « سأذهب لأرى ما الذي يفعله » . قالت لـليونيل : « لا يحتاج الأمر إلى ساعاتٍ للتحقّق من الوثائق » .

أومأت بيديها للجنود بأنّها تريد اللحاق بالضابط، فتشاوروا فيما بينهم، ثمّ اختاروا أحدهم كي يرافقها. لم يكن معهم سوى مصباح جيبٍ واحدٍ أبقوه معهم، ومشت مود مع ملاكها الحارس في الظلام، وكانت تنبعث من الصبيّ رائحة تعرّقٍ، ومن الحفرة رائحة طينٍ نباتيّ، فصعدا معاً حتّى القمّة الصغيرة. كان الحاجز نقطة قتالٍ مموّهةً بأشجار الصنوبر التي تغطّي القمّة، وكانت النقطة عبارة عن بناءٍ طويلٍ من الحجر الجافّ، وما من شكٍّ في أنّه كان يُستعمل حظيرة غنمٍ في السابق. كان الظلام دامساً، لكنْ مع اقتراب مود والجنديّ لحظا خيطاً من الضوء من تحت أحد الأبواب، فنقر الجنديّ ثلاث مرّاتٍ على الباب، فردّ عليه صوتٌ في الدخول .

كان المركز مضاءً من الداخل بمصباح كاز، ومفروشاً بطريقةٍ تخلو من الذوق : أريكة حديثة من الستينيّات وُضعت أمامها منضدةٌ بيضويّةٌ من الزجاج، وفي الجهة المقابلة يوجد كرسيّان منجّدان من طراز لويس الخامس العشر، وحول هذا الفرش المدنيّ الذي نُهب من أحد المنازل المجاورة بلا شكّ، توضّعت على الحائط الحجريّ رفوفٌ خشبيّةٌ ما زالت مملوءةً بالتبن. كان مارك والضابط العجوز يجلسان مرتاحين يتحدّثان حول زجاجةٍ من السليبوفيتش .

– « أهذا أنتِ؟ » . قال مارك : « أُدخلي. هل انتهوا من تغيير الإطار؟ » .

– ليس بعد .

– اِجلسي معنا إذنْ، ريثما ينتهون من ذلك .

قام بترجمة دعوته، فوافق العسكريّ، ووقف وأجلسها مع إيماءةٍ تدلّ على لباقةٍ أثارت غيظها .

– يبدو أنّ اشتباكاً كبيراً حصل هنا أمس الأوّل خلال الّليل، لقد نجونا بأعجوبةٍ؛ لأنّهم حين رأونا نقترب ظنّوا أنّ الاشتباك سيندلع من جديد، ومن حظّنا أنّ استعصاءً قد حصل في مدفعهم الرشّاش .

ضحك مارك، فظنّ الضابط الذي كان قد بدأ الشراب يؤثّر عليه أنّ عليه أن يحاكي ضحكة مارك، وكان ينقص واجهته الأماميّة سِنّ .

- « من المستحسن ألّا نذهب بعيداً هذه الليلة » . قالت مود بنبرةٍ جديّة .

كان الضابط العجوز ينظر إليها نظرةً فاحشةً لم تكن تنبئُها بأيّ شيءٍ جميل .

- هذا تماماً ما كان يحدّثني به؛ هنالك فسحة بالقرب من الحاجز، قال : إنّه بإمكاننا المبيت هناك .

- سأخبر الآخرين بذلك .

- انتبهي، سيتضايق إن لم تذوقي شرابه من البرقوق .

ناول الكرواتيّ مود كأساً زجاجها مكسور، ممتلئةً حتّى الحافّة بسائلٍ أصفر شاحبٍ، فأخذتها وجلست على الكرسيّ، ولقد كان الكرسيّ متقعّراً تماماً، فأحسّت بأنّها تسقط إلى الخلف، ووصلت ركبتاها إلى مستوى ذقنها .

تابع الرجلان نقاشهما، وعنصر المليشيا الذي رافق مود جلس على حافّة النافذة، وأخذ يدخّن، لقد كان شابّاً في مُقتبل العمر، فقدرّت أنّ سنّه لا يتجاوز الخمسة عشر عاماً . نزع قلنسوته، وكان شعره الأسود يمتدّ إلى جبهته، ولحظت أنّه يسترق النظر إليها، فما فتئ الضابط هو أيضاً يرمقها بنظراتٍ ممتلئةٍ بالرغبة التي لحظتها منذ وصولها . مارك، من جهته، كان مرتاحاً جدّاً، وتحدّث بهدوءٍ، وبدا يظهر مودّةً حقيقيّةً تجاه أفراد الميليشيا .

شربت مود بضع جرعاتٍ من الكحول محاولةً ألّا تسعل؛ إذْ إنّها لَحظت أنّ العسكريّيْن يراقبون ردّ فعلها، وينتظرونها أن تسعل كي ينفجرا ضحكاً، ولمّا رأيا أنّها نجحت في شرب مشروبهم الكحوليّ القويّ من دون أن تُظهر أيّ انزعاجٍ، بدوا كأنّ ظنّهم قد خاب، وعاد الضابط إلى متابعة حديثه بالروسيّة .

شربت الكحول، فشعرت بالدوار؛ لأنّها شربته على معدةٍ خاوية، وكانت تسمع الكلمات من دون أن تفهمها، ثمّ بدأت بعد قليلٍ ترى كلّ شيءٍ، وهي في حالة سُكْرٍ، فركّزت نظرها على عيون مارك كي لا تنظر إلى الضابط؛ إذْ لطالما اجتاحتها مشاعر متضاربة تجاهه، ومن جهة، كانت القسوة، والسيطرة على الذات التي يتقنها دائماً، والعنف المكتوم، لا تبعث على المودّة، ولكنّه في الوقت نفسه مُطمئِن، وهو الوحيد، في هذا المحيط الخطِر الذي انغمسوا فيه، الذي يوحي بالثقة، وبأمل الوصول إلى دقّة الأمان؛ لقد كان حقيقةً فرداً مميّزاً . تذكّرت مود ما قاله أليكس عن كرمه، ولطالما ارتبطت هذه

الفضيلة بالنسبة إليها بنوعٍ من الرقّة على الرغم من أنّه يبدو بعيداً عنها تماماً. من أين له هذا الجسد مفتول العضلات، وقسوة التعابير، وهذه العادات الجديدة برجال اسبارطة؟ هل طوّرها بنفسه أم فرضتها الحياة عليه؟ لماذا التحق بالجيش؟ رغبةً منه أم رغماً عنه؟ كانت تشعر بأنّه جنديٌّ بعاداته وهيئته، ولكن ليس بروحه .

تزاحمت هذه الأفكار في رأسها من دون أن تستطيع الوصول إلى خلاصة. أن يكون من حولها كلّهم يتكلّمون لغةً غريبةً جعلها تحاول الفهم عن طريق الحركات والإيماءات، فراقبت حركات مارك، وراحت تتخيّل الطفل الذي كان، وكانت تبحث عن شيءٍ ورثه من أبيه، أو أمّه، فتساءلت عن أصل هذا الشعر الأسْود، وهذه البشرة المائلة إلى السمرة، فتخيّلته ضمن مناظر طبيعيّة في شمال أفريقيا، أو الشرق الأوسط، أو اليونان، أو أمريكا اللاتينيّة، وحاولت أن تحزر ما الديكور، أو الطبيعة الملائمة له أكثر، وراحت تستطرد أكثر متسائلةً إن كان ليغطس معها من عُلوّ خمسة عشر متراً .

جفلت فجأةً! وأحسّت أنّ أحدهم يهزّها من كتفها، فأدركت – وهي تستفيق – أنّ الكحول كان قد قضى عليها .

لحُسن الحظّ خرجوا بعد ذلك مباشرةً لينضمّوا إلى الآخرين، ولم تحتَجْ إلى أن تحتمل طويلاً ابتسامات أفراد الميليشيا الساخرة.

***

مزمجراً أعاد فوتييه الرافعة إلى مكانها تحت الهيكل بعد أن أصلح الإطار، والاثنان الآخران كانا يتفحّصان الشاحنتين لتقدير حجم الضرر. ثقبت إحدى الرصاصات شادر الشاحنة الأولى، فيما سقطت أُخرى على مقدّمة الشاحنة الثانية من دون أن تسبّب أيّ ضررٍ لحُسن الحظّ .

مع ذلك، تغيّر الجوّ العام؛ فاحتمال أن تصاب الحمولة بطلقات لم تُؤخذ على محمل الجدّ كفايةً حين تكلّم مارك عليها، وعليهم أن يدركوا من الآن فصاعداً أنّه احتمالٌ واردٌ، وما حدث هو خير دليل على ذلك. ما الذي كان ليحدث لو أنّ الرصاص أصاب المتفجّرات؟ أو أنّ الوقود اشتعل تحت الشاحنة؟ لم يكن أحدٌ يثير الموضوع، إلّا أنّهم فكّروا جميعاً في الأمر، فانقلبت راحة البال قلقاً .

– « سننام هنا » . أعلن مارك : « يجدر بنا ألّا نخاطر مرّةً أُخرى هذه الّليلة » .

رمقه ليونيل بنظرة استياء .

– هل يوجد متّسعٌ لنصب الخيام هنا؟

– إلى الأعلى قليلاً، على مقربةٍ من معسكرهم. سنترك الشاحنتين هنا؛ هذا المكان مناسب، وأفضّل أن تبقيا هنا على أن نقوم بمناورةٍ خاطئةٍ إلى الوراء، فتسقط إحداهما في الحفرة .

– حسناً .

أخرج الهواء الطلق مود من سُكْرها لينتابها الذعر فجأةً! فأمسكت ليونيل من ذراعه وسحبته جانباً .

– لا تنوي أن تدعني أنام في القمرة، أليس كذلك؟

– ما الذي تخشينه؟

– ألم تر مناظر هؤلاء الأشخاص، والطريقة التي كانوا ينظرون فيها إليّ؟

– لا تهتمّي، نحن معك .

– معي أين؟ على بعد مئتي متر؟

– إن ناديتنا ...

– أناديكم بعد أن يكون الواحد تلو الآخر قد أخذ حاجته منّي؟ شكراً لِجعلي أطمئنّ .

كان مارك وأليكس قد اتّجها إلى مكان التخييم حاملين الحقائب على ظهريهما، والخيمة والوسائد بأيديهما، ويلحق بهم فوتييه من بعيد .

– ما الذي تقترحينه؟ لا يوجد متّسعٌ سوى لشخصين في الخيمة .

– سأنام مع أليكس، وأنت ستنام هنا .

– تنامين مع أليكس!

ردّ ليونيل بعنفٍ غير متوقّع، ولم يكن على علمٍ بأنّ أليكس كان مغرماً بفتاةٍ أُخرى، وأنّه لا يفكّر بسواها. ظنّت مود في سرّها أنّ عليها أن تشرح الأمر له، إلّا أنّها لم تُقدِم على ذلك. من المؤكّد أنّ أليكس لم يكن يرغب بأن يعرف الجميع تفاصيل حياته الخاصّة، ثم إنّه لم يكن ذلك الوقت مناسباً للخوض في مصارحات غراميّة .

- « لن يقوم بإيذائي » . قالت مود : « أنا أعرف معدنه » .

تردّد ليونيل. هل كان يريد أن يرفض أم أن يقترح أن تنام معه هو؟ كانت نظرتها قاسيةً، وكان يخشى ردود فعلها في الحالتين كلتيهما .

- افعلي ما يحلو لكِ .

- شكراً .

بكلّ بساطة، كانت مود خائفةً، وما كانت ترجوه جلّه هو أن تكون في أمانٍ هذه اللّيلة، فصعدت إلى القمرة، وجمعت حاجياتها في الظلام بسعادةٍ، وانطلقت باتّجاه الدشم من دون أن تلتفت إلى الوراء .

جلس ليونيل على سلّم الشاحنة، ومرّر يده في شعره، وهو يهزّ رأسه. لم يكن بيده حيلة سوى أن يلفّ لفافة حشيشٍ كبيرة .

***

أمضت مود وقتاً طويلاً تناقش أليكس في الخيمة، فلم يجد النعاس سبيلاً إليهما .

شرح لها أنّ مارك في (كاكاني) كان قد ارتبط بعلاقات صداقةٍ مع الكثير من الجنود الكرواتيّين الذين يسيطرون على الجيب .

- هُم أنفسهم الذين يريدون قتل بوبا وعائلتها؟

- هذه هي الحرب؛ لا يمكن فهم كلّ شيءٍ فيها .

- مع ذلك أنتما أصدقاء .

- مارك لا يحمل أيّة أفكارٍ مسبقة. لا تغرّنكِ هيئته الهمجيّة، فهو يدخل قلوب الناس بسهولة؛ أعني بذلك : أنّه يوحي بالثقة والاحترام. كان في (كاكاني) على

الدرجة نفسها من التواصل مع الّلاجئين ومن يحاصرهم، وهو يعرف حقّ المعرفة أنّني مغرمٌ بفتاةٍ تعيش في الأفران .

- وهذا لا يزعجك؟

فكّر أليكس مليّاً قبل أن يجيب .

- أظنّ أنّه يتصرّف مع الناس كما كانوا يتصرّفون مع بعضهم قبل الحرب؛ لقد كانوا يعيشون معاً، ويتزاوجون فيما بينهم، ويذهبون إلى المدارس نفسها .

- صحيح، لكنْ بعد ذلك حصل تطهيرٌ عرقيٌّ ومجازر، ولا يمكن للمرء أن يتصرّف كأنّ شيئاً لم يكن؛ لسنا في برنامج تلفزيونيٍّ للأطفال .

اِنفجر أليكس ضاحكاً .

- مارك ليس كذلك! على العكس، إنّه شخصٌ ملتزمٌ تماماً.

- ملتزمٌ بماذا؟

- اطرحي الموضوع معه إنْ رغبتِ، وسيقول لكِ على ما أظنّ .

كان من الواضح أنّ أليكس لم يكن يرغب بالتكلّم باستفاضةٍ على الأمر، فلمْ تلحّ مود في السؤال. شذرات المعلومات هذه سمحت لها فقط بأن تفهم لماذا استُقبل مارك بحفاوةٍ من قِبل ضابط الحاجز، لا بدّ من أنّه تحدّث إليه عن أصدقائه الكرواتيّين، وربّما كان لهما أصدقاء مشتركون .

وبفضل ذلك تناولوا طعام الفطور في منزل، في منأى عن البرد، إلّا أنّ الأمر كان أسوأ ممّا كان عليه سابقاً. قدّم إليهم الضابط الكرواتيّ القهوة، لكنّه أصرّ على أن تُخلط بكميّاتٍ كبيرةٍ من شراب السليبوفيتش، وفقد ديكور مركز الحراسة في ضوء النهار الرومانسيّة التي كان يضفيها عليه ضوء مصباح الكاز، لقد كان أشبه بحفرةٍ قذرةٍ تنبعث منها رائحةٌ بشعة، وكانت البقع تملأ الأريكة كما الكراسي الأُخرى، في حين عُلّقت صورة البابا يوحنّا بولس الثاني على الحائط تحت رفوف التبن بمواجهة صورٍ لفتياتٍ عارياتٍ ممتلئةٍ ببقعٍ من فضلات الذباب .

كان الضابط الكرواتيّ مسروراً لوجودهم، فأعطاهم إرشاداتٍ دقيقةً جدّاً عن المنطقة، وأوحى إليهم بأنّ هجوماً وشيكاً قيد الحصول على نقطة الحراسة التالية، وبأنّه من

المستحسن أن يلتفّوا حول المنطقة، وأن يسلكوا طريق الغابات الذي يتّجه يميناً .

رفضت مود بشجاعةٍ دورة الشراب الثانية، لكنّ الآخرين اضطرّوا إلى تجرّعها، ويبدو أنّ مارك وأليكس قد اكتسبا خلال مدّة إقامتهما مقاومةً مثيرةً للإعجاب ضدّ مفعول الكحول، ولقد كانا قادرين على أكل شرحاتٍ كبيرةٍ من الدهن الذي قُدّم إليهما؛ أمّا ليونيل وفوتييه، اللّذان كانا يقرفان من هذا اللّحم المقدّد الزنخ، فقد كانا يشربان على معدةٍ خاويةٍ. أضحت نظرات ليونيل أكثر سواداً، فكان يرمق مود وأليكس بنظراتٍ شرّيرة، وتأكّد الشعور الذي خالج مود البارحة : لقد أصابته مود بمقتلٍ حين ذهبت لتنام مع أليكس، ولم يخطر لها قطّ أنّ الأمر سيثير غيرته، لكنْ كان عليها أن تفهم ما حصل، وقد جرحه ذلك .

أمّا بالنسبة إلى فوتييه، فقد بدأت تتفتّح أساريره تحت تأثير الكحول، فالسُّكْر ضغط العنف الكامن فيه، وصار مثل الغاز المضغوط، وكان من الواضح أنّه على وشك الانفجار، والطاقة السلبيّة التي خزّنها أنبأت بأنّ الانفجار سيكون ذا وقعٍ رهيب!

حين انصرفوا من عند مضيفيهم، كان كلّ واحدٍ منهم غارقاً في أفكاره التي كانت في أغلبها أفكاراً سوداء، كان الكلّ يستشعر خطراً كبيراً يُحدِق بهم من دون أن يعرفوا ما هو شكل هذه المصيبة .

3

الطريق الذي أوصى الضابط العجوز بسلوكه كان طريقاً قديماً، وضيّقاً، ومعبّداً على نحوٍ سيّئ، وكان يسير متعرّجاً وصاعداً حتّى قمّةٍ لم يستطيعوا رؤيتها بعد، والعجلات تنزلق في المنعطفات الضيّقة؛ بسبب الطين المتجمّع في الأخاديد على مدى الأيّام الفائتة من دون أن يجفّ، وبدأت تظهر علامات ضعف على الشاحنة الأماميّة؛ فكان محرّكها ينطفئ مراراً، وتستغرق إعادة تشغيله وقتاً طويلاً .

كان الجوّ في القمرة ثقيلاً وينذر بأشياء سيّئة، فلم يكن المزاج السيّئ يفارق ليونيل، وكان فوتييه يجد صعوبةً أكثر فأكثر في كتم غيظه، وتظاهر مارك بتجاهل الانزعاج الذي اعتراهم، وراح يبدي الكثير من الحماسة؛ فقد حاول أن يدندن أنغاماً، لكنّ ليونيل أسكته بحجّة أنّ رأسه يؤلمه .

كما يحصل دائماً، انفجر الموقف نتيجة شرارةٍ أطلقتها جُملةٌ تافهة؛ فبعد أنْ أنهك مارك المحرّك في محاولته صعود منعطفٍ قاسٍ، قال بصوتٍ عالٍ : إنّ حرارة المحرّك قد ارتفعت، وكان يأمل ألّا تتعطّل الأنبوبة المرقّعة من جديد، فانتفض فوتييه من فوق سريره .

– لو بقينا على الطريق الرئيس لكان المسار مستوياً، ولكنّا وجدنا ورشة تصليح .

دار نقاشٌ قبل الانطلاق حول نصائح الضابط، وأوصى مارك باتّباعها . لقد كان الخطأ خطأه حقّاً، في أنّ المطاف انتهى بهم على هذا الطريق السيّئ الذي لم تكن تسلكه سوى الآليّات الزراعيّة، أو المواكب العسكريّة، ومع ذلك لم يكن ينوي الردّ على ملحوظة فوتييه، فاكتفى بالابتسام، وهو ينظر في المرآة الخلفيّة .

– « هل يضحكك كلامي؟ » . قال الميكانيكي .

عدم ردّ مارك على سؤاله أثار غضبه أكثر، لتشمل الملامة اختيار الطريق، وإطلاق الرصاص الذي حصل أمس، والمتفجّرات المهرّبة في العلب الكرتونيّة .

– أتعلم؟ كان عليّ أن أغادر .

– أتمنّى أن تفعل ذلك .

قال مارك ذلك مبتسماً، وهو يدوّر مفتاح المذياع بلا جدوى باحثاً عن محطّةٍ تبثّ الموسيقا .

علت نبْرة النقاش بعدها .

– كان الأجدى أن نطردك أنت وصديقك ركْلاً بأحذيتنا.

– حاول. لمَ لم تقم بذلك؟

أمسك ليونيل رأسه بيديه، وقال :

– اخرسا أنتما الاثنان!

أراد فوتييه الاستقواء برأي ليونيل، وأراد كذلك أن يورّطه في الخلاف .

– ألا توافق معي يا ليونيل؟ أنت في نهاية الأمر القائد هنا، أليس كذلك؟

– ردّ مارك : « أتعلم ما يحاول أن يقوله لك هذا السخيف؟ » .

– « ألّا تُشرك عسكريّين في قافلاتٍ كهذه » . قال فوتييه، وهو يهزّ رأسه : « إنّهم أشخاصٌ فاسدون » .

– لم نُخفِ حقيقة أنّنا كنّا نخدم في الجيش، لكنْ لِمَاذا لم تصرّح أنت عن حقيقة أنّك رجُل مباحث؟

– من هو رجُل المباحث هنا؟

– أنت يا عزيزي. أتظنّ أنّنا لم نلْحظ ذلك؟

ظهرت علامات المفاجأة على الميكانيكيّ، ثمّ أخذ يكيل الشتائم، فابتسم مارك في البدء قبل أن يفقد أعصابه فجأةً! أهي كلمة معيّنة سمعها فأثارت حنقه؟ لقد بادر إلى الردّ حين سمع تعبير : « ابن العاهرة » . أكان ذلك لأنّه كان تعباً بعد ليلةٍ قضاها من دون نومٍ من جرّاء كوابيس مشروب السيلبوفيتش؟ ما حدث هو أنّه ترك المقود، وأمسك فوتييه من عنقه، فتوقّفت الشاحنة في منتصف الطريق، فاضطرّت الشاحنة الثانية أن تفرمل بسرعة كي لا تصطدم بها. رأت مود – التي كانت تقود – باب الشاحنة يُفتح، ومارك يترجّل على الأرض ساحباً معه فوتييه، وانتهى الأمر بهما مستلقيين في الطين

أحدهما فوق الآخر، وكانت اللكمات تنهمر على فوتييه الذي بدأ – بعد لحظاتٍ من الذهول – يدافع عن نفسه بقوّةٍ لم يكن أحدٌ يظنّه يمتلكها، كان هو أيضاً قادراً على العراك الجسديّ، وسبّبت اللكمات التي سدّدها إلى مارك النزيف من شفاهه وصدغه .

خرج ليونيل من الشاحنة بسرعة، وهرع نحو المتعاركين، فثبّت مارك من يديه في محاولةٍ منه للفصل بينهما، فاستغلّ فوتييه هذه الحركة ليتحرّر ويلكم مارك في بطنه، فقام أليكس الذي ترجّل بدوره من الشاحنة بإمساك ليونيل من ذراعه.

– لا تتدخّل فيما بينهما؛ دعه!

التفت ليونيل نحو أليكس، وقد شوّه الغضب ملامح وجهه، فأدركت مود أنّ الشجار على وشك التطوّر ليشمل هذين الاثنين أيضاً، فبدأت بالفصل بينهما، ثمّ التفتتْ إلى الرجُلين اللّذين كانا يتابعان عراكهما، وصرخت كي يتوقّفا. كان مارك قد عاد إلى السيطرة على غريمه، وبعد أن وجّه إليه لكمةً أخيرةً على الوجه، نهض واقفاً وابتعد عنه.

كان وجه فوتييه مشوّهاً بشدّة من العراك؛ فإحدى عينيه باتت مغلقةً نتيجة التورّم الذي أصابها، وكان يمسك بذراعه اليمنى، وهو مكشّر، ودلّت البقع الزرقاء على عنقه أنّ مارك أوشك على خنقه، فجلس على ركبتيه منهكاً كثورٍ صرعته فأسٌ، وثيابه كانت ممتلئةً بالطين. تساءلت مود إنْ كان سينهار مجدّداً، لكنّه نهض رويداً رويداً على قدميه، وهو ينظر حوله مذهولاً، فثبّت نظره على مارك الذي كان قد أخرج جالوناً من المياه يغسل به وجهه.

– « أنت » . قال له، وهو يشير إليه بإصبعه : « سأقتلك » .

***

كما جرت العادة تقريباً، عندما يتوقّفون في مكانٍ ما، كان هنالك أطفال يراقبونهم من بعيد، هربوا عند حصول الشجار. ما الذي يضمن أنّهم لم يقوموا بإخطار أحدٍ بالأمر؟ كان أليكس مقتنعاً بأنّ المليشيا كانت تستخدمهم للرصْد .

كان هو الوحيد الذي ما زال يفكّر على نحوٍ منطقيٍّ من المجموعة كلّها، فأصرّ على أن تتابع القافلة سيرها بالسرعة الكليّة، فإن صادف أنْ أتت دوريّة وفتّشتهم، سيكون

من الصعب عليهم ألّا يبدوا بهيئةٍ لا تثير الشبهات. الشاحنة الأولى كانت ما تزال في منتصف الطريق بأبوابها المفتوحة، وعدّة أشياء قد سقطت على الأرض حين جرّ مارك فوتييه إلى خارج القمرة. كان ليونيل يبحث عن كيس التبغ خاصّته الذي سقط على عشب المرج الرطب. استند المتعاركان على أخشاب الشاحنة الجانبيّة، كلّ واحدٍ من جهة، والطين يقطر من ثيابهم، وعلى العكس من مارك الذي نظّف وجهه تقريباً، كان فوتييه لا يزال يضع هذا القناع من الطين والدماء المتخثّرة .

بدت مود كالمنكوبة؛ لم تكن تتوقّع أنّه بإمكانهم أن يصلوا إلى هذا الحدّ، وكانت لا تفهم، أو على نحوٍ أدقّ : كانت تفهم، ولكنّها لا تريد أن تقبل هذا العجز الحضاريّ، أو النزعة الفطريّة إلى العنف التي كانت تراها عند الرجال، وتوقّعت أن تصادفها في هذه الأرض التي تجري عليها حرب، لكنّها لم تكن تظنّ أنّها ستلقاها عند مَن مِن المفترض أن يمثّلوا قِيم الإنسانيّة والسلام، لقد كان الأمر صادماً لها مثله في ذلك مثل الشرطة التي تقوم بسرقة الأشخاص الذين طلبوا نجدتهم.

وجد ليونيل كيس تبغه، وراح يسحب بعمقٍ دخان لفافة التبغ الملطّخة ببقعٍ من طينٍ، التي لفّها على عَجَل.

بقي الكلّ مذعناً، ومنكسر النفس، ولا يودّ الحراك، عدا أليكس الذي كان يبذل جهده في إعادة ترتيب الفوضى التي خلّفتها المعركة. عادوا إلى وعيهم حين لفحتهم ريحٌ باردةٌ حملت معها صوت ضجيج محرّكٍ بعيد، أتى الصوت من الأعلى، وكان يشبه صوت الدرّاجة الناريّة، فهرعوا جميعهم نحو القمرات كيفما اتّفق، لكنْ في اللّحظة التي شرعوا فيها يصعدون إلى قمراتهم، خطرت للجميع فكرةٌ واحدةٌ؛ وهي أنّه يجب ألّا يدعوا مارك وفوتييه يتشاركان القمرة نفسها.

فكّر ليونيل بسرعة، لكنّه لم يصل سوى إلى حلول غير مجدية، فنادى أليكس أخيراً؛ كي ينضمّ إليه في الشاحنة الأولى، وأرسل مارك بفظاظةٍ لينضمّ إلى مود في شاحنتها.

دُهشوا عندما دارت المحرّكات من المحاولة الأولى، التي كانت قد بردت قليلاً، فانتظمت الشاحنتان في رتلٍ أخذ شكله الطبيعيّ حين ظهرت الدرّاجة الناريّة.

كان شابٌّ في مقتبلِ العمر يقود الدرّاجة، لا يلبس بدلةً عسكريّةً، ويحمل رشّاشاً تشدّه إلى ظهره حمّالة من الجلد الطبيعيّ، وركبت خلفه – مثل أمازونيّة – امرأةٌ ضخمةٌ لباسها باللّون الأسْود، وتحمل بوقارٍ سلّةً من القصب على ركبتيها، فمرّا بجانب القافلة من دون أن يُبطئا، ومن دون أن يردّا التحيّة التي وجّهها إليهما السائقان .

***

اتّسع الطريق عرضاً عند وصولهم إلى القمّة، وخروجهم من الطريق الحراجيّ، وأصبح المشهد بانوراميّاً. كان يمكن رؤية الوادي الذي تغطّيه الغابات بأشجارها الكثيفة، والتي يخرج منها من وقتٍ إلى آخر عمودٌ كهربائيٌّ من المعدن في الأسفل، وأعدادها الكبيرة كانت تدلّ على أنّها بالقرب من مدينةٍ، وبالفعل، لقد كان بالإمكان ملاحظة كتل أبنية المدينة الرماديّة في نهاية الوادي، على حدود الأفق تقريباً.

لم يصادفوا الحاجز عند القمّة تماماً كما قال لهم الضابط، إلّا أنّه كان يمكن تمييز الخنادق وآثار المعارك بوضوحٍ على جانبيّ الطريق، وبدا المكان كئيباً بأشجاره المحروقة، وهياكل العربات التي روكمت في حفرة. كان من المستحيل تحديد تاريخ المواجهات التي حصلت هنا، فما كانوا ليتفاجؤوا لو صادفوا جثثاً تفترش الأرض هنا، كما يمكن أن تكون الآثار قديمة جدّاً، ولم يكن هنالك أحدٌ، أو أيّ شيءٍ في محيطها سوى الغربان المعتادة .

حلّت ساعة الغداء، لكنْ لم تكن لأحدٍ الرغبة بالوقوف، ولم ينتَبْهم الإحساس بالجوع بعد الذي حصل، فقاموا بمتابعة الطريق نحو الأسفل .

في قمرة الشاحنة الأماميّة، جاء دور أليكس في القيادة لينال ليونيل قسطاً من النوم بعد أن أنهكه الكحول الذي تناوله مع الإفطار، وكان فوتييه يجترّ بغضاءه في الخلف، فكان أليكس يسمعه يفرك ذراعه، وهو يحاول أن يكتم أنينه .

– أرجو ألّا يكون هنالك كسر.

– هذا ليس من شأنك .

أحسّ أليكس أنّ الميكانيكي كان لا يزال لا يميّز بينه وبين مارك، فتوقّف الحديث هنا، وصبّ أليكس جلّ تركيزه على الطريق، ومرّ بالقرب من عمود إشارةٍ طرقيٍّ صدئٍ

وممتلئٍ بثقوبٍ خلّفها الرصاص، يحمل دلالة (سراييفو : 120 كم) . قبل عشرة أعوامٍ خلَتْ، حين احتضنت المدينة الألعاب الأولمبيّة، كان بالإمكان المجيء من العاصمة للتنزّه هنا طوال النهار مع أفراد العائلة.

عبقت السماء بسُحبٍ رماديّةٍ كثيفةٍ تنذر بطقسٍ سيّئ، فالطقس يتغيّر بسرعةٍ في نهاية فصل الخريف هذا. لقد حلّ فصل الشتاء في الجبال، والريح التي أصبحت شماليّةً فيه كانت قارسة، وسادت العتمة في الغابة، فتساءل أليكس : لمَ بدا هذا المكان كما لو أنّه قد وُجد من أجل أن يكون مسرحاً لحرب؟ لطالما تساءل حول هذا الأمر في المدرسة في أثناء حصص التاريخ، وما كان يمرّ معه كلّه هو تاريخ معركةٍ جرت في الربيع، أو الصيف، كان يتخيّلها كحملةٍ مفعمةٍ بالحيويّة، وتخلو من الجدّيّة، ولم يكن يستطيع أن يصدّق أنّ الموت قد يجد له مكاناً على مروجٍ خضراء مزهّرة وطريّة. عندما كان ما يزال في الجيش، كان يشعر دائماً بالأمان حين يتحسّن الطقس، وقد تطلّب منه الأمر أن يرى أحد أصدقائه، وهو ممدّدٌ على الأرض تحت أيكةٍ من الزعرور الأبيض، وقد أصابته رصاصةٌ في شهر حزيران/يونيو، كي يدرك كم كان ساذجاً في تصوّره .

– أمَضى وقتٌ طويلٌ في علاقتك مع مود؟

خرج ليونيل من خدره، وراح ينظر إلى أليكس بعينين محتقنتين .

– أنمتَ جيّداً؟

– لقد طرحتُ عليك سؤالاً .

– لم أفهم ما الذي تبغي معرفته بهذا السؤال .

– طبعاً لم تفهم ...

كان الطريق النازل مشوّهاً بقدْرٍ كبيرٍ بالأخاديد، وكان على أليكس القيام بمناوراتٍ كبيرةٍ بالمقود كي لا تجرّه إحداها إلى المنحدر .

– لا، لم أفهم؛ اشرح لي، إذا سمحت.

التفت إليه ليونيل بصورةٍ شرّيرة :

– سألتك كم مضى عليك من الزمان، وأنت على علاقةٍ جنسيّةٍ مع مود؟ هذا أوضح، أليس كذلك؟

– أضاجع مود؟ أنا لم أقضِ اللّيل مع مود إلّا في تلك اللّيلة، ويبدو لي أنّك كنت موافقاً.

– لست مضطرّاً إلى أن تكذب عليّ؛ أنا لا أهتمّ بعلاقاتكما الجنسيّة.

نظر أليكس باتّجاه ليونيل، وكانت تعابير الألم تبدو على وجهه الذي لم يفارقه التعب بعد، فاجتاحت أليكس الرغبة بأن يمسك برفيقه من أكتافه، ويهزّه بودّيّةٍ، لكنّه تحاشى هذه الألفة كون الجوّ الذي ساد في الفريق لم يعد يسمح بذلك.

– سأقول لك شيئاً آمل أن يوضح لك أكثر ما يجري : أنا ذاهبٌ لملاقاة الفتاة التي أحبّ في (كاكاني) .

– أتعلم مود بذلك؟

– أتريد أن تعرف تماماً ما الذي قلته لها؟

حكى أليكس له القصّة كلّها من دون أن يغفل شيئاً، واستمع ليونيل إلى السرد من دون أن يتفوّه بكلمة، فرأى أليكس بأنّه استرخى عند سماع القصّة بالمقدار نفسه الذي يوفّره تدخين لفافة تبغٍ أُخرى، وكان واضحاً أنّه يرغب في إخفاء مشاعره، ويظنّ بأنّه نجح في ذلك، لكنّ أليكس كان يقرأ ما يعتمل في داخله من دون عناء.

– أيمكنني بدوري أن أطرح عليك سؤالاً؟

– طبعاً.

– ما من شكّ في أنّك تريد معرفة ما بيني وبين مود لأنّك ...

– « اهتمّ بشؤونك » . قاطعه ليونيل .

اكفهرّ ليونيل من جديد، لكنّ مزاجه السيّئ كان واضحاً كما هي بهجته، فأشفق عليه أليكس هذه المرّة، وانتظر قليلاً قبل أن يعاود الحديث بموضوعٍ أقلّ حساسيّة.

– أتدري بمَ تذكّرني هذه الشاحنات، ومغامراتنا الصغيرة كلّ يومٍ بيومه؟

– لا .

– بكتاب قصصٍ مصوّرة لم أعد أتذكّر ما هو بالتحديد. لقد قرأت الكثير منها .

– أتحبّ كتب القصص المصوّرة حقّاً؟

– لا أقرأ سواها. وأنت أيضاً؟

– أيّها تفضل؟

– كلّها، ولكن بالطبع أفضّل كورتو مالتيس، ولارغو وينش؛ القصص التي تحكي مغامرات .

تناقشا لمدّة نصف ساعةٍ كاملة عن أبطالهما المفضّلين، وأحسّ ليونيل بالثقة التامّة. طريق النزول سينتهي قريباً، وقد بدأوا يلحظون عند بعض المنعطفات أولى أبنية المدينة؛ أمّا ليونيل، فقد أخذ وضعيّة الحديث الطويل بحشر نفسه بين المقعد وباب الشاحنة.

كان يمزح، وعندما كانا يضحكان معاً كان أليكس يسمع تنهيدة أسفٍ قادمة من سرير فوتييه، كان يتخيّله، وهو يرفع كتفيه؛ لأنّه يجدهما غبيّين .

– أتعلم؟ عندما اقتُرح عليّ أن أنضمّ إلى القبّعات الزرق، كنت أتوقّع أنّني سأعيش مغامراتٍ تشبه تلك التي عاشها ميشيل فايان. هل قرأت مغامرات ميشيل فايان؟

– بالطبع! لقد قرأتها كلّها.

– وأنت؟ هل اخترت العمل الإنسانيّ حبّاً بالمغامرة؟

– « كان من الممكن » . قال ليونيل، وهو يهزّ رأسه : « فأنا قرأت الكثير حول الأطباء الفرنسيّين، وقد كنت مدهوشاً بهم، لكنّ الأمر لم يجرِ كذلك، لقد انضممت بسبب أهلي » .

– ما العمل الذي يقومون به؟

– يعملون في توزيع الموادّ الغذائيّة : كان أبي مدير متجرٍ صغيرٍ تابع لسلسلة متجر فيليكس بوتن في مدينة إيكولي، وأمّي كانت تعمل معه، وبما أنّهما لم يملكا الوقت الكافي للاهتمام بي قاما بوضعي في مدرسةٍ داخليّةٍ في بلدة فينيسيو، وكان الأمر يثير غضبي، وكي أحتمل بدأت أدخّن كثيراً، الأمر الذي لم يكن يساعدني كثيراً في أوقات الامتحانات، وكي أتحاشى أن أبقى بلا عمل، خطرت لي فكرة أن اعمل كسائق شاحنات؛ هذا ما دفعني إلى أن أحصل على شهادة سياقة الشاحنات الثقيلة. لم يوافق أبي على

الأمر البتّة، فقد كان يودّ أن يراني أعمل في مكتبٍ عملاً جديّاً، فأجبرني على اتّباع دوراتٍ تأهيليّةٍ كي أعمل في مصرف.

- وقمت بها؟

- كنت مجبراً .

- صراحة يا ليونيل، أنا لا أقدر على تخيّلك تعمل خلف كوة .

- مع ذلك استطعت التحمّل سنتين، كنت ألبس بدلةً رسميّةً، وقميصاً أبيضَ، وأضع ربطة عنقٍ، وأعود منهكاً في المساء إلى الغرفة الذي استأجرتها في منطقة فيلوربان .

- ولماذا لم تتابع في هذا العمل؟

- قبض عليّ رئيس الفرع متلبّساً، وأنا أدخّن في المكتب .

- تدخّن؟ أتقصد تدخين الـ ...

- نعم، بالطبع. لاحِظ - يا عزيزي - أنّ الأمر لم يكن يثير لديه أيّ قلق؛ فهو نفسه كان يدخّن في أيّام عطل نهاية الأسبوع، لكنّ ذلك كان ممنوعاً منعاً باتّاً في المصرف، وفي الحقيقة، كان قد ملّ من أخطائي، ومن تأخّري المستمرّ، ومن هذه الأمور كلّها، فاعتمدها حجّةً كي يطردني.

بدأ يرى في البعيد حواجز تفتيشٍ ضخمة؛ فخفّف أليكس من سرعته كي تستطيع الشاحنة الثانية اللّحاق به .

- « في مدّة الإشعار بإنهاء الخدمة » . اختتم ليونيل الحديث : « وقعت بالمصادفة على إعلانٍ عن منظّمةٍ غير حكوميّةٍ تبحث عن مديرين، وكان ذلك في بداية هذه الحرب، وكانوا يوظّفون المتقدّمين كلّهم. حسناً، هذا ليس كلّ شيء، لكنْ علينا الآن أن نلقي التحيّة على أصدقائنا الصرب » .

***

لم تنفرج أسارير كلٍّ من مارك ومود في قمرة الشاحنة الثانية منذ عاودا المسير بعد العراك.

كانت مود تقود الشاحنة، وتركيزها جلّه مسلّطٌ على الطريق، واجهت صعوبةً في توجيهها بسبب الأخاديد والطين، وكان ذلك نوعاً من المشكلات التي ترغب في حلّها من دون أيّة مساعدة، لم تكن لتطلب مساعدة أيّ أحدٍ في ذلك مهما كلّفها الأمر، وكان ذلك أفضل لها، فصعوبات القيادة تلهيها عن الشعور بعدم الراحة الذي ولّده وجود مارك الضخم إلى جانبها، فتلك هي المرّة الأولى التي تكون فيها على هذا القرب من مارك، وحاولت لا شعوريّاً حتّى تلك اللّحظة أن تبقى بعيدةً عنه كما لو أنّه كان يمثّل خطراً. على الرغم من ذلك، لم تكن تخاف منه، لا بلْ قد بدأت تكوّن عنه رأياً إيجابيّاً منذ الإقامة القصيرة التي قضوها عند الكرواتيّين، ورؤيته يتدحرج في الطين، ويلكم، ويتلقّى اللّكمات بذلك العنف الحيوانيّ، لم تجعل منه شخصاً مخيفاً، بل على العكس، تكوّنت لديها نظرة مغايرة لدى استذكارها أحداث العراك، ووجدت الحدث مقرفاً في البداية، لكنّها مع الوقت أحسّت بالتعجُّب لرؤيتها نوعاً من الجمال في هذه الذكرى التي لم تتمظهر لها لحظتها، وبدت مثل رقصة باليه بربريّة؛ استعراض شرس وملتهب، ومشهد يذكّر ببدايات الجنس البشريّ وجوهره، فوصلت إلى خلاصةٍ مفادها أنّها تكره أشكال العنف الرجوليّ المُتحضّر والخارج عن الطبيعة كلّها، لكنّها كانت ترى أنّ العنف، بشكله البدائيّ كما في العراك بالأيدي في الوحل؛ أمرٌ طبيعيٌّ، وأنّه، لسببٍ كانت تجهله؛ مرغوبٌ أيضاً.

في حين كانت تقلّب في رأسها هذه الأفكار الصامتة، كان مارك من جانبه مُنكبّاً على إزالة آثار العراك كافّةً؛ فقام بإخراج بدل لباسٍ من حقيبة ظهره، وبدّل على التتالي بلوزته القطنيّة وبنطاله، وكان من الصعب عليه التحرّك بأريحيّةٍ ضمن نطاق القمرة الضيّق، وما من شكّ في أنّه كان يتألّم. لم تجرؤ مود على الالتفات باتّجاهه لترى إن كان يكشّر، وقالت في سرّها : إنّها كانت لتتصرّف مثله لو أنّها واجهت الظروف نفسها : حفظ الكرامة، وإخفاء الألم، وعدم البوح بالمشاعر .

قام مارك بعد ذلك باستعمال مناديل مخصّصة لتنظيف الزجاج الأماميّ، تقبع في علبة القفّازات؛ لتنظيف وجهه، ولمسح آثار الدم والتراب من الجروح كلّها في ذراعيه ورقبته. الإصابة الأكثر وضوحاً كانت شقّاً كبيراً على الجانب الأيمن من الشفة العليا، فقام بلفّ قماشةٍ على شكل كرةٍ، وراح يربّت على الجرح بنعومة. كان الهدف من ذلك إخفاء الجرح أيضاً، وكان شكله قد تحسّن قليلاً حين التحقوا بالشاحنة الأماميّة، وتوقّفوا بانتظار عبور الحاجز.

كان الحاجز الذي يقطع الطريق هذه المرّة عبارة عن موقع حربٍ صربيٍّ حقيقيّ، والجنود فيه يرتدون البدل العسكريّة النظاميّة للجيش اليوغوسلافيّ، وكانت الشارات تدلّ على رُتبهم؛ أمّا الدروع على صدورهم، فأشارت إلى الوحدات التي ينتمون إليها.

توقّفت بضع عربات نقل جنودٍ تابعة للأمم المتّحدة بالقرب من المكان، وكانت مجموعة من أفراد الخوذ الزرقاء تتناقش مع ضبّاطٍ صرب. ساد الهدوء بين الجنود؛ فمهمّة تفتيش القوافل كانت عبارة عن استراحةٍ، أو مكافأةٍ مقارنةً بالأخطار التي أحدقت بهم حين كانوا في مواقعهم القتاليّة، وفي الوقت نفسه، كان جوّ حرب المدن يسبغ على المشهد قلقاً دائماً وصامتاً، ينعكس بإحساسٍ بالخطر عند أيّة حركة.

التفتيش بحدّ ذاته كان أقلّ إثارةً للذعر منه على الحواجز المنعزلة التي مرّوا بها حتّى الآن، وحقيقة أنّ الموقع كان مداراً من قِبل الجيش النظاميّ جعلت من غير المحتمل أن يتعرّضوا لتفتيشٍ كاملٍ، أو لمحاولة ابتزازٍ، أو انتزاعٍ للبضاعة، ووجود قوّات حفظ السلام (قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة) كانت عاملاً باعثاً على الطمأنينة أيضاً، حتّى لو كانت القوّات الأمميّة غير قادرةٍ على فعل شيءٍ، وذات استجابةٍ بطيئة، لكنّ وجودهم جعل منهم شهوداً لمنع المقاتلين من أن يقوموا بأيّ عملٍ مُشين.

كانت تلك المرّة الأولى التي يمرّون فيها ضمن مدينةٍ كبيرةٍ في منطقةٍ تشهد معارك. الجوّ المدنيّ كان يبعث على توتّرٍ لم تسبّبه لهم الأرياف التي مرّوا بها حتّى الآن .

تحدّث مارك إلى الجنود في الوقت الذي كان فيه أحد الضبّاط يتفحّص الوثائق، ولَحظت مود كم كان عفويّاً في ابتداء الحديث معهم. كان أليكس على حقّ؛ فمارك يملك القدرة على التكيّف مع أيّ جانب، صربيّاً كان أم كرواتيّاً، أو زميل عمل. ماذا يمكن أن يكون التزام مارك الذي تحدّث عنه أليكس؟

بعد أن جرى التدقيق من دون أيّة صعوبة، صعدوا من جديد إلى الشاحنات.

– يبدو أنّ المدينة مقسومةٌ إلى قسمين، ولا يسيطر الصرب إلّا على النصف، ويسيطر المسلمون على أحياء الضفّة اليمنى، والقنّاصون في كلّ مكانٍ تقريباً، والوضع هادئٌ الآن، إلّا أنّ هناك هجمات كلّ ليلة.

– هل أخبرت ليونيل بذلك؟

– لا بدّ من أنّهم قد أخبروه. على كلّ حال، سنقدّر الموقف بصورةٍ صحيحةٍ حين نصل إلى مركز قيادة الأمم المتّحدة .

صعدت القافلةُ ببطءٍ جادّةً عريضةً محاطةً بأبنيةٍ من الإسمنت، وحمل العديد منها علامات قذائف سقطت عليها، وآثار دخان الحرائق الأسْود كانت واضحةً على واجهاتها، ولم يكن هنالك من مشاةٍ على الأرصفة، والسيّارات النادرة المركونة بجانب الطريق كانت أغلبها محترقة، إحداها عربة مثيرة للدهشة؛ كانت عبارة عن عربةٍ مصفّحةٍ محليّاً بقطعٍ من صفائح الحديد، رُكّبت بالبراغي على جسد جرّارٍ زراعيّ، شظيّة قذيفة هاون أنهت الحياة المهنيّة لهذه الآلة المثيرة للشفقة، كانت منقلبةً على جانبها في منتصف طريقٍ جانبيّ.

– « في بداية الحرب » . قال مارك : « صنعوا أيّ شيءٍ ليدافعوا عن أنفسهم، لكنّ ذلك لم يشكّل أيّ ثقلٍ أمام تقدّم الجيش الصربيّ » .

لمْ يعطِ أيّ توضيحٍ حول على من يعود الضمير المتّصل في فعل « صنعوا » .

شرعوا بعد مسافةٍ قليلةٍ بالدخول إلى حيٍّ أكثر قِدماً، الشوارع فيه مرصوفةٌ، وسكك القطار ممدّدةٌ على الأرض، وبُنيت الأبنية على جانبيّ الطريق وفق الأسلوب النمساويّ الهنغاريّ، بشرفاتها الحجريّة، والتماثيل الأنثويّة التي تحيط بالنوافذ، وكانت ستائر المحالّ الجديدة كلّها مغلقة، كما لو أنّ هذه المباني القديمة قد صنعت هي أيضاً تصفيحها العابر كي تحمي نفسها من الحرب.

فتح مارك نافذته منتظراً سماع دويّ الإطلاق البعيد الذي كانت واجهات الأبنية تُرجع صداه. تمركزت مفرزة جنود قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في بناء البريد المركزيّ، عمودان من أكياس الرمل كانا يحيطان بالمدخل المحروس من قِبل جنديٍّ باكستانيٍّ في الخوذ الزرقاء. ركنوا الشاحنتين في ساحةٍ مزروعةٍ بالأشجار ينتصب في منتصفها تمثالٌ فقد رأسه.

ترجّلوا وتجمّعوا ينتابهم ضيقٌ وسط هذه المدينة الشبح.

– « قائد الخوذ الزرقاء ضابطٌ فرنسيّ » . قال ليونيل : « سأرى إن كان بإمكاننا البقاء هنا اليوم » .

– لم تتجاوز الساعة الثانية بعد، يمكننا أن نتقدّم أكثر اليوم.

لم يتكلّف ليونيل عناء الردّ عليه، فتقدّم نحو الحارس، ولحق الجميع به.

ألقى الحارس نظرةً غافلةً على الأوراق، وسمح لهم بالدخول .

ساد هياجٌ في قاعة البريد القديم يتناقض والهدوء في الخارج، وكانت المكاتب الصغيرة الموزّعة تقريباً في الأنحاء كلّها تضجّ بالعسكريّين، وكان السقف عالياً جدّاً، ومزيّناً بمنحوتاتٍ من الجصّ، ومُضاءً بثريّاتٍ من البرونز. المئات من الأشرطة الكهربائيّة الممدودة عبر القاعة، والمُعلّقة على الثريّات، وعلى درابزين الدرج الرئيس كانت تخرج من النوافذ التي أغلقت على عَجَلٍ بالطوب، وبدا المكان أشبه بكواليس تصوير فيلم ميزانيّته عالية. الرجال والنساء في البدَل العسكريّة، الذين يملؤون المكان، كانوا أشبه بـِ « كومبارس » يتهيّؤون لتأدية أدوارهم .

– « انتظروني هنا » . قال ليونيل : « سأحاول أن أجد رئيس القطاع » .

عاود ليونيل استعمال نبرة القائد منذ العراك، فانطلق باتّجاه الأدراج.

بقوا واقفين وسط القاعة، لم يُعرهم أحدٌ أيّ انتباه، فأشار أليكس إلى أريكةٍ وبعض الكراسي مرميّة في إحدى الزوايا، فذهبوا ليجلسوا عليها، ولحظوا عندها اختفاء فوتييه؛ كان ذلك شيئاً اعتادوا حدوثه حين مرورهم بالمدن، فلم يُثِر الأمر قلقهم.

وُضعت هناك على المنضدة مجلّاتٌ قديمةٌ، أخذ كلّ واحدٍ منهم واحدةً منها، وانسجموا في القراءة، كانت أغلبها مجلّات عسكريّة : تير ماغازين، وكول بلو، أو دراسات صادرة عن إدارة الإعلام في الجيش. لم تر مود في هذه المجلّات أيّة أهميّة، لكنّها كانت مسرورةً لأنّه كان بإمكانها أن تجلس مرتاحةً في كرسيّها تتصفّح أوراقاً مطبوعةً، وتشاهد صوراً ملوّنةً، وتقرأ كلماتٍ بلغتها هي.

عندما عاد ليونيل، وجدهم صامتين، وكلّهم آذان مُصغية، وكان يرافقه رجُلٌ قويّ البنية، وبشوشٌ، في الخمسينيّات من عمره، وتكسو وجهه لحيةٌ رماديّةٌ، وكان يلبس بدلةً عسكريّةً تحمل بوضوحٍ – وبالقرب من الرتبة التي تدلّ على أنّه مقدّمٌ في الخدمات الطبيّة – درعَ العلم الفرنسيّ، وكان يتكلّم بلكنة أهل البيارن، ويشبه في شخصيّته بورتوس من الفرسان الثلاثة .

– ها هُم المغامرون .

– « أقدّم إليكم الدكتور أرجيلوس » . قال ليونيل : « هو المسؤول عن الأعمال الإنسانيّة في هذا القطاع » .

– هدّئ من حماستك يا صغيري! ليس هنالك الكثير ممّن يقومون بالأعمال الإنسانيّة في هذا القطاع. إن كان عملي يقتصر على هذا لما كان لي من عمل، فعملي الرئيس هنا هو أنْ أهتمّ بصحّة جنودنا.

قاموا بتقديم أنفسهم الواحد تلو الآخر، وصافحوا يد الطبيب الضخمة، فلَحظ ليونيل عندها أنّه ينقص أحدهم.

– أليس فوتييه معكم؟

– « لا بدّ من أنّه راح يقدّم تقريره » . قال مارك بتأفّف .

– « تقريره! » . تعجّب الملتحي، وهو يبتسم .

– إنّه يمزح، لن يطول الأمر به قبل أن يعود .

– أهكذا تصفون في مجالكم رجُلاً ذهب ليقضي حاجته! حسناً اتبعوني، سأرشدكم إلى أجنحتكم.

صعدوا الدرج الكبير، وساروا في ردهةٍ طويلةٍ، وقد نُزعت الأبواب الجانبيّة جميعها لتُستعمل في تقسيم القاعة الكبيرة إلى حُجرات، ومن جرّاء ذلك أصبح الممشى يفضي إلى العديد من الممرّات الفرعيّة، فدخل الرجُل الملتحي الممرّ الثاني من اليسار، وقام بفتح باب.

– « هذه هي مملكتي في هذه الدنيا » . قال، وهو يدعوهم إلى الدخول إلى مكتبٍ ممتلئٍ بالأوراق وأجهزة الحاسوب .

كانت تضيء الغرفة نافذةٌ كبيرةٌ تشكّل نصف الحائط، والثقب الذي خلّفته رصاصةٌ في الزجاج كان واضحاً وسط نجمةٍ شكّلها الزجاج المشعور، وكان يوجد على الحائط المقابل ثقبٌ من العيار نفسه، الأمر الذي يدلّ على أنّ الرصاصة قد قطعت الحجرة بأكملها.

– « عيار 12.7 » . قال أليكس، وهو يعاين الثقب.

– ما هذا، يبدو أنّ صديقنا خبير!

– لقد خدمت ضمن قوّات الأمم المتّحدة في المنطقة لمدّة ستّة أشهر.

– إذنْ، فأنت تعرف كيف تجري الأمور. الأمور هادئةٌ عموماً، لكنْ من وقتٍ إلى آخر... بوف! بوف! تنفجر الأمور، ولا أحد في منأى عن الخطر .

دلّهم الطبيب بإصبعه، وهو يبتسم ابتسامةً عريضةً؛ على الفرشة التي وضعها تحت أحد المكاتب .

– لحُسن الحظّ، حصل ذلك، وأنا نائم.

لم يكن يبغي من ذلك أن يثير خوفهم، بل أن يوصل إليهم فكرة أنّه رجُلٌ محبٌّ للحياة، وذو مزاجٍ رائق.

– قال لي العقيد : إنّكم ستغادرون غداً؛ أشعر بالأسف لذلك، فليس لي من رفاقٍ في قسمي، وليس لديّ الكثير من العمل. إلى أين أنتم متّجهون؟

– (كاكاني) .

– (كاكاني) ، (كاكاني) نفسها الموجودة في الجبال بين (سراييفو) و (زينكا) ، إن لم أكن مخطئاً؟

– هي ذاتها .

– وما الذي أنتم ذاهبون لفعله هناك بحقّ الآلهة؟

– « مؤسّستنا الخيريّة هي التي اختارت المكان » . تدخّل ليونيل الذي لم يكن يودّ أن يقوم العسكريّان بإعطاء تفاصيل أكثر دقّة .

– لا بدّ من أنّ لديهم أسبابهم. أنا مثلكم أيضاً؛ لا أفهم أحياناً مغزى الأوامر التي أتلقّاها. أرمانياك أم بيرة؟

أخرج زجاجات من درج، وهو يتابع حديثه، وراح يفتّش في الدرج السفليّ عن كؤوس.

– « أظنّ أنّنا سنختار البيرة » . قال أليكس : « سنشرب من الزجاجة مباشرة » .

– هذا أفضل؛ لأنّه من النادر أن تجد كؤوساً هنا، وتكون مقرفةً إن وجدت منها.

قام بفتح أغطية زجاجات البيرة بطرف قبضة شوكة .

– حسناً، يمكن للآنسة أن تنام هنا، وأنا سأذهب إلى دور الضبّاط. قانونيّاً، عليّ أن أنام هناك، لكنّني أفضّل البقاء في مكتبي؛ أمّا الآخرون، فيمكنكم أن تبيتوا في الغرفة المجاورة : هي غرفة نوم رائدٍ من بنغلادش ذهب في إجازةٍ، وترك لي المفتاح. يبدأ تقديم طعام العشاء في الساعة السابعة في مطعم الخدمة الذاتيّة في الدور الثالث.

– « وماذا سنفعل حتّى ذلك الحين؟ » . سأل مارك.

لم يكن قد تكلّم حتّى الآن، فالتفت إليه الطبيب، واقترب منه.

– التفت باتّجاه النور. ما هذا؟ لقد تلقّيت لكمةً قويّةً على وجهك. كيف حصل ذلك؟

– لا شيء، لقد سقطت.

ضحك الطبيب ضحكةً مسموعة .

– إن كنت سقطت، فأنا ملكة إنجلترا. هذا شيءٌ لا يخصّني على أيّ حال، لكنّك ستتبعني لأقوم بعلاجك؛ تحتاج إلى قطبتين على الأقلّ.

نظرت مود إلى مارك الذي كان يبدو مستشيط الغضب، لكنّها تفاجأت حين رأته يتبع الطبيب بكلّ طيب خاطر.

– يمكنكم التمشّي قليلاً في المدينة حتّى وقت العشاء، لكن حذارِ! هذا هو الطريق الوحيد الآمن فيها.

– « عليّ أن أقوم باتّصالٍ إلى فرنسا » . قال ليونيل.

– أعرف، لقد أخبرني العقيد، يمكنك استعمال هاتف الموقع؛ أُطلب خطّاً من عامل الهاتف.

– « أظنّ أنّني سأعود إلى القاعة في الأسفل » . قالت مود، التي نفرت من جوّ الغرفة الخانق.

رافقها أليكس، وجلس الاثنان على الأريكة.

– أتظنّين أنّ ليونيل سيسرد كلّ شيءٍ للمسؤولين في الجمعيّة؟ المتفجّرات ....

– « لا أظنّ ذلك » . قالت مود.

– والأحمق فوتييه، ماذا يفعل؟

– لماذا قال مارك : إنّه يقوم بتسليم تقريره؟

– لأنّه يظنّ، وأنا أيضاً؛ أنّه مُخبر .

– مخابرات؟

– هو شخصٌ ألصقوه بكم؛ كي يستغلّ صفة العامل الإنسانيّ، ويطّلع على ما يجري في هذه البلاد.

– أهناك من يستغلّ العمل الإنساني؟

– كم أنتم سُذّج يا معشر العاملين في الحقل الإنساني! بالطبع، هذا أمرٌ واردٌ جدّاً. كيف تقوم أجهزة المخابرات بإدخال عناصرها إلى هذه البلاد؟

– بإمكانهم أن يضعوهم هنا مع بقيّة قوّات الأمم المتّحدة.

– بالتأكيد هناك من هُم مزروعون مع القبّعات الزرق، لكنّ القبّعات الزرق لا يتحرّكون، أو يتحرّكون ضمن عرباتهم المدرّعة. الوحيدون الذين يجوبون البلد بحريّة، ويتحدّثون إلى الجميع، هُم أنتم .

– ما الذي يجعلك تعتقد أنّه كذلك؟

– مسيرته في الحياة؛ لقد عرّف عن نفسه بأنّه رجُلٌ مستقلٌّ سابق. يا لهذه المزحة السمجة! لو عرّف عن نفسه بصفته فاشيّاً لصدّقته، أجلْ، وإن كان يناضل مع الأناركيّين، ذلك أنّه لا بدّ من أنّه كان مزروعاً بينهم.

أحسّ أليكس أنّ حجّته لم تقنع مود.

– من ناحيةٍ أُخرى، إنْ كان يتعامل معنا بهذا الشكل، فذلك لأنّه أحسّ بأنّنا كشفنا حقيقته.

أضاف أليكس بعد أن استنزف حججه كلّها بنبرة الكلام النهائيّ الشبيهة بتلك التي كان يستعملها ليونيل ليفرض قراراته.

نظرت مود إليه بطرف عينها، وعلامات السخرية تبدو عليها.

- رائحته كريهة هذا المخبر، هذا كلّ شيء .

رفعت مود كتفيها لا مبالية، وعادت إلى القراءة، ووجد أليكس في غرفة الطعام بعضاً من العلكة، وقدم إليها واحدة.

- أمَضى وقتٌ طويلٌ على معرفتكِ بليونيل؟

رفعت عينيها عن المجلّة.

- « أعرف ليونيل » . كرّرت مود الكلام محاولةً فهم السؤال : « منذ أن انضممت إلى لاتيت دور. لقد عملت متطوّعةً لمدّة ثلاثة أشهر قبل أن أشارك في هذه القافلة. لماذا تسأل؟ » .

- هكذا، هو شخصٌ غريبٌ يخفي مشاعره، ويحاول أن يبدي قسوةً في حين أنّه في قرارة نفسه شخصٌ شاعريّ.

- ربّما .

- « هو مغرمٌ بكِ، أليس كذلك؟ » . أضاف أليكس، وهو يضحك.

- بي! ما الذي أوحى لك بذلك؟

- لقد كان يخشى أن نكون قد مارسنا الحبّ أنا وأنتِ. لقد حاول أن يستفسر بالسُّبل كافّةً عن الأمر، وكان عليّ أن أطمئنه .

أشاحت مود بنظرها؛ كانت تكره هذا النوع من الأحاديث، وقد أحسّت فجأةً بأنّها غرضٌ، ولم تكن تودّ أن تُستدْرَج إلى هكذا نقاشات، فقاطعته بجفاء.

- « هذه مشكلته » . قالت بحسمٍ، وعادت إلى قراءة مجلّتها.

أكمل أليكس مضغ علكته، بما أنّها لم تكن ترغب بالكلام، فتمدّد وأرخى رأسه على ظهر الكرسيّ، وهو يحدّق في السقف.

كانت مود تدّعي القراءة، لكنّ بالها كان في الحقيقة منشغلاً بشيءٍ آخر؛ كانت تفكّر بما قاله لها أليكس. هل ليونيل مغرم بها حقّاً؟ ممكن جدّاً، لقد وصلت في قرارة نفسها إلى الخلاصة نفسها، لكنْ من دون أن تصيغها بهذا الشكل الواضح، هذه الفرضيّة كانت تعلّل الكثير من الأشياء : في ليون، كان ليونيل يعمل في مكتبٍ ممتلئٍ بالأوراق والمعاملات، ولم يكن لديه وقت فراغٍ قطّ، على الرغم من ذلك كانت تصادفه دائماً في طريقها، لقد أخذها تحت جناحه كما اعتاد القول، ولم يكن الأمر يثير استياءها في البدء؛ لأنّها لم تكن تعرف أحداً، ولأنّ ليونيل تصرّف بلباقةٍ؛ إذْ كان يلعب دور الأخ الأكبر من دون أن يدع مجالاً لمشاعره بالظهور .

هو من أصرّ على أن تشارك في القافلة، لقد رأت في ذلك علامة صداقةٍ وثقةٍ جعلتها شاكرةً له، لكن من الممكن جدّاً في النهاية أن تكون أفكارٌ أُخرى قد دفعته إلى فعل ذلك، فإذا قبِل أن يخاطر بسهولةٍ أكبر من المتوقّع بعد أن كُشفت قصّة المتفجّرات، فمن المحتمل أنّه فعل ذلك؛ لأنّه أراد إثارة إعجابها، وألّا يخذلها، وأن يكون على مستوى التحدّي في نظرها.

إن كان مغرماً بها حقّاً، فذلك ليس بالخبر الجيّد؛ لأنّه لم تكن لها أيّة نيّة في الدخول في اللّعبة، وعليها الآن أن تناوره، وتراعي مشاعره، وربّما أن ترفضه مباشرةً إنْ صرّح لها بحبّه؛ كلّها أشياء تكرهها. إنّها القصّة القديمة نفسها، حين يظنّ الرجال أنّها فريسةٌ سهلةٌ. كانت تظنّ أنّها ستكون في مأمنٍ من ذلك في مهمّةٍ حربيّةٍ، لكنْ من الواضح أنّ القصّة نفسها تتكرّر أينما كان.

أخذ المزاج السيّئ يعتمل في فكرها، ولم تستطع صور الدبّابات الهجوميّة، ولا صور المحاربين الأجانب في الجيش الفرنسيّ، التي تملأ صفحات المجلّة؛ أن تلهيها عن هذه الأفكار السوداء، فتمدّدت هي بدورها، وحاولت أن تغفو.

كانت تصل إليها من وقتٍ إلى آخر أصواتٌ خفيفةٌ لانفجاراتٍ بعيدةٍ، فتساءلت حين استيقظت بعد برهةٍ إن كان مارك قد صرخ عندما قام الطبيب بخياطة جرح شفته، وكانت تتمنّى أن يكون الجواب : نعم، فابتسمت.

انضمّ ليونيل إليهما، وبما أنّ فوتييه ومارك كانا غائبين، ذهب الثلاثة وحْدهم لتناول العشاء في المطعم، وكانت القاعة الكبيرة ممتلئةً بعسكريّين يرتدون لباس الراحة، وبدا كأنّ العسكريّين يستفيدون أتمّ استفادةٍ من أجهزة مركز كمال الأجسام الموجودة في ممرّ

الدور الثاني الكبير، والعديد منهم، وعلى الرغم من درجات الحرارة المنخفضة؛ كانوا يرتدون قمصاناً من دون أكمامٍ، تُظهر عضلات أيديهم، وكان الرجال والنساء يختلطون على الطاولات الفرنسيّة في حين أنّ الرجال الباكستانيّين والبنغلادشيّين كانوا يتعشّون فيما بينهم، ويلاحقون كلّ فتاةٍ تدخل بعيونٍ جريئة.

كما توقّعت مود؛ كان ليونيل فخوراً جدّاً بإعلانه أنّه قد أعطى المقرّ أخباراً مطمئنةً، وأنّ كلّ شيءٍ على خير ما يرام، فرمقها حينها بنظرةٍ كان بإمكانها أن تقرأ فيها شيئاً يختلف هذه المرّة عن التحدّي، وعلى غير العادة، كان كثير الكلام في أثناء الطعام، ولم يكن قد تجرّأ على التدخين منذ وصولهم إلى مكاتب الأمم المتّحدة، فكانت عيناه تبدوان أكثر راحةً، لكنْ لا بدّ من أنّه يشعر بالرغبة بالتدخين، فقد كان مهتاجاً وراغباً بالخروج بسرعةٍ إلى المدينة.

– لقد تحدثت إلى شابٍّ من الكتيبة كان يتدرّب في الممرّ، فأفادني بوجود بار جيّدٍ على بعد مئتي متر تقدّم فيه موسيقا جيّدة، أترغبون بأن نذهب لنكتشفه؟

– « ممتاز! أنا سأذهب معك » . قال أليكس.

لم يكن ليونيل مهتمّاً برأي أليكس، فلم يُشح بنظره عن مود، وهو يبتسم ابتسامة الرجُل الواثق التي لم تكن تلائمه، فقدّم اقتراحه بالنبرة الواثقة نفسها التي كان يعطي فيها أوامره، والتي كانت تخفي – على نحوٍ سيّئٍ – تردّده وخجله، فأشفقت عليه، وخطر لها أن توافق في البدء، لكنْ انتابتها رؤية سريعة لما سوف يحصل، ففضّلت أن ترفض في الحال على أن توجد معه في مكانٍ مكتظٍّ، وتضطرّ لإهانته أمام الجميع.

– لا، من ناحيتي فأنا منهكة، وسأخلد إلى النوم.

أشاحت بنظرها عن ليونيل؛ كي لا ترى خيبة الأمل التي بدت في عينيه، فقد كان أكثر ما تخشاه أن تستحيل هذه النظرة إلى نظرةٍ ممتلئةٍ بالكراهية، ولحُسن الحظّ، وقف أليكس، وقام بسحب رفيقه.

– من الأفضل أن نذهب إلى هناك الآن حتّى لا نعود متأخّرين؛ فحظر التجوّل يبدأ عند الساعة العاشرة.

بقيت وحيدةً على الطاولة، وأمسكت رأسها بيديها لتخفّف من حدّة ضجيج الصحون، وصرخات الروّاد التي عكست الجدران المغطّاة بالسيراميك صداها، وكانت مغلوبةً على

أمرها؛ إذْ إنّها لم تتخيّل يوماً أنّها ستعيش موقفاً مشابهاً، فالعمل كان بالنسبة إليها السير على خُطى الدكتور شفايزر، والقدّيس منصور، وراؤول فولرو. كانت تتوقّع لقاء ضحايا يحتاجون إلى العون، ولقاء أشخاصٍ شجعانٍ وكريمي نفسٍ يأتون لمساعدتهم، لم تكن في الحقيقة تدري شيئاً عن ذلك، لقد كانت مقتنعةً بأنّ هؤلاء الأسلاف قد رحلوا، وأنّ ورثتهم ليسوا على السويّة نفسها من الالتزام، ومع ذلك، لا بدّ من أنّهم ما زالوا يمتلكون شيئاً من صفاتهم الحميدة.

عوضاً عن ذلك، وجدت أشخاصاً ضعفاء وخائفين يتسلّحون بالكراهية، وبأنّ هذه الحرب عبارة عن معمعةٍ من المجرمين المتشابهين في كلّ شيء، وتولّد لديها الانطباع، هي التي كانت تودّ الابتعاد عن الذكوريّة؛ بأنّ الأمر قد انتهى بها في البلد الذي تسود فيه الذكوريّة من دون منازع. لو قبِلَها زملاؤها على الأقلّ كواحدةٍ منهم! عوضاً عن ذلك، كان عليها أن تلعب دوراً في لعبة الإغراء، وأن تضطرّ إلى مراعاة مشاعر ليونيل الذي لم تكن معجبةً به، والذي لم يكن يودّ أن يستوعب ذلك، وسيقوم بالتأكيد بجعلها تدفع ثمن هذا الحُبّ من طرفٍ واحد.

لماذا كانت تشعر دائماً بأنّها وحيدةٌ في الحياة؟ منذ الطفولة، منذ الأزل. ما الجرح الذي جعلها تغدو متطلبةً ومدركةً لما تريد إلى هذا الحدّ؟ أو ربّما عمياء ومجنونة إلى هذا الحدّ؟ لقد ترعرعت في كنف عائلةٍ مترابطةٍ، أمّها المتخرّجة في كليّة الحقوق كانت تعمل في المنزل بعد أن تخلّت عن متابعة مهنة المحاماة؛ كي تربّي أطفالها؛ أمّا أبوها الخمسينيّ الأصلع، وصاحب الكرش، فكان قد اشترى مكتب كاتب بالعدل قديماً، وأحاله إلى أكثر مكاتب المدينة ازدهاراً، وأخوها الكبير تزوّج العام الفائت، وهو ينتظر الآن مولوداً، فلماذا كانت نظرتها إليهم نظرة استياء؟ لماذا لم يكن لديها أصدقاء يوماً؟ لماذا كان من الصعب عليها أن تكون امرأة؟ ولماذا لم تكن تريد أن تصبح امرأة؟

كانت نظرتها هائمةً تحاول أن تنسى الضوضاء والبشاعة التي تحيط بها، فغرقت في السوداويّة.

في ذلك المساء، خطرت على بالها هذه الأسئلة المؤلمة كلّها، وهي التي اتّخذت قاعدةً في الحياة بعدم الإكثار من التفكير في هذا، فقرّرت أن تناضل، وتغرق نفسها في العمل، لكنْ أين هي هذه النضالات والثورات؟ إلى أين قادتها خياراتها؟

كم من الوقت بقيت مكتئبةً هكذا تجترّ هذه الأفكار السوداء؟ كانت تجهل الجواب، وبدا لها في لحظةٍ ما كأنّها رأت فوتييه بصحبة رجالٍ بلباسٍ عسكريٍّ في الجانب الآخر من القاعة الكبيرة .

لكنّه كان يدير ظهره لها، فلم تعره الكثير من الانتباه، وفرغت الطاولة المجاورة بعد برهةٍ، فشعرت بأنّ الضجيج قد خفتَ بقدْرٍ كبير، ولم يعد في المطعم سوى بعض المتأخّرين الذي كانوا يتناولون الطعام وحيدين.

فجأةً! لمحت مارك من بعيد في إطار المدخل المفتوح على مصراعيه، كان يحدّق في القاعة بحثاً عن الفريق، فأشارت إليه كي ينضمّ إليها، وقامت بمسح عينيها من دون أن تلفت الانتباه، وفي حين كان يتقدّم نحوها، كانت هنالك ضمادة ناصعة البياض على الجانب الأيمن من وجهه الأسمر.

سألت نفسها لمَ أحسّت فجأةً بأنّ أساريرها قد انفرجت .

4

ذهب مارك ومود حاملين بيديهما زجاجتَيْ بيرة إلى الردهة بعد أن أُغلق المطعم، وكان ما يزال هنالك بعض الجنود مرتدين حلّةً رياضيّةً، ويتدرّبون على رفع الأوزان، لكنّ الأغلبية كانت قد عادت إلى غرفها. انبعثت رائحة العرق، والعطور الرخيصة، من هذا الممشى العريض المضاء بأضواءٍ من النيون .

كان مارك فاقداً الرغبة بالنوم أكثر من مود، فتبعته بين أجهزة كمال الأجسام حتّى بابٍ يفضي إلى الخارج. لقد تسنّى له استكشاف البناء، وكان واضحاً أنّه يعرف تمام المعرفة إلى أين يتّجه، فوقعا على درج طوارئ حديديّ يمتدّ على طول الواجهة الخلفيّة للبناء، وكان يمكن رؤية ريف الطرف الصربيّ للجيب؛ أي : المحور الذي لا يخشى المرء فيه على نفسه من القنّاصة، وأشرق القمر على التلال، مبرزاً – بضوئه المائل إلى الزرقة – الأفق الذي ترسمه قمم أشجار الغابات.

كان الدرج ملجأ الساهدين الذين كانوا يدخّنون وحيدين، أو يتسامرون ضمن مجموعاتٍ صغيرةٍ جالسين على الدرجات، فصعدا إلى الأعلى، وجلسا على الدرجة الأخيرة التي لم يكن يشغلها أحد. نادراً ما كان مارك يدخّن، لكن كانت لديه علبة لفائف تبغ قديمة في جيبه، فقدّم لفافة تبغٍ إلى مود.

– « أتؤلمك القطب كثيراً؟ » . سألت مود.

– إنّي على ما يرام.

– على فكرة، لقد رأيت فوتيه، أظنّ أنّه كان برفقة عسكريّين.

– لا بدّ من أنّه قد وجد رفاقاً له من المخابرات يتسكّع معهم في المدينة .

– أظنّ أنّه بإمكاننا تركه هنا، أليس كذلك؟

– لا أعتقد بأنّه سيرضى.

– ألا تخشى أن يسبّب لك مشكلات؟

- ليس ذلك في مصلحته؛ فإنْ كان في مهمّةٍ كما أعتقد، أظنّ أنّه سيحتمل إلى حين انتهائها.

لم تستطع سوى رؤية علامة الضمادة البيضاء على وجه مارك بسبب الظلام، كان ذلك يضفي عليه صبغة أكثر إنسانيّةً، وأكثر ضعفاً، كما لو أنّ الجرح كان قد توسّع وشرخ الدرع الذي يخفي خلفه حقيقته كإنسان.

أحسّت مود برهبةٍ أقلّ من قبل.

- لماذا اخترت أن تصبح عسكريّاً؟

كان بإمكانها أيضاً أن تسأل : لمَ تركت الجيش؟ فالشيئان كانا يبدوان لها غامضين بالمقدار نفسه.

- لم أخترْ، حصل الأمر هكذا.

لم يكن هنالك أيّ تردّدٍ في صوته. قالت في سرّها : إنّ بإمكانها أن تسأل أسئلةً أُخرى.

- لم يُجبرك أحدٌ على الالتحاق بكلّ الأحوال، أليس كذلك؟

- عندما كنت في الخدمة، كنت أحمل على البدلة إشارةً هي عبارة عن دبّوسٍ مدوّرٍ يستطيع من خلاله الآخرون أن يعرفوا مَن الشخص الذي أمامهم. صحيحٌ أنّني لم أعد ألبسه، وبكلّ الأحوال، فالمدنيّون ليس لهم في هذه الأمور.

- ماذا كانت تلك الإشارة؟

- أولاد المجموعة؛ أنا عسكريٌّ منذ أن كنت في الخامسة من عمري.

كانت غمامة الدخان التي تخرج من فمه ترتسم على خلفيّةٍ من سماءٍ كحليّة اللّون يضيئُها القمر، فأحسّت مود بأنّه كان يضحك بصمت.

- كان أبي عضواً في الفيلق الأجنبيّ، تعود أصوله إلى هذه المنطقة على ما يبدو. لم ألتقِ به قطّ، وأظنّه كان هنغاريّاً من (فويفودين) في شمال (صربيا) ، وجاء إلى (فرنسا) لمّا كان عمره عشرين عاماً، والتحق بالفيلق الأجنبي.

- وأمّك؟

– التقاها في لبنان حين كان يخدم في الفينول.

– أهي لبنانيّة؟

– فلسطينيّة وُلدت في مخيّمٍ للّاجئين، وهي البنت الثالثة من خمس بنات كان أبوهنّ شديد الصرامة معهنّ. تركت أمّي المخيّم في أحد الأيّام من أجل رجُلٍ، فتبرّأت عائلتها منها.

– هل تعرفها؟

– بالكاد. إنّها قصّةٌ طريفةٌ حقّاً. لم أعرف قطّ ما الذي كانت تفعله حين التقت بوالدي، لكنّني أعتقد أنّه لم يكن الرجُل الوحيد الذي كانت تعرفه، أتفهمين قصدي؟ بكلّ حال، لمّا وُلدتُ كان والدي قد غادر مع وحدته.

– أوُلدت في (بيروت) ؟

– في (صور) ، لكنّني لم أعِش هناك سوى أربع سنوات.

– هل عاد أبوك ليبحث عنك؟

– لا، لقد توفّي في (تشاد) خلال إحدى العمليّات.

– وكيف انتهى الأمر بك ضمن أطفال الفرقة؟

– الفضل يعود إلى أمّي؛ كانت امرأةً بسيطةً، لكنْ واسعة الحيلة، حالها في ذلك كحال كلّ شخصٍ لا يملك شيئاً، أو أحداً يحتمي به، فمنذ أن خرجت من قسم التوليد، ذهبت لترى قائد الفينول، وهي تحملني على ذراعيها، كانت تعطيهم اسم والدي، لكنّها لم تحصل على جوابٍ على الرغم من أنّها كانت تذهب إلى القيادة العامّة كلّ يوم، وهدّدتهم بأن تخبر قصّتها للصحافة، بأن ترسل رسالةً إلى الأمين العام للأمم المتّحدة إنْ لم يعترف الأب بابنه.

نهض الجنود الذين كانوا يتحدّثون على العتبة السفلى للذهاب للنوم؛ وقد أصبحا الآن وحدهما على الدرج، وكان الريف هادئاً عدا نباح بعض الكلاب المتبادل في البعيد.

– في أحد الأيّام، أخبروها أنّ والدي قد مات. لم يثبط من عزيمتها ذلك الأمر، وقالت : إنّه يتوجّب على فرنسا في هذه الحال الاعتراف بي.

– ونجحت في ذلك؟

– أظنّ أنّها نجحت في إيجاد الحجج المناسبة، وكان العسكريّون يخافون الفضيحة .

– قيل لي أيضاً : إنّها كانت قريبةً من ضابطٍ فرنسيٍّ في تلك المرحلة، ربّما كان قد ساعدها. على أيّ حال، قُبِلْتُ يتيمَ حربٍ، وأُرسِلْتُ إلى ملجأ عسكريٍّ في شمال (فرنسا) .

كانت نظرة مارك، وهو يتكلّم، هائمةً نحو القمم التي تغيب عنها الشمس. توقّف فجأةً عن الكلام، وأدار رأسه نحو مود .

– لماذا جعلتني أحدّثكِ بهذا كلّه؟ أيهمّكِ أن تعرفي؟

– أحبّ أن أعرف، هذا ما في الأمر كلّه .

أحسّت مود بالإحراج كما لو أنّه قُبض عليها متلبّسةً، فصارت تسعل قليلاً من جرّاء دخان لفافة تبغها، ولم تكن تريد البتّة أن يقوم هو باستجوابها بدوره، فالحياة العاديّة التي تعيشها عائلتها، ونوبات الثورة على حياتها التي عاشتها أيّام المراهقة، بدت لها سخيفةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لكنّ مارك لم يبادر بالسؤال، وعمَّ الصمت .

هناك شيءٌ ما في شخصيّة مارك يدفع الآخر إلى احترامه، شيءٌ من الوقار الذي باتت مود تعرف الآن مردّه. كانت تفكّر بالمُصفّحة المُصنّعة محليّاً، التي صادفوها في الجادّة في الصباح، مارك كان يشبهها : لقد رُكّبت صفائح معدنيّة على محيطه، لكنْ ماذا يوجد في الداخل؟ لقد كان قادراً على العراك في الطين، وكان من الممكن رؤية ذهوله حين صَحِبَه الطبيب الملتحي ليخيط جرحه .

– لمَ أنت عائدٌ إلى هناك؟ قل لي .

– إلى أين؟ (كاكاني) ؟

– نعم.

فكّر طويلاً، وبدا لمود أنّه متردّد .

– « كي أرافق أليكس » . قال أخيراً .

كانت نبرته تدلّ على أنّه لا يقول الحقيقة، لكنّها لم تجرؤ على أن تقول له ذلك مباشرةً، بل راحت تبحث عن طريقةٍ أُخرى .

- تركت الجيش بعد عودتك من المهمّة أم في أثنائها؟

- استقلتُ عندما كنت في (كاكاني) .

- أتريد أن تقول لي لماذا أم تفضّل عدم القول؟

- إنّه أمرٌ يطول شرحه؛ سنتكلّم على ذلك مرّةً أُخرى، علينا الاستيقاظ باكراً غداً صباحاً . تعرفين أنّ العسكريّين مشهورون بالاستيقاظ باكراً عند الفجر حتّى إنْ لم يكن لديهم شيء ليفعلوه .

انتصب مارك واقفاً ببطءٍ، وهو ينفض رجليه اللّتين اعتمل فيهما الخدَر، وكان ينتظر أن تقف هي بدورها كي يبدأ نزول الدرج الذي أخذ يهتزّ تحت وقع أقدامهما . كانت مود تنزل الدرج خلف مارك، فبدَت كما لو أنّها بالارتفاع نفسه، ولو كانت مع رجُلٍ آخر كانت ستحتفظ بمسافةٍ كافيةٍ تمنع أيّة حركةٍ غير لائقة، إلّا أنّها تقدّمت بكلّ ثقةٍ مع مارك . أخطأ الدور، وفي لحظة الارتباك تلك اصطدم الاثنان ببعضهما، إلّا أنّ مارك قام بالاعتذار، ولم يحاول أن يستغلّ الموقف لأغراضٍ دنيئة، فكانت شاكرةً له على ذلك .

لكنّها مع ذلك شعرت بوحدةٍ موحشةٍ حين أغلقت باب غرفتها الفارغة على نفسها .

***

في صباح اليوم التالي، هطل مطرٌ خفيفٌ ومتواصلٌ على المدينة، والغيوم السوداء كانت بالكاد تسمح للضوء بالنفاذ، فهدّأ هذا الطقس السيّئ من حماسة المتحاربين، وكان لا يُسمع صوت في الطرقات سوى ذلك الذي يصدره خرير المياه في قنوات التصريف المثقوبة، وكان الجنود الخارجون من المركز الرئيس يلبسون معاطفَ مطريّةً ضيّقةً بنيّة اللّون تغطّيهم من الرأس حتّى القدمين، وبدت رؤوسهم كبيرةً مع الخوذ الزرقاء التي يعتمرونها كما لو كانوا فطوراً سامّةً تثير الضحك .

اصطفّت القافلة في الطريق، وراح أليكس ومارك يتفقّدان إن كانت الشوادر التي تلمع من الماء مُحكمة الإغلاق، وكان شعرهما مبتلاً بالمطر؛ فمعاطف النايلون غير المزوّدة بقبّعاتٍ لم تحمهم منه جيّداً، وكان الكلّ جاهزاً عدا فوتييه الذي لم يره أحد منذ مساء البارحة.

- « فلْنتركه هنا، ما من مشكلة » . قال أليكس .

قام بوضع يده المبتلّة على زجاج النافذة المفتوحة حتّى المنتصف، وأخذ يتكلّم مع ليونيل الذي كان يستند إلى المقود بيديه المتقاطعتين.

- إنْ أراد أن يبقى فليبقَ، لكنْ لا يمكننا الذهاب من دون أن نخبره .

- لن أذهب لأبحث عنه في كلّ مكانٍ لكي أرجوه أن يكلّمنا .

- ليس لكي ترجوه، بل لتسأله ما الذي ينوي فعله، إنْ وجدته ستوفّر علينا وقتاً كبيراً .

أطلق أليكس شتيمةً، وتوجّه نحو أكياس الرمل التي تحيط بالمدخل، وفي اللحظة نفسها خرج فوتييه وكادا يصطدمان بالقرب من الحرس .

- ماذا تفعل؟ الجميع ينتظرك .

كان الميكانيكيّ يلبس سترةً كنديّةً لم يره أحدٌ فيها من قبل، كما أنّه حلق ذقنه، فبدت شفتاه أرفع ممّا كانتا عليه عادةً، وخلّف العراك كدمةً زرقاء على صدغه، أخفاها بمرهمٍ إلى درجةٍ أصبح من الصعب ملاحظتها. حين دخل الشاحنة، فاحت منه رائحة عطرٍ برائحة النعناع القويّة، وعبقت في القمرة، فلمْ يُعجب ليونيل الأمر .

- لو تأخّرت أكثر لكنّا غادرنا من دونك.

كان أليكس كمن يتعارك مع ثيابه المبتلّة، وهو يحاول نزعها عن جسده .

- « هذا ليس خطأي؛ لقد وصلت منذ ساعةٍ تقريباً » . قال فوتييه الذي عاد واحتلّ المقعد الخلفي .

لوّح ليونيل بيده خارج النافذة معطياً مارك الذي كان يقود الشاحنة الثانية إشارة الانطلاق، ثمّ قام بتعشيق السرعة الأولى .

- « أما زلت تستمع إلى القصص المحليّة؟ » . قال ليونيل بتهكُّمٍ، وهو ينظر إلى فوتييه في المرآة .

- لقد كنت مع عاهرتين .

ضحك بسُخريةٍ، وهو يرى اضطراب محدّثيه وتابع على المنوال نفسه .

- بكلّ صراحة، أرى أنّ عليكما أن تجرّبا . فتاتان جميلتان، وشابّتان مفعمتان بالحيويّة، ويمكنني القول : حتّى إنّهما كانتا تتضوّران جوعاً إلى الجنس .

- « أغلق فمك! » . زمجر أليكس .

- صدّقاني، هذا يريح بمقدارٍ لا تتصوّرانه قياساً بالعفّة التي أنتما عليها .

- اِخرس!

كان ليونيل هو الذي صرخ هذه المرّة بعد أن خرج عن طوره إلى درجة أنّ فوتييه كفّ عن الكلام وتراجع عائداً إلى سريره .

ببضع كلماتٍ قام بتسميم الجوّ والحديث .

قطعوا المدينة بصمتٍ، وما هي إلّا دقائق حتّى سمعوا شخيراً خشناً يتعالى من المقعد الخلفيّ .

كان النهر بمنزلة الحدود الفاصلة بين القطاعين : الصربيّ، والإسلامي، وفي السابق كان هناك جسران على النهر، لكنّ الجسر الموجود وسط المدينة دُمّر في العام السابق، والجسر الوحيد المتبقّي هو ذلك الجسر الحديث ذو الهيكل الحديديّ المستند إلى دعامتين من الخرسانة، وهو موجودٌ على أطراف المدينة الشرقيّة، حيث نصب على كلٍّ من طرفيه حاجزٌ . الجسر بحدّ ذاته كان عبارة عن أرضٍ مهجورةٍ تخضع لتهديد المدافع الرشّاشة باستمرار، ولم يكن مسموحاً لأحدٍ باجتيازه سوى قوافل الأمم المتّحدة، والعاملين في الحقل الإنسانيّ .

كان الجوّ ما يزال ماطراً، والماء الذي ينساب على أغطية رأس الجنود الصرب، ويبلّل بِدلهم زاد من عصبيّتهم . كانوا يتحقّقون من الوثائق بتأفّفٍ، ويُدخلون الشاحنات إلى الممرّ على مدخل الجسر، وكان يجري العبور مشياً على الأقدام فقط، ومن غير المسموح أن يبقى في قمرة الشاحنة سوى سائقها .

نسوا خلال هذه المرحلة المريحة وشبه الرسميّة ما كانت تحفل به جعبتهم، لكنّهم الآن عادوا وتذكّروا الخطر المُحدق بهم بعد أن اصطفّوا خلف العارضة الحديديّة، ينصتون إلى صمت هذا الحاجز حيث احتماليّة حدوث المشكلات كبيرة وسط هؤلاء الجنود الصامتين والمتأهّبين، حسب ما قيل لهم. رفعت العارضة الحديديّة وهي تصرّ، وأدار ليونيل ومارك المحرّكات، وكان على زملائهم الثلاثة الراجلين أن يتقدّموا أمام الشاحنات حتّى لا يكون باستطاعة الشاحنات أن تسير بسرعةٍ تفوق سرعتهم، وكان من الممنوع عليهم أن يعتمروا قبّعات، أو أيّ شيء من شأنه إخفاء وجوههم، وتابع المطر هطوله من دون انقطاع، شديداً وأكثر برودةً على هذا الجسر الذي يلفحه الهواء المتجمّد المحاذي للنهر، فباشروا بالتقدّم عند إعطائهم الإشارة .

أحسّت مود بشعرها يلتصق بجبهتها، وامتلأت رموشها بالماء، وقبض أليكس على قبّة ردائه، وهو يرتجف برداً، وحْده فوتييه بسترته الثخينة، ورأسه الأصلع اللمّاع، كان يظهر بضحكته الخبيثة مرتاحاً كما لو أنّ المطر يرتدّ عنه، وكانت الأرصفة الجانبيّة منزوعة الكساء، لا بدّ من أنّ ذلك كان من أجل استعمال الصفائح الحديديّة الثخينة لأغراض التصفيح، وفُرشت الأرض بأنواع حطامٍ مختلفة خلّفتها المعارك، فاستطاعوا التعرّف إلى خوذةٍ متضرّرةٍ، وأشلاء بدلةٍ عسكريّة، وهذا الجسر الذي يبدو قصيراً من فوق الضفّة، بدا لهم طويلاً جدّاً، وهُم يجتازونه مشياً على الأقدام.

كانوا يرون على الطرف الآخر معالم كتلة الحاجز البوسنيّ الرماديّة، ولم يكن بالإمكان تمييز أيّ رأسٍ، أو جسد، ولا بدّ من أنّ القائمين عليه متمترسون يراقبونهم .

ما كادوا يقطعون النصف الأوّل من الجسر حتّى توقّفت الشاحنة الأولى، فنظام تعشيقها التعِب استُعمِلَ كثيراً، وهُم يتقدّمون بهذا البطء، فتوقّفوا متحاشين الالتفات إلى الوراء، وحاول ليونيل بعصبيّةٍ إعادة تشغيل المحرّك، لكنّ المحرّك الساخن كان يرفض أن يتابع المسير، فطال الانتظار، وبدا لهم أنّ أطيافاً بدأت تتحرّك خلف الحاجز .

لم يستطيعوا إعادة تشغيل المحرّك، فتبادل أليكس ومود نظراتٍ قلقة، وفي لحظةٍ ما، قامت الشاحنة بعدّة قفزاتٍ قبل أن تشخر وتنطلق إلى الأمام بحركةٍ فاجأتهم. لامسهم ممتصّ الصدمات، فاستداروا جميعاً إلى الوراء، وسمعوا خلفهم – على الطرف الآخر من الجسر – صوت تلقيم سلاح .

شعرت مود بالفزع لوهلة، وكاد يكون ردّ فعلها الركض، أو الصراخ، لو لم يمسك أليكس يدها لتضبط نفسها. إنْ كان لا بدّ من الهرب، فسيكون في الأحلام، فركّزت نظرها على مصباحٍ معوجٍّ معلّقٍ في الهواء فوق النهر، فأتتها ذكرى حدثٍ قديم. لم تكن تبلغ من العمر سوى ستّة أعوامٍ عندما قامت بتسلّق أحد المنحدرات في الصيف خلال نزهةٍ في الجبل. لقد بدأت بخطوةٍ، ثم اثنتين؛ لتصل إلى خمسين خطوة، فوجدت نفسها أخيراً في الأعلى من دون أيّة طريقةٍ للنزول. لقد كانت تشعر بالفزع من الفراغ، وكان بوسعها رؤية أبويها في الأسفل، وهُما يصرخان، فانتابتها الرغبة بالركض نحوهما، والارتماء في أحضانهما، إلّا أنّهما اضطرّا إلى طلب النجدة كي تستطيع النزول، فنامت تلك اللّيلة في حضن أمّها، هي التي كانت ترغب دوماً بألّا يمسّها أحد؛ تلك القصّة تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ قصّة الغطس، لكنّها لم تفكّر فيها على الإطلاق، فتساءلت فجأةً إن كان الجواب عن تساؤلاتها كلّها يُختصر بالآتي: الخطر بالنسبة إليها هو الوسيلة الوحيدة التي تحطّم المعوّقات كلّها التي تقف بينها وبين الحُبّ.

أخيراً، شخر المحرّك قليلاً، ثمّ أقلع من جديد، فتركوه يستعيد نظام دورانه الطبيعيّ قبل أن يعاودوا المسير، فأدركت مود عندها أنّ فوتييه كان قد فارق المجموعة، وكان قد تقدّم ببطءٍ وحيداً، ويداه مرفوعتان نحو الحاجز البوسنيّ، وراح يشرح لهم ما حصل معهم، وحين وصلوا بالقرب منه كان يوزّع لفائف التبغ عليهم.

فُتِّشَتْ الشاحنتان وجرى التحقق من الأوراق بسرعة، من الواضح أنّ أكثر ما كان يخشاه أفراد الميليشيا في ذلك الحاجز هو عمليّات التفجير، ففتّشوا بدقّة أسفل هيكل الشاحنتين وقمرات القيادة، وبدوا مرتاحين حين رأوا أنّ الحمولة تتألّف من كراتين مصفوفة بعضها فوق بعض، فأخرجوا ثلاثة منها من دون أن يفتحوها كي يتأكّدوا من أنّه ما من شيءٍ قد أُخفيَ خلفها، وحين علموا أنّ القافلة فرنسيّةٌ نادوا أحدهم، وماهي إلّا لحظات حتّى انضمّ إليهم رجُلٌ قصيرٌ يلبس لباساً رياضيّاً أزرق، وكان يلبس حزاماً ضخماً حول بطنه تصطفّ عليه رصاصاتٌ من النحاس، ومسدّسان على كلّ طرف، تصل سبطانتهما إلى منتصف الفخذ.

- أنتم فرنسيّون؟

- « نعم يا سيّد». أجاب فوتييه: « ما من إنسانٍ كامل».

- باريس؟

– « ليون » . أجاب ليونيل .

– ليون، تهانينا! لديكم فريق كرة قدم عظيم. كنّا نلتقيهم كلّ سنة، وكنّا كلّ مرّةٍ نخسر اثنين مقابل صفر .

كان لاعبَ كرة قدمٍ محترفاً سابقاً، لعب في فريق « لانز » طوال مسيرته الرياضيّة، فدعاهم لاحتساء قهوةٍ تركيّةٍ في ملجأ صغيرٍ على مقربةٍ من هناك، فجلسوا على مقاعد تحت شادر من النايلون المشمّع المثبّت على قضبان معدنيّة .

لم يكن لديهم متّسعٌ من الوقت، فما يزال أمامهم طريقٌ طويلٌ ليقطعوه، لا سيّما أنّ المسافة التي قطعوها البارحة كانت قصيرةً جدّاً، ولكنّ الرجُل كان يرغب بالكلام، وظنّوا أنّ بإمكانهم أن يعرفوا منه بعض المعلومات المهمّة .

– زوجتي وأولادي ما زالوا يقيمون في فرنسا؛ أمّا أنا، فقد عدت في بداية الحرب كي أقاتل. لقد كنّا في الواقع ثلاثة يوغسلافيّين، كما كنّا نُسمّى في ذلك الوقت، نلعب لصالح نادي « لانز » ، وجميعنا من هنا. الاثنان الآخران قُتلا .

– « كيف الوضع في الوقت الراهن؟ » . سأل ليونيل .

– الحرب حامية الوطيس هنا منذ البداية؛ فنحن نواجه الجيش الصربيّ مباشرة .

– وما حال البوسنة الوسطى حيث نتجّه؟

– الوضع دائم التغيّر هناك. نظريّاً : الأمور يجب أن تكون هادئةً على افتراض أنّنا أصبحنا والكرواتيّين حلفاء الآن، لكنْ في الواقع، مع الأسف، حكاية هذا الاتّحاد الكرواتيّ الإسلاميّ كلّها قد اختُرعت في سراييفو لذرّ الرماد في العيون. صحيحٌ أنّه لم يعد هنالك من هجمات ضخمة متبادلة، إلّا أنّ الهجمات الصغيرة ما زالت قائمةً يوميّاً، خاصّةً في الّليل .

– هل هي اشتباكات بين الكرواتيّين والمسلمين؟

– لا يمكنني القول، لا سيّما أنّ هنالك ميليشيات صربيّة تتسلّل في كلّ مكانٍ، وترتكب المجازر كي توحي بأنّ الآخرين هُم من ارتكبوها .

– وما مصلحتهم في ذلك؟

رفع لاعب كرة القدم كتفيه. لقد كان يعرف الفرنسيّين كفايةً ليدرك أنّهم لا يفهمون شيئاً من هذه الحرب، وأنّ عليه أن يشرح لهم كلّ شيءٍ كالأطفال .

– هدفهم ألّا يتّفق الآخرون فيما بينهم، فيتّحدوا في مجابهة الجيش الصربيّ، كما أنّ قتل الناس، خاصّةً المسلمين؛ يُعدّ واجباً بالنسبة إليهم، وللأمر أيضاً جانب متعلّق بالأعمال والربح؛ فهُم لا يغادرون المكان خالي الوفاض .

– « الطريق آمن على الأقلّ؟ » . ألحّ ليونيل .

– حسب الوقت. لا يمرّ ناسٌ كثر من هذا المكان. على كلّ حال، مرّ عليّ أسبوعان لم أرَ فيهما قافلةً مدنيّةً تجتاز الجسر، والمرّة الأخيرة كانت قافلة إنجليزيّة تابعة لـ « أوكسفام » . إنْ كانت لديك خريطة للطرقات يمكنني أن أريك المناطق التي يمكن أن تندلع فيها اشتباكات .

ذهب ليونيل إلى الشاحنة وعاد بالخريطة.

دلّهم لاعب كرة القدم على نحوٍ تقريبيٍّ على أماكن وجود الحواجز المقبلة، وحدود الجيوب التي سيمرّون بها .

سألوه من أين يمكنهم أن يحصلوا على مؤونة .

– هنا أيضاً يمكنكم أن تحصلوا على ما تريدونه كلّه. تعالوا! سأوصلكم إلى مخزنٍ يديره أحد أبناء عمومتي .

بدأت استراحتهم بالقهوة التركيّة، وانتهت بمخزنٍ للفواكه والخضار، مروراً بقنّ دجاجٍ وُضع في كراجٍ، وإسطبلٍ يبيع فيه مزارعٌ عجوزٌ الحليبَ والجبنة البيضاء. كانت الساعة الحادية عشرة تقريباً حين استطاعوا أخيراً معاودة السير .

الضفّة المسلمة من المدينة تتكوّن من ضواحي منازل فرديّة، ومن مناطق صناعيّة تعرّضت لأضرارٍ جسيمة. عادوا مجدّداً إلى الريف، وكان المطر قد توقّف بعد أن أغرقت المياه المكان، فقد كانت في الأخاديد، وفي الحفر، وبدا الطريق أشبه بنهرٍ تشكّلت فوقه جُزرٌ من الصلصال، فتوقّفوا وقت الغداء في أجمةٍ، وتناولوا طعامهم واقفين، وهُم يخوضون في وحلٍ مكسوٍّ بأوراقٍ فضيّة اللّون.

قافلةٌ تابعةٌ للأمم المتّحدة تجاوزتهم في أحد المنحدرات، وكانت تسير بسرعةٍ شديدةٍ أثارت خلفها كتلاً من الطين، إلى درجة أنّهم اضطرّوا إلى التوقّف كي ينظّفوا الزجاج الأماميّ منه .

العديد من المنازل المهجورة والمشوّهة من جرّاء حرائق، أو قذائف كانت تشهد على عنف المعارك التي حصلت في هذه المنطقة، في حين بدت قرى أُخرى سليمةً وعامرة. يمكن تسمية هذه الحرب بالظاهرة الماورائيّة؛ إذْ لم يكن بالإمكان رؤية أيّ أثرٍ للميليشيات، أو المعدّات العسكريّة، كما لو أنّ الدمار الواضح للعيان هنا وهناك قد نزل من السماء كما الصاعقة، وبدت الكارثة كأنّها تمّت برغبةٍ إلهيّةٍ لا دخل للبشر فيها. مع ذلك، فالأضرار كانت حديثةً، وغياب المتقاتلين عن الساحة أوحى بأنّ الحرب انتهت، وفي الحقيقة كان ذلك يشير إلى أنّ الخطر مختبئٌ في هذه الحرب، ومختفٍ في الغابات المعتمة التي تحيط بالقرى، ومتربّصٌ في قعر الوديان، وثنيات الجبال؛ حيث بإمكانه أن يخرج في أيّة لحظةٍ ويضرب .

5

تناوب مارك ومود على القيادة من دون أن يتحدّثا في شيء؛ فنقاش البارحة أدّى إلى شيءٍ من الانزعاج بينهما، وكانت مود تتساءل إن كان زميلها قد ندم على ما سرّ به لها، فراقبته من دون أن ينتبه، وبدت نظراته قاسيةً ومتأهّبةً، كان متوتّراً ومترقّباً، لقد عاد إلى طبيعته في نهاية الأمر. قالت مود في سرّها : إنّه ما من شكٍ في عدم قدرته على التخلّص من نير الانضباط العسكريّ إلّا في لحظاتٍ نادرةٍ كما في اللّيلة الفائتة، وكان ذلك محبطاً قليلاً، فقد خُيّل إليها أنّها تستحقّ ثقته، وفي الوقت نفسه، لم ترغب بأن يستغلّ انسجامهما الوجيز كي يتجاوز قواعد اللّياقة معها، فآثرت الصمت ومشاهدة المناظر الطبيعيّة كونها كانت حائرةً بين هذه المشاعر المتضاربة .

مع الأسف، كان المنظر مشوّهاً بالأبنية، المنظر الحزين ذاته يتكرّر منذ أن غادروا إيطاليا قبل أسبوعين. الطبيعة جميلةٌ في المناطق التي لم تصل إليها يد الإنسان، لكنْ ما بناه البشر كلّه بدا كأنّه دُمغ بختم القبح. المشهد الجائر ذاته يوماً بعد يوم : بيوت من قرميد، أو من طوب، يعتليها السقف الهرميّ ذاته.

الأزليّة المبنيّة كأكواخٍ رخيصةٍ، والوجوه القاسية؛ تلك التقاسيم كلّها تعزف على وتر الارتياب والقذارة نفسه .

المرّة الوحيدة التي أحسّت فيها مود بالارتياح كانت في حمّام مركز الأمم المتّحدة، وهي ترى القذارة تزول، وهي تمشّط شعرها الرطب الذي استعاد ليونته، إلّا أنّها الآن لم تعد متأكّدةً من أنّ المعجزة نفسها يمكن أن تتكرّر، فانتهى بها الأمر بالقول في قرارة نفسها : إنّ هذه الرماديّة كلّها، وهذا الوحل والعنف كلّه، سيلتصق بجسدها أشدّ التصاقٍ إلى درجة أنّها لن تأمل أن تتحرّر منه أبداً، فنظرت إلى نفسها في المرآة المثبّتة على الشمسيّة من دون أن تلفت الانتباه إليها، ووجدت أنّها قد شاخت، وقد هرمت. لطالما كانت تحاول أن تكون طبيعيّةً، لقد كان ذلك بمنزلة شكلٍ ضروريٍّ من أشكال الصدق بالنسبة إليها، لكنّها أحسّت في تلك اللّحظة أنّها ترغب برسم ألوانٍ على وجهها، وأن

تضع أحمر شفاهٍ لمّاعاً، وأحسّت بالرغبة بأن تسأل مارك عن رأيه فيها، إلّا أنّها أحسّت حالاً بسخافة ذلك، فأغلقت المرآة بحركةٍ سريعة .

جفل مارك. نظر إليها وابتسم .

- هل تجدين الوقت يمرّ ببطء؟

- لا، أنا في حالٍ جيّد .

- أتريدين القيادة؟

- بعد قليل .

- المفزع في هذه البلاد أنّها بشعة .

نظرت إليه بتعجّب. أخَمّن ما كانت تفكّر فيه، أم كان يشاركها إيّاه؟

- هل هي أجمل في الصيف؟

- بالكاد. على أيّ حال، المناظر حزينةٌ دائماً في هذه الجبال .

كانوا يمرّون ضمن قريةٍ أسفل جدران منازلها ملطّخٌ بطينٍ رماديٍّ، بينما أذرع عربات التبن في أفنيتها تغوص في الطين .

- الشيء الوحيد الذي يضفي لوناً على المشهد هو الدم .

نظرت مود إلى وجه مارك بذهول؛ لم يكن يُظهر أيّ انفعالٍ، ولم يكن يبتسم. كيف استطاع أن يقول هذه الجملة؟ وما المعنى الذي ينشده من ورائها؟ أقال ذلك تحسّراً على البلاد أم ذلك ما كان يجذبه إليها؟

الدم... لقد فكّرت في زمنٍ ماضٍ أن تصبح طبيبةً، ولكنّ فكرة أنّها سوف ترى الكثير من الدم هي ما جعلتها تعدل عن ذلك، فالدم يثير رعبها، لكنْ مع ذلك، أليس مشهد الرعب هذا هو ما كانت تبحث عنه عندما قرّرت المجيء إلى هنا؟ أليس الدم ما يتشاركونه كلّهم : العسكريّون، والضحايا، والعاملون في الحقل الإنسانيّ؟ لقد كانت جدّ مضطّربة .

لم يبدُ لها يوماً أنّ تموضع الحاجز كان أمثل من ذلك الذي كان عليهم التوقّف عنده بعد برهة، لقد شعرت بالراحة لقدرتها على الخروج من الشاحنة والتنفّس، لكنّها

حين خرجت، لحظت أنّ الهواء المتجمّد يحمل رائحة خشبٍ محروقٍ، فأمعنت النظر في محيط المكان، كان يمكن رؤية هيكل البيت الخشبيّ المتفحّم من خلف الأجمة، وشعرت أنّ الدخان ما زال يتصاعد من المنزل، وأنّ أفراد الميليشيا غاضبون .

كانوا عبارة عن مزارعين، لهم جميعاً في منتصف وجوههم الشارب الأسْود نفسه، ويعتمرون القبّعة نفسها، المصنوعة من صوف الخراف، فأعطى هؤلاء الانطباع بأنّهم أولاد عمّ، وربّما كانوا كذلك بالفعل .

رأت مود من بعيد ليونيل وأليكس يتفاوضان معهم. لا بدّ من أنّهم لا يستطيعون أن يفهموا بعضهم، وكان أحد البوسنيّين ذا وجهٍ متغضّنٍ أكثر من الآخرين، يلبس معطفاً طويلاً، ويقوم بحركاتٍ كثيرةٍ مشيراً إلى الطريق، ولم تكن هيئته مخيفةً، بل بدا عليه أنّه خائف، فاقتربت .

– ما الذي يحدث؟

– « لا نعرف بدقّة » . أجاب أليكس : « يبدو أنّهم يحاولون أن يقولوا لنا : إنّ هنالك مشكلة على مسافةٍ قريبةٍ من هنا » .

– هل سيسمحون لنا بمتابعة الطريق مع ذلك؟

– هذا ما لم نستطع فهمه .

التفت ليونيل قائلاً :

– أصبح بإمكاننا المتابعة .

كان المزارعون يتحدّثون فيما بينهم الآن. بعضهم كان يبدو غير متّفقٍ مع العجوز القصير الذي أعطاهم التصريح بالمرور، وكان يشرح موقفه بخطابٍ طويلٍ اختتمه بالبصاق على الأرض .

كان من الأفضل المتابعة قبل أن يغيّروا رأيهم نتيجة الخلاف فيما بينهم، فصعد ليونيل بسرعةٍ إلى الشاحنة، وأشار إلى الآخرين بالانطلاق في الحال. القرية التي مرّوا بها كانت مهجورةً، وكان لهيب النيران القصير والمائل إلى اللّون الزهريّ لاختلاطه بحبّات المطر يخرج من نوافذ منزلين، في حين وجدوا باب أحدهما المخلوع يرقد على الأرض، وهذا كلّه حدث على بعد عشرات الأمتار من أفراد الميليشيا الذين أوقفوهم.

أدركوا الآن أنّه لم يكن حاجزاً، خاصّةً مع عدم وجود طريقٍ متعرّجٍ، أو عارضةٍ حديديّة. لا بدّ من أنّهم صادفوا مجموعةً من القرويّين المسلّحين الذين خرجوا من أحراجهم كردّ فعلٍ على هجومٍ ما، إنْ لم يكونوا هم من يقومون بالهجوم، لا أحد يعلم على وجه الدقّة. لقد كانت المزرعة فارغةً على أيّ حال، وراحوا يتساءلون أين ذهب سكّانها؟ هل نجحوا في الوصول إلى ملجأ أم كانوا مختبئين في المنازل؟ مجموعة من الكلاب الشاردة كانت تجوب الشوارع الطينيّة في الاتّجاهات كافّةً، وتشمّ أسفل الأبواب .

أحد الأبنية، كان ذا شكلٍ مختلفٍ عن الآخرين؛ إذْ ينتصب بجانبه برجٌ دائريٌّ ينتهي بسقفٍ مدبّبٍ يعتليه هلالٌ أخضر من المعدن. هذا إذاً مسجد القرية، ميزّوا في واجهته ثقباً ضخماً، وكان من الممكن رؤية داخله المحترق كليّاً عبر أبوابه الكبيرة المفتوحة. لا بدّ من أنّ الحريق توقّف لعدم وجود أثاثٍ داخله .

تابعوا طريقهم من دون إبطاءٍ ليجدوا أنفسهم في الريف من جديد، وسط المراعي والأجمات، والطبيعة تبدو غير عابئةٍ بالمآسي التي تصيب الإنسان، لكنّها كانت طبيعةً حزينةً تحمل التعاسة في داخلها .

على بعد أقلّ من كيلومترٍ واحد، أوقفوا من قِبل عسكريّين هذه المرّة، فأدركوا لدى اقترابهم أنّهم ينتمون إلى القبّعات الزرق، وعلى بعد عدّة أمتارٍ من الرجال الذين يقطعون الطريق توقّفت قافلة الأمم المتّحدة التي كانت قد تجاوزتهم بسرعة. أبواب المصفّحات الخلفيّة مفتوحة، وكان بالإمكان رؤية بضعة جنودٍ مصطفّين على المقعد في الداخل، يدخّنون بينما يضعون أسلحتهم بين سيقانهم .

ركنوا الشاحنتين خلف المصفّحة الأخيرة، وترجّلوا من دون أن يطفئوا المحرّكات، وميّزوا عدّة رجالٍ من بين الضبّاط الذين كانوا يتمشّون حول عربات الأمم المتّحدة البيضاء، وكانوا قد تعرّفوا إليهم في ممرّات المركز العام، من بينهم المساعد أوّل المسؤول عن القطار، فاقترب منه أليكس الذي كان قد لعب معه بالورق في البار .

– هل من مشكلة هنا؟

– نعم، مشكلة صغيرة .

أجاب المساعد أوّل بلكنةٍ باريسيّةٍ، وكان يرفع طرف الواقي الشمسيّ حين يتكلّم، كما كان ليفعل لو أنّه يعتمر قبّعة.

– الطبيب أرجيلوس موجودٌ هناك إذا أردتم إيضاحات .

وجدوا الطبيب وسط حقلٍ لم يُفلَح، تحوّل إلى سريرٍ من الطين الأسْود، يطفو على سطحه قشٌّ قصيرٌ من مخلّفات الحصاد، ومن بعيد لم يكن في المكان ما يميّزه سوى تجمّعٍ كاكي اللّون، وطاقةٍ من الخوَذ الزرقاء السماويّة، فتقدّم أربعتهم في الحقل، وكان فوتييه كعادته يتقدّم وحيداً؛ لقد فضّل أن يختلط بالرجال الذين كانوا بالقرب من المصفحّات .

العديد من الجنود يقطعون المسافة من الطريق إلى مكان التجمّع جيئةً وذهاباً، بعضهم يحمل نقّالات، وبعضهم الآخر يفتح أكياساً من البلاستيك الأسْود. لم يكن أحدٌ يتكلّم، وفجأةً! أخذ أحدهم يصدر الأوامر بصوتٍ قويّ؛ كان الطبيب .

– حاولوا أن تكونوا دقيقين في عملكم أيّها الشباب؛ إن كانت هناك أشلاء حاولوا ألّا تبعثروها .

لقد كان في وضعية القرفصاء، ولم يستطيعوا رؤيته إلّا بعد أن شقّوا طريقهم عبر الجنود، فشعرت مود بالغثيان، فعلى الأرض الغضّة كانت هناك خمسون جثّة، وربّما أكثر، ممدّدةً على الأرض بوضعيّةٍ هزليّةٍ : الأرجُل والأذرُع ملويّة، والرؤوس تشكّل زوايا حادّة مع باقي الجسد، وبعض الوجوه كانت غارقةً في الطين. اللون الوحيد اللامع – في هذه الكتلة الرماديّة من الأجساد المرتدية في أغلبها ثياباً بهتت ألوانها – هو لون الدم .

بُقع دمٍ قرمزيٍّ كانت تحتلّ الصدور، وتسيل على باقي الأعضاء، وتزخرف الرؤوس، وتشكّل ضمن هذا المنظر الرماديّ الغائم نوعاً من الرسوم الفاخرة .

لم تستطع مود أن تزيح بصرها عن هذا المشهد، فالقرف التي شعرت به كان قويّاً إلى درجة أنّها شعرت أن شللاً أصابها، وفي الوقت نفسه فتنها المشهد، والدم النازف من الأموات هو الشيء الوحيد الحيّ في هذا المشهد الحزين .

كان الهواء الرطب يخفّف من الروائح، ووحْده المنظر استطاع الإيحاء بالعنف الذي تعرّض له اللّحم المطحون، وبفظاعة المشهد، فشعرت مود بالغثيان يتملّكها فجأةً، وبالكاد استطاعت أن تلتفت في الوقت المناسب كي تتقيّأ .

نهض أرجيلوس وسط هذه المجزرة، وتعرّف إلى موظّفي الجمعيّات الذين كانوا يقفون في الصفّ الأوّل في محيطه من الأحياء .

– هل أنتم هنا أيضاً؟

– لقد مررنا بالقرية، ورأينا أنّ معاركَ قد حصلت .

قال ليونيل الذي شعر براحةٍ؛ لقدرته على التكلّم مع الطبيب، وقول أيّ شيءٍ عوضاً عن البقاء صامتاً، وهو يتأمّل هذه الجثث .

– معارك! إنّها مجزرة، ألا ترى أنّهم ليسوا سوى نساءٍ وأطفال؟!

تمالكت مود نفسها، وانضمّت إلى الآخرين، ووجدت في نفسها القوّة لكي تنظر من جديد إلى هذه الجثث المنتشرة على الأرض بعد أن سمعت صوت الطبيب، فأخذت ترى الأشياء على نحوٍ مختلفٍ بعد أن سمعت كلمات أرجيلوس، ولم تلحظ في البدء سوى كتلة غامضة من الأجساد المعذّبة، وأصبح بإمكانها الآن أن تميّز أشخاصاً محدّدين، وهُم أشخاصٌ كانوا أحياء فيما مضى، وهذه الجثث المشوّهة كانت قبل قليلٍ أجساداً لنساءٍ وأطفالٍ يتنفّسون، ويمشون، ويأكلون. إحدى الأمّهات ما زالت تضمّ ابنها إلى صدرها، فتساءلت مود من منهما قُتل أوّلاً؟ واستحال وجه الطفل كلّه إلى جرحٍ مفتوح، فالرصاصة التي أصابته أُطلِقت عليه مباشرة، وجسد الأمّ لم يُمسّ .

– « من قام بهذا؟ » . سألت مود .

– من الصعب معرفة ذلك. القرويّون يقولون : إنّهم مرتزقةٌ يعملون لحساب أحد أمراء الحرب الصرب .

– هل تعرفونه؟

التفت أرجيلوس ليعطي أوامره لعاملَيّ الإسعاف اللّذَيْن كانا ينتظران من دون أن يجرؤا على وضع حمّالتهما الجديدة فوق الطين .

– بالطبع نعرفه، اسمه أركان، يتسكّع دوماً في المدينة، حتّى إنّني رأيته مرّتين في المقرّ، وهو يخرج من مكتب الكولونيل .

– « ستقوم إذنْ بإلقاء القبض عليه؟ » . ألحّت مود .

– إلقاء القبض عليه؟!

– لقد قام بمجزرةٍ بحقّ نساء وأطفال!

– ما الدليل على ذلك؟ إن اتّهمناه سيقول وبكلّ جدّيّة : إنّ العرب الذين يقاتلون لحساب البوسنيّين هُم من كانوا وراء المذبحة، وسيكون هناك على الأقلّ عشرة أشخاص يشهدون لمصلحته .

– « ليس هناك قائد في مجموعة هذا الشخص » . أضاف صف الضابط باريجو : « إنّهم لا ينتمون إلى الجيش النظاميّ، مثلهم في ذلك مثل السفّاحين كلّهم الذين يعيثون فساداً في المنطقة. ما من قيادةٍ رسميّةٍ يتبع لها، ولا أحد يسيطر عليه » .

– « يجب منعه من التسبّب بالأذى » . ألحّت مود : « عددكم كبير، ويمكنكم التخلّص منه بسهولة » .

– ماذا تظنّين؟ أتريديننا أن نشرع بحربٍ نحن أيضاً؟ أوّلاً : على أحدهم في نيويورك أن يعطي الأمر بتصفيته، وهو أمرٌ مستبعدٌ منهم، حتّى إن شرعنا بالأمر، فلا يجب الظنّ بأنّه سيكون صيداً سهلاً، لديه قذائف هاون، وقاذفات يدويّة، وقاذفات أر بي جي، وما يلزم كلّه ليحدث ثقوباً كبيرة في نوافذنا. هل تذكرين نافذتي؟

أمسك مارك – الذي لم يتفوّه بكلمةٍ حتّى الآن – مود من مرفقها .

– هيّا بنا، سنعاود المسير، لا فائدة من وجودنا هنا .

تكلّم بصوتٍ هادئٍ، وبدا أنّ مود التي كانت ترتجف من شدّة تأثّرها، قد تمالكت نفسها عندما أحسّت بيده حول عضدها. كان من الصعب على الآخرين أيضاً التحرّر من صدمة المشهد .

– « سفرٌ ميسّرٌ أيّها الصغار » . قال لهم أرجيلوس بصوتٍ عالٍ قبل أن يعاود عمله المفزع : « انتبهوا إلى أنفسكم » .

ما إن صعدوا الشاحنة حتّى بدأت مود بالكلام، كانت تصف المشهد بتفاصيله، وتقوم بتعليقاتٍ تراها هي بذاتها غبيّة، لقد أحسّت بنفسها غير قادرةٍ على احتمال الصمت، كانت في حاجةٍ إلى التعبير عن الانفعالات التي تعتمل في داخلها، أن تقول أيّ شيء، أن تتكلّم

فقط. لم تكن تنتظر إجابات، وقد لحظت – بوضوحٍ – أنّ مارك بقي صامتاً، يشدّ على أسنانه، وهو ينظر إلى الطريق، والشرّ يتطاير من عينيه .

– « من المثير للغرابة أنّنا كنّا قد تحدّثنا في ذلك الأمر قبل وصولنا هناك بقليل » . لحظت مود في إحدى اللحظات .

نظر إليها مارك، ورفع كتفيه لا مبالياً، فأسكتتها حركة الاحتقار هذه، وقالت في نفسها : إنّه عسكريٌّ في نهاية الأمر، رجُلٌ قام بالقتل هو أيضاً، وراحت تكنّ له الكراهية.

الجوّ في الشاحنة الأولى – على العكس – كان يميل إلى الوفاق والغفران، وبما أنّ ليونيل وأليكس لزما الصمت، أخذ فوتييه يروي ما علمه خلال حديثه مع الجنود، وكالعادة، كان رفيقاه يودّان أن يُسكتاه، لكنّ الفظاعة التي كانوا قد شهدوها في الحال جعلتهما يتجنّبان ما هو عنيفٌ كلّه، أو يؤدّي إلى الكراهية. ألم يكونا قد اعتمدا درب الجريمة بكراهيتهما لهذا الرجُل أيّاً كان مقدار الكراهية هذه؟ لقد كان شخصاً بغيضاً، وربّما مثيراً للشبهات، وكانا يجدانه بذيئاً وحقيراً. هل هذا كافٍ ليعطيهما سبباً لمعاملته بعنف؟ كانا يتذكّران العراك الذي حصل مع مارك، وقالا في نفسيهما : إنّ الحرب تبدأ هكذا. بعد ما رأياه كانا يرغبان بأن يكونا أفضل، وأن يبتعدا عن الوحشيّة الموجودة في كلّ رجُلٍ كما هي فيهما، من دون أن يتّفقا على ذلك، وبذل أليكس وليونيل جهدهما كي يستمعا إليه، وحتّى لكي يتفاعلا معه .

تعجّب فوتييه من الاعتبار حديث العهد هذا، كونه اعتاد أن يُعامَل بازدراء، وعندما أدرك أنّ طريقة تعامل رفاقه معه قد تغيّرت، قام هو أيضاً، ومن دون أن يسأل نفسه عن أسباب تحوّلهم هذا، بالتكلّم بنبرةٍ أقلّ استفزازيّة، وترك السُخرية والبذاءة جانباً، التي كان يستخدمها معهم عادةً، إلى درجة أنّهم تمكّنوا في لحظةٍ معيّنةٍ من التحاور ثلاثتهم على نحوٍ طبيعيّ .

– « لقد قال لي الشباب : إنّه على بعد عشرة كيلومترات من هنا » . قال فوتييه : « هناك منتجعٌ فارغٌ، يمكننا المبيت فيه اللّيلة » .

– هل هو موجودٌ على طريقنا أم علينا أن نتبع طريقاً فرعيّاً؟

– قيل لي : إنّنا سنمرّ أمام عارضةٍ خشبيّةٍ كُتبتْ عليها كلماتٌ روسيّةٌ، ورُسِمَ عليها طفلان يمسكان بأيدي بعضهما. علينا أن نرفع العارضة، ونسير لمسافة خمسمئة مترٍ على الطريق نفسه .

– هل يوجد حارس هناك؟

– لا، هو صربيّ، وقد اضطرّ إلى الهروب؛ لأنّنا في منطقةٍ مسلمة .

– تبدو فكرةً جيّدة .

***

مركز النشاطات الصيفيّة كان عبارة عن بناءٍ طويلٍ مبنيٍّ في فسحةٍ تحيط بها أشجارٌ عالية، وكانت غرف الدور الأرضيّ تطلّ على شرفةٍ محاطةٍ بحاجزٍ من الخشب، وطراز العمارة بدا حداثيّاً كئيباً لا أبّهة فيه، وكان يمكن تخيّل مسؤولي الحزب، وهُم يدشّنون البناء مردّدين العبارات الجوفاء التي تمجّد الشباب، والرياضة، والاشتراكيّة، فأتت الحرب الأهليّة لتكمل هذا المنظور، وتضع اللّمسات الأخيرة على هذه اللّوحة المشرقة، والأبواب الزجاجيّة كانت مكسّرة، والأثاث منهوب، حتّى إنّ أحدهم أشعل ناراً في أثناء السهر وسط الصالون الكبير الذي اسودّت جدرانه وسقفه من الدخان .

كان المطر قد توقّف حين وصلوا، وأشعّة الشمس المتردّدة تراوغ لتنسل من تحت غطاء الغيوم الرماديّ الذي أثارته رياح المساء، فدخلوا عبر المدخل الرئيس المدمَّر، وتفقّدوا الغرف بمصابيحهم اليدويّة، وكان المجمع كبيراً جدّاً إلى درجة أنّه لم يكن باستطاعة الناهبين أن يفرغوه من محتوياته تماماً، فاكتفوا بتفقّد القاعات الأماميّة الكبيرة، وبضع غرف، لكنّهم وجدوا أكثر من عشر غرف ما زال أثاثها موجوداً، ومحميّة بنوافذ لم يصبها أيّ أذى، فأخرجوا أغطيتهم الناعمة من الشاحنات، ونزل كلّ واحدٍ منهم في غرفة، في رفاهيّةٍ لم يعرفوها من قبل، ولم تكن الغرف مجهّزةً بالكهرباء والمياه، لكنّهم كانوا يمتلكون ما هو ضروريٌّ كلّه للإضاءة، أو لطهي وجبة طعام .

بالنسبة إلى المياه، كان هنالك نبع يجري ضمن حوضٍ حجريٍّ قرب المرآب، فقاموا بتسخين سعة حوضٍ منه، وتقاسموه من أجل الاغتسال في الحمّامات المشتركة، وأكّد فوتييه حسن نيّته عبر تحضير الطعام للجميع .

مع حلول الّليل، انبثّ هواءٌ باردٌ رطبٌ في الغرف المعرّضة لتيّارات الهواء، على غرار الشاغلين السابقين للمكان، فأشعلوا ناراً في الصالون، وتعشّوا متحلّقين على الأرض حولها، تعلوها سحابةٌ من الدخان، خلدوا للنوم بعدها محاولين ألّا يفكّروا بما شاهدوه خلال النهار، خاصّةً مجموعات القتلة التي تجوب المنطقة .

6

غفت مود مباشرةً من الخدر الذي بثّه الغطاء الناعم بجسدها، فانتابتها كوابيس مؤلمةٌ كانت توقظها من دون أن تترك أيّ أثرٍ في ذاكرتها. نظرت إلى قرص ساعتها الفوسفوريّ، وكانت الساعة الثانية والنصف، وكان فراش سريرها الحديديّ يصدر صريراً كلّما تقلّبت محاولةً النوم، فقرّرت أخيراً أن تنهض وتخرج إلى الشرفة لتتأمّل اللّيل، وضوء غريب كان يأتي من الخارج، وعندما فتحت النافذة، أدركت أنّ الثلج قد تساقط. طبقةٌ بيضاءُ رقيقةٌ كانت تغطّي الأرض والأشجار، وتعكس هالة ضوء القمر، فارتدت مود سترةً مبطّنةً فوق كنزتها الصوفيّة وخرجت، كانت تلك المرّة الأولى التي تشعر فيها بإثارةٍ جماليّةٍ حادّةٍ كهذه منذ أن وصلت إلى هذه البلاد. الثلج – لا سيّما الهطول الأوّل في السنة – يشبه الحلى التقليديّة الدارجة التي تضيف لمسة أناقةٍ إلى أتفه الملابس، والفضل له في أنّ الغابة الرماديّة، والعشب المهلهل، والمرآب المصنوع من الخرسانة، اكتسبوا سحراً غير متوقّع .

تقدّمت مود نحو حاجز الشرفة، وكانت حوافّه مدوّرةً، فلم يستطع الثلج أن يتكدّس عليه، فاستندت إليه وراحت تتأمّل المنظر، فانتابتها ذكرى الأجساد المذبوحة رغماً عنها، وتساءلت عن الشكل الذي كانت ستتّخذه تحت الثلج، وإن كان بمقدوره أن يضفي جماليّةً إضافيّة. شرد فكرها، ونسيت الوقت، كم كان قد مضى عليها هنا حين رأت طيفاً يخرج من بين الأشجار، ويقطع المرج العشبيّ الشاحب؟ لم تأتِ بأيّة حركةٍ آمِلةً ألّا يلحظها الرجُل؛ لأنّه كان رجُلاً عريض المنكبين، يتقدّم بخطواتٍ بطيئة. من يمكن أن يكون؟ هل عليها أن تهرع وتوقظ الآخرين وتنذرهم؟ فجأةً! سمعت اسمها، وتعرّفت إلى صوت مارك الذي كان يناديها همْساً .

– أهذا أنت؟ جفاك النوم أنت أيضاً؟

توقّف في فسحةٍ منخفضةٍ بالنسبة إليها .

– لا، لقد ذهبت أتمشّى على الطريق .

- انقشعت الغيوم، جميلٌ جدّاً .

- يمكننا رؤية قمم الجبال البعيدة من الطريق. هل ترغبين بالذهاب في نزهة؟

- سآتي .

بحثت عن الدرج ووجدته على الجانب المواجه للمرآب. كان مارك يلبس لباساً خفيفاً، ويضع يديه عميقاً في جيبي بنطاله الجينز كي يتدفّأ .

- هل تريد أن تجلب كنزة؟

- لا، سأشعر بالدفء عندما نمشي .

قطعا الغابة متّبعين طريقاً لم يتراكم عليه الثلج، وسرعان ما وصلا إلى الطريق، وتوجّب عليهما أن يتقدّما أكثر قليلاً كي يخرجا من المنطقة التي تغطّيها الغابة إلى منطقةٍ مكشوفة. كانا يمشيان ببطءٍ جنباً إلى جنب .

- « ألم تنم؟ » . سألته مود .

- لا .

- أهي المجزرة...؟

- نعم .

تفاجأت أنّه عبّر عن مشاعره بصراحة .

- لكنْ لا بدّ من أنّك قد شاهدت مجازرَ أُخرى .

- تماماً .

تجاوزا حدود الغابات، وكان المنظر يتموّج أمامهما على مدّ النظر، فنزلا منحدراً خفيفاً حتّى وصلا إلى وادٍ لا يلفت الانتباه، ثمّ شاهدا فجأةً الحاجز البعيد الذي تشكّله الجبال المغطّاة بالثلج .

- لهذا السبب تركت الجيش .

- لأنّك لم تكن تحتمل المجازر؟

- لأنّني لم أكن أحتمل أن نشهدها من دون أن نستطيع فعل شيء .

تفاجأت! لم تفكّر ولو مرّةً بأنّه بالإمكان فعل شيءٍ لإيقاف الفظاعات، أكثر ما يمكن فعله كان محاولة نجدة الضحايا بعد الفظاعات، لقد كان مفهوم العمل الإنسانيّ يتحكّم بتفكيرها أكثر ممّا كانت تظنّ. كشف لها مارك عن إمكانيّةٍ أُخرى لم تكن قد فكرّت بها من قبل .

– وماذا تريد أن تفعل؟

انتابته حماسة :

– ألم تريهم؟ ألم تري رجال الأمم المتّحدة المدجّجين بالسلاح والمدرّعات، وهُم يقومون بلَمِّ الجثث كممرّضاتٍ، أو حفّاري قبور؟ لقد قمت بهذا العمل لمدّةٍ أنا أيضاً إلى أنْ مللته .

– كان أرجيلوس واضحاً حين قال : إنّهم لا يملكون الوسائط التي تسمح لهم بالقبض على المذنبين. يجب إلقاء القبض على الجميع؛ هنالك مجرمون في كلّ مكانٍ في هذه الحرب .

نظر مارك إليها، وعلى الرغم من الظلام شعرت بأنّ نظرته هي نظرة احتقارٍ وغضب، فلامت نفسها لأنّها خالفته، فلم تكن تشعر بالرغبة بالنقاش، كانت ترغب فقط بأن تفهم، أن تفهمه هو تحديداً .

– اشرح لي إذن .

لم يكن على وجه مارك أيّة علامات قسوةٍ تحت ضوء الحقول المثلجة الشاحب، وكانت ملامحه مرسومةً بمجموعةٍ من الظلال، وفمه وحْده ما بدا مرسوماً بوضوح، فانتابت مود فجأةً الرغبة بأن تطبع شفاهها عليه، أن تشعر بتنفّسه، بلعابه المثير، بحياته، هي التي كانت عادةً تهرب من رغبات الآخرين، وبدأت تشعر بدوارٍ غير متوقّع، دوارٍ ينبع من داخلها، ونادراً ما تركته يطفو على السطح، فالخوف، والتعب، والفظاعات، حفروا في نفسها أنفاقاً عميقة، سمحت لهذا النبع الحارّ الذي لم تكن تدري بوجوده بالاندفاع خارجاً .

قال مارك بصوتٍ منخفض :

– هناك مجرمون في كلّ جانب، وضحايا من كلّ جانب، هذا أكيد، لكنّنا لا نستطيع القيام بشيءٍ إذا توقّفنا عند هذه النتيجة .

لامت مود نفسها؛ لأنّها لم تهتمّ – على نحوٍ كافٍ – بكلامه، بلْ ركّزت على الاضطّراب الذي كان يثيره في نفسها، وبدا كأنّه لا يراها، وكان يتابع قراءة ما يعتمل من غضبٍ في داخله، وهو ينظر أمامه، لكنّ شفاهه وهي تلفظ الكلمات كانت تأخذ أشكالاً جذّابةً بالنسبة إليها .

تابع قائلاً :

– علينا في لحظةٍ معيّنةٍ أن نحدّد ماذا كان السبب، وما هي النتيجة. من ضمن الذين يتحاربون، هناك من استحوذ على القوّة لإهلاك الآخرين، والجيش اليوغسلافيّ القديم، وأجهزة الدولة كلّها قد صودِرَت من قِبل زمرةٍ في بلغراد، في حين أنّ الآخرين يدافعون عن أنفسهم .

تمالكت مود نفسها قليلاً، وأرادت أن تظهر أنّها مهتمّة بما يقوله :

– أتقصد أنّ الصرب هُم من يتحمّل المسؤوليّة؟

– ليس الصرب كلّهم، فمن بين الصرب مساكين أُجبِروا على القتال، وهناك أناسٌ شرفاء منهم، وحسّاسون، وضحايا أيضاً، إنّما الصرب الذين ورثوا أجهزة الدولة اليوغسلافيّة، والقوميّون الصرب الذين استغلّوا انهيار الدولة كي يبدؤوا مشروعهم التسلّطي .

ذلك كلّه كان عبارة عن أفكار مجرّدة بالنسبة إليها، ولطالما كرهت السياسة، وتبسيطاتها، وكذبها، لكنّها كانت تحبّذ فكرة أنّ الأشياء في لحظةٍ معيّنةٍ تأخذ منحى محدّداً، وذا معنى. أكان على صوابٍ أم على خطأ؟ اختار مارك طرفاً، ورفض الوهن والاستسلام؛ هذه هي الخلاصة التي وصلت إليها من كلامه، وفكّرت من جديد بالنساء والأطفال المقتولين، وثورة الغضب العقيمة، التي اعترتها أمام مشهد الجثث التي لن يقتصّ لها أحد؛ المظالم كلّها كانت أهمّ من هذه المَظلمة .

توقّفا وانتصبت أمامه، كان وجهاهما قريبين، فشعرت بنَفَسه، وقامت بفتح شفتيها، فقبّلهُما .

كان يشدّها إليه بقوّةٍ، فيما كانت هي تلمس بيدين عديمتيّ الصبر تقاطيع عضلاته التي كانت تظهر من تحت قميصه، وكانت قبلاتهما عنيفةً كما لو أنّهما وجدا في هذا الالتحام الجسديّ طريقةً للتعبير عن الثورة جلّها، والشغف جلّه، والغضب كلّه، واليأس الذي كان قبل لحظاتٍ يمزّقهما بصمت .

- « تعالي » . همس، وهو يبتعد ساحباً إيّاها من يدها .

عادا أدراجهما متّبعين خطواتهما التي حُفرت في الثلج، لكنّ آثارهما الجديدة كانت مختلطةً كونهما كانا يمشيان، وهُما يضمّان بعضهما، فصعدا درج الترّاس، وهُما يتدافعان، وصعدا إلى الدور الذي يحوي المهاجع الكبيرة، ولم يعد هناك من مانعٍ أمام رغبتهما إلّا مقاومة الثياب الشهوانيّة التي نزعها الواحد للآخر، وبحركاتٍ مربكةٍ ومحمومةٍ، لم تزدهم برودة المهجع، وقماش الفرشة الخشن، ونتوءات السرير الضيّق الحديديّة إلّا حماساً، وعناقهم المشوّش كان يشبه العراك، عراكاً لا يتمخّض عن فائزٍ، أو خاسرٍ، ويهدف إلى التحام الجسدين في جسدٍ واحدٍ، ويقف في مواجهة عنف العالم المحيط بهم .

لم تكن مود ترغب قطّ في أن تخوض هذا الامتحان الذي رأت فيه إهانةً لا يمكن تحمّلها، وكانت تشعر أن هناك رغبة عنيفة عند الشبّان جميعهم، الذين تقرّبوا منها، بأن يسيطروا عليها عن طريق جرحها هذا الجرح، كما أنّها لم تشعر تجاه أيّ واحدٍ منهم بحُبٍّ كافٍ كي ترضخ لذلك؛ لقد بقيت عذراء بكبريائها، وبقدرتها على التحدّي، لكنْ هنا، في هذا المكان الذي لا تستطيع تسميته، وفي عدم الارتياح الذي يوفّره هذا المنزل المحطّم، كانت تتقبّل - من دون خشيةٍ - هذا الألم الحميميّ التي كانت تشتهيه، والرجُل الذي عرّفها إليه كان كأداةٍ لقوّةٍ تتجاوزه هو نفسه، أرادت أن تمتلئ منها، فشعرت بالدم يسيل منها، وراحت تتخيّل لمعان هذه اللطخة في ضوء النهار ضمن هذا المنظر الكريه، كانا يتشاركان هذا الدم كما لو كانا يتشاركان دماء النساء المقتولات، لكنْ كان هذا دم الانتقام والقتال، دم الحياة والنشوة، فصرخت .

توقّفا للحظةٍ ينصتان إلى ضوضاء قادمةٍ من الدور السفليّ. لا شيء كان يعكّر صفو السكون، فعادا إلى مضاجعتهما .

عندما خارت قواهما أخيراً، بقيا متعانقين، لكنّ البرد عاد وجمّد العَرق الذي كان يغطّي جسديهما، فغطّاها مارك بقميصه، ونزل ليجلب الغطاء الناعم، فقام بفتحه وتدثّرا به .

داعب شعرها غير المرتّب، وتأمّل وجهها الذي كان ضوء الثلج الداخل من النافذة الزجاجيّة يضفي عليه لوناً أبيضَ مائلاً إلى الزرقة .

- « كم أنت جميلة! » . قال لها .

صدّقته. هذه المجاملة التي لطالما عدّتها نوعاً من إطلاق الأحكام غير المرغوب به، قبلتها منه، ورغبت بأن تكون جديرةً بها دائماً .

قبّلته مرّةً أُخرى ملء فمها، وداعبت برأس أصابعها الحسّاسة الوشوم التي غطّت ذراعي مارك، الوشوم نفسها التي أثارت في البدء قرفها، والتي تشبه في العتمة نقوشاً نافرةً على قماشٍ دمشقيٍّ ثمين .

اتّكأ في لحظةٍ معيّنةٍ على مرفقه، ونظر إليها بجدّيّة .

- يجب أن تعلمي .

- ماذا؟

ظنّت لبرهةٍ أنّه سيقوم بكشف التزامٍ لا يمكنه التخلّي عنه، سيجعل من الاستمرار في علاقتهما أمراً مستحيلاً، فاعتراها الخوف، لكنّه عاد إلى فكرته الثابتة، إلى معركته .

- في الشاحنات ..

- ماذا؟

- ليست المتفجّرات التي خبّأناها تلك التي تُستعمَل في الورش.

- لا؟ ما هي إذن؟

- خمسة عشر كيلوغراماً من المتفجّرات الحربيّة؛ متفجّرات حقيقيّة مجهّزة بصواعق، منها ما يكفي لتدمير جسرٍ طوله مئة متر.

ما كانت لتتمنّى أن يتكلّم معها عن الحُبّ؛ حبّهما كان هذا : السرّ المشترك، والمخاطرة، والنضال. كان يشبه طفلاً جدّيّاً، وهو ينتظر جوابها، فنظرت إليه من دون أن تقول شيئاً، وكان يرى ابتسامةً مرسومةً على وجهها، فانتابه القلق من عدم معرفة معناها .

في تلك اللّحظة كانت لديها رؤية شاملة، ففهمت أنّ أكثر ما يهمّه كان هذا المشروع، هذه الأحلام المجنونة، والغضب الذي يسكنه، التي لم تكن تعرف منبعه، وما تبقّى كلّه، حتّى الحب؛ ليس بالأهميّة نفسها. كان ذلك محبطاً للغاية، لكنّها مع ذلك شعرت بأنّه يعجبها، فمدّت يدها ببطءٍ نحوه، ورفعت خصلةً أثقلها العرق المتساقط من جبينه .

– « أحبّك » . قالت له .

قبّلها وعادت الرغبة .

أيقظهما فجرٌ كئيبٌ تسلّل عبر الأشجار الرماديّة التي نفض الهواء الثلج عنها، فأسرعا في العودة إلى غرفتيهما كلّ في سريره، وغطائه البارد، وكان الآخرون ما زالوا نياماً، ولم ينتبهوا إلى شيء .

وحْده فوتييه المستلقي على ظهره فتح جفنيه حين مرّ مارك من أمام باب غرفته المفتوح، فتلاقت نظراتهما في الظلام .

III
ملاحقة

1

كان مارك يخطّط لترك القافلة منذ عدّة أيّام؛ لقد كان مقتنعاً أنّ فوتييه يعلم أكثر ممّا كان يُظهر، وأنّ الأمر لن يطول به قبل أن يضع رغبته بالانتقام موضع التنفيذ، فاقترح على مود الهروب في اللّيلة التالية.

– نهرب! لكنْ كيف؟

– بشاحنتنا .

– سيلحقون بنا .

– ليس إذا خطّطنا تخطيطاً جيّداً .

لقد كان هذا اقتراحاً مخيفاً جدّاً؛ فالهروب يعني قطع الصلات كافّةً مع الجمعيّة، واعتماد منطق السرقة والحرب، هذا دربٌ ليس فيه عودة، ولكنْ أليس ذلك النتيجة الحتميّة لوجود المتفجّرات على متن الشاحنة؟ تتالت الأحداث بسرعة، ولم يُتح لمود فرصة التفكير، وبدأ كلّ شيءٍ بالمجزرة، ثمّ اللّيلة الحميميّة غير المتوقّعة، والآن الهرب؛ هذا كلّه كان يخضع لحتميّةٍ قويّةٍ جدّاً تتجاوزها.

– وأليكس؟

– لا يعلم شيئاً. إنّه مقتنعٌ بأنّني وضعت متفجّرات خفيفة التأثير في الحمولة .

– هل ستخبره؟

– لا .

تحمّست مود لفكرة أنّه يجب عليهم الهروب، ولكنْ لم يكن يعجبها ترك أليكس وحيداً .

– يمكننا أن نأخذه معنا، أليس كذلك؟

– لن يكون هذا تصرّفاً عقلانيّاً. لا يمكن توقّع ردود فعله، سيلومني بشدّة؛ لأنّني لم أخبره بما كنت أنوي فعله .

– لماذا لم تقل له شيئا؟

– ليس لدينا الرؤية نفسها للأمور؛ لا يشاركني التزامي، لا بلْ إنّ الأمر أكثر جديّة : هو لا يفهم، فقضيّة المضخّات، ومنجم الفحم، لا تستحقّ العناء، هذا أمرٌ سيفكّر فيه مليّاً حين تضع الحرب أوزارها، وما يلزم الآن هو النصر، والوسائل كلّها يجب أن تسخّر لخدمة هذا الهدف، بما فيها العامل الإنسانيّ، وهو لا يريد أن يفهم .

– كنت تعلم قبل السفر؟

– لم تكن لديّ أيّة مشكلةٍ في الخطّة الأوليّة، كان عليّ أن أرافقه إلى (كاكاني) ، وهناك سيكتشف تبديل الحمولة لحظة لقائه مع صديقته، وكان هذا سيخفّف وقع الصدمة عليه، لكنْ مع هذه الأحداث كلّها التي حصلت، وهذا الشرطيّ الذي يرافقنا في القافلة، لم يعد لدينا الخيار الآن .

– هذا ليس موقفاً محبّباً، إنّه صديقك ....

عضّ مارك على شفتيه. لقد كان واضحاً أنّ قراره لم يكن مريحاً له أيضاً، لكنْ ليس من طبعه أن يعترف بالأمر .

– على كل حال، سيكون الأمر خطراً علينا عمليّاً، فنحن مستقلّان في شاحنتنا؛ أمّا هو، فيتبع طاقماً آخر. إنْ أشركناه سيكون احتمال الإخفاق أكبر .

لم تصرّ مود؛ فهذا أمرٌ يخصّهما وحدهما في نهاية الأمر، وفي قرارة نفسها، لم تكن منزعجةً من أن تعيش هذه المغامرة وحْدها مع مارك .

غادروا جميعاً مركز العطل معاً في الصباح الباكر، وسار الموكب في الريف من دون أيّة مشكلات، وفي أثناء القيادة، قام مارك ومود بوضع خطوط عمليّتهما التي يجب أن تسمح لهما بمغادرة الموكب من دون إعلام أحدٍ في الليلة التالية .

قشرة الثلج كانت رقيقةً جدّاً كي تستطيع المركبة الثبات على الأرض التي ما زالت دافئة، إلى درجة أنّ ثقوباً رماديّة كانت تظهر في كلّ مكان. عاد المنظر إلى كآبته وقذارته، وصادفوا قافلةً إنسانيّةً نرويجيّةً تسير بالاتّجاه المعاكس، عائدةً أدراجها بعد أن أفرغت حمولتها .

قاموا بالتخييم مساءً في مرعى ذاب فيه الثلج تماماً، واعتمدوا التوزيع الأوليّ نفسه على الخيام، فنام مارك وأليكس معاً، في حين باتت مود ليلتها في الشاحنة، وكان كلّ منهما يعرف ما عليه فعله .

ضبطت مود منبّه ساعتها عند الرابعة صباحاً، فاستيقظت بصمتٍ، وأخرجت مصباح الجيب خاصّتها، والأسطوانة الصغيرة التي أعطاها إيّاها مارك.

المهمّ كان تحاشي إثارة الضوضاء، فقامت بتحديد موضع صمّام الدولاب الخلفيّ في شاحنة ليونيل، فأصرّ مارك على ضرورة أن تخرج الهواء ببطءٍ حتّى لا يخرج صفيرٌ من الصمّام، ولسوء الحظ، شعرت مود وهي تضغط على الأسطوانة المعدنيّة الصغيرة بمقاومةٍ غير متوقّعة، فوجب عليها أن تضغط بقوّةٍ كي تتغلّب عليها، فأطلق الصمّام صفيراً قويّاً حادّاً جعلها تترك كلّ شيء. الأصوات تصل بعيداً في الهواء البارد وفي هذا الحقل المهجور، ولم يكن هنالك حيوان، أو شيء قادر على إطلاق مثل هكذا ضوضاء، فأنصتت مطوّلاً بحثاً عن أيّ صوت، فلم يتحرّك شيءٌ داخل الخيام التي كانت قد نُصبت على بعد عشرين متراً من الشاحنات، فركّزت عملها على الإطار اليساريّ الخلفيّ الذي كان أكثر بعداً، فخفّ قلقها.

كانت يداها ترتجفان عندما عاودت المحاولة، فانطلق صفيرٌ في بداية الضغط، فوجب عليها الضغط بثباتٍ من دون أن تجفل هذه المرّة، وجعْل الهواء يتسرّب مطلِقاً حفيفاً غليظاً لا يثير الانتباه. فكّرت بمارك، بعزمه وهدوئه، وتصرّفت كما لو كان إلى جانبها، فضغطت على الصمّام بقوّةٍ، فخرج الصفير نفسه منه لمدّةٍ وجيزةٍ، وراح الهواء يخرج بانتظام. شعرت مود بالهواء على وجهها، وحافظت على الضغط على الصمّام كي لا تضطرّ إلى إطلاق الصفير من جديد، فخدرت أصابعها بفعل البرد، وكان الإطار الضخم يحتاج إلى وقتٍ كي يفرغ تماماً. كانت تكشّر بفعل الألم كون التشنّج قد جمّد يدها منذراً بإجبارها على ترك كلّ شيء .

لحظت أخيراً أنّ الإطار يلتوي؛ تلك الإشارة أعطتها الطاقة الكافية كي تقاوم الألم حتّى يفرغ من كامل هوائه، وكان يجب أن يكون الإطار على الأرض كليّاً، الأمر الذي من دونه كان يمكن لرفاقهم ملاحقتهم في الحال قبل إصلاحه، فلم ترتَح قبل أن لامس الإطار الحديديّ الأرض .

انضمّ إليها مارك بهدوءٍ لاحقاً. البارحة مساءً، قام بوضع منوّمٍ في مطرة مياه أليكس، وكان يعلم أنّه لا ينام إلّا والماء بجانبه، وأنّه كان يستيقظ مرّتين، أو ثلاث مرّات ليلاً كي يشرب، وكانت الجرعة أكثر من كافية، ولم يأتِ بأيّة حركةٍ عندما قاما بتحريك الشاحنة، بالمقابل، انتفض ليونيل إلى خارج الخيمة لدى سماعه دورة المحرّك الأولى، لقد حرصوا أمس على أن يركنوا الشاحنة بعيداً كفاية عن الشاحنة الأولى، وفي الاتّجاه نفسه الذي سيسلكونه، فرأت مود ليونيل في المرآة الخلفيّة، وهو يحاول اللحاق بهم، لكنّه كان عاري القدمين على أرضٍ طينيّةٍ، فانزلق، ووقع، ثمّ نهض. كانت الشاحنة تتقدّم ببطءٍ على المرج، فعاود ليونيل الركض. نجح في الوصول إلى ماصّ الصدمات الخلفيّ، لكنْ عند وصولهم إلى الطريق، قفزت الشاحنة لمرورها فوق منحدرٍ جانبيٍّ صغير، ولم يستطع ليونيل التمسّك أكثر، وآخر ما شاهدته مود كان ليونيل ممدّداً بجسده كلّه في الطين الممزوج بالثلج، وكان يلبس قميصاً قطنيّاً أبيض، وجعله ضوء القمر الشاحب يبدو كأنّه جثّة .

منذ بداية الرحلة لم يحصل أن استُخدمت الشاحنة بطاقتها القصوى هكذا، كان مارك يدوس على الوقود بقوّةٍ وعلى نحوٍ مستمرّ، وبما أنّ الطريق كان مستوياً ومستقيماً في هذا الموضع، كانت الشاحنة القديمة التي تزن 15 طنّاً تتقدّم بسرعةٍ كبيرةٍ، وكان المركب التعِب يرتجف عندما يسير على الحصى، ويصدر قرقعةً مخيفةً في المواضع التي فيها أخاديد عميقة. كانت مود تتمسّك بالباب، وتخرج رأسها من النافذة المفتوحة من وقتٍ إلى آخر لترى إن كان أحدهم في أعقابهما .

لكنّ شاحنة ليونيل كانت غير مرئيّة .

اتّجه الطريق نحو الصعود قليلاً، الأمر الذي كان في صالحهما؛ لقد كانا يعلمان أنّ شاحنتهما أقوى قليلاً من الأُخرى، وكان مارك يطبق فكّيه بعصبيّةٍ، ويثبّت نظره على الطريق؛ لأنّ الأضواء الأماميّة لم تكن تضيء جيّداً. لم يَطمئنّا إلّا مع خيوط الفجر الأولى التي جعلت من القيادة أسرع وأقلّ خطورة .

– كم من الوقت سيلزمهم كي يصلحوا الإطار برأيك؟

– المنفاخ معنا .

– يمكنهم استعمال الإطار الاحتياطيّ؟

– تعلمين أنّنا لم نصلح الإطار الذي أصيب برصاصة، والإطار الآخر معنا، كما أنّني أخذت رافعتهم البارحة مساء .

نظرا إلى بعضهما وانفجرا ضحكاً .

الغيوم كانت أقلّ ثِخَناً نسبةً إلى اليوم السابق، وكان يمكن رؤية قطعةٍ من سماءٍ صافيةٍ من جهة الشرق يضفي عليها الفجر لوناً زهريّاً .

– حضّري الأوراق في حال صادفنا حاجزاً .

قبل أن يغادرا (ليون) ، قام مارك وأليكس بتصوير الوثائق كلّها، وكانا يدعان ليونيل يخرج بكلّ فخرٍ أوراق القافلة عند كلّ حاجزٍ، لكنْ كان بحوزتهما الأوراق نفسها تماماً، لقد كانت مخبّأةً في الشمسيّة الخاصّة بكرسيّ المرافق، فقد فتحا في المستطيل المحشوّ شقّاً خبّآ فيه الأوراق، وأغلقاه بقطعة لاصقٍ أسْود، فأخرجت مود الأوراق من المخبأ، وأخذت تتفحّصها .

– الأوراق تشير إلى وجود شاحنتين، وتبرز أسماء خمسة أشخاص .

– أعلم .

– لم نعد سوى اثنين، وبشاحنةٍ واحدة؛ سيثير ذلك شبهات المليشيات .

– لا، أُنظري جيّداً، اللّوائح بالحمولات موجودة على ورقتين منفصلتين، ابحثي عن تلك التي تخصّنا ومزّقي الأُخرى؛ أمّا بالنسبة إلى السائقين، فيكفي أن تشطبي ثلاثة أسماء، سنقول لهم إنّ التصاريح كانت قد طلبت لخمسة أشخاصٍ من باب الاحتياط، وإنّ اثنين كانا كافيين في نهاية الأمر . لا تقلقي على أيّ حال، فقد رأيت كيف يقومون بالتفتيش عموماً .

كانت مود تعلم أنّه من المحتمل من وقتٍ إلى آخر مصادفة موظّفين يدقّقون في أدقّ التفاصيل، لكنّ هدوء مارك طمأنها؛ لقد كان يبدو واثقاً جدّاً، ولا بدّ من أنّ لديه

أسباباً تدفعه إلى ذلك .

في لحظةٍ معيّنةٍ عند بداية النهار، بزغت أشعّة الشمس من خلف رؤوس الأشجار، أشعّة شمسٍ حقيقيّة، وشمس حقيقيّة، حتّى لو كانت شاحبةً وباردة. قامت مجموعةٌ من الحمير ذات الوبر الطويل المجتمعة تحت أغصان شجرة بلّوط بمدّ أشداقها نحو الشمس، وعكست مياه الجداول ضوء الشمس في المراعي، فانتابت مود الرغبة بتقبيل مارك، لكنّ وجهه كان يحمل علامات التوتّر والعصبيّة، هذا ما كانت مود تسمّيه في سرّها وجهه النهاريّ؛ لأنّها أصبحت تعرف الآن لطف وجهه الآخر، الوجه الذي لا يظهر إلّا ليلاً، فقالت في نفسها : إنّها ستنتظر حلول المساء كي تقترب منه، وهذا الخاطر أثار تساؤلاً عندها .

– أين سننام؟

– « هنا في الشاحنة » . قال مارك، وهو يضرب براحة يده على المقعد، أحدنا ينام، والآخر يقود بالتناوب على الأقلّ لليومين القادمين .

– سنتناوب على القيادة في اللّيل، أليس كذلك؟

– تماماً .

– نظراً لحال الأضواء الأماميّة، ألا تخاف أن نُخطئ طريقنا؟

– سوف ننتبه .

لقد كانت مود حتّى الآن مفعمةً بإثارة اللّقاء، والتحضير لهروبهما، الأمر الذي لم يكن سوى لعبة، وأدركت فجأةً الآن ماهيّة الموقف؛ لقد كانت تسير في شاحنةٍ محشوّةٍ بالديناميت في داخل بلدٍ تجتاحها حربٌ، ويلاحقها أناسٌ لن يتوانوا عن الإبلاغ عنهما كسارقين. لقد أرادت أن تكرّس حياتها للعمل الإنسانيّ، لكنّها أدركت بأنّ التزام العاملين في الحقل الإنسانيّ لم يكن بالالتزام، ويحصل أن يقوموا بمخاطرات، وأن يجدوا أنفسهم أحياناً في مواقف سيّئة، لكنّهم يبقون بعيدين عن المعارك .

شكّلت موافقتها على نقل المتفجّرات الصغيرة أوّل خرقٍ قامت به، إلّا أنّه كان خرقاً لا تبعات له، حتّى مع تلك الحمولة كانوا ما زالوا عاملين في الحقل الإنسانيّ،

وكان بإمكانهم الحصول على دعم الرأي العام لهما في حال ألقى الصرب القبض عليهما .

لكنّها قصّةٌ مختلفةٌ حين تكون المتفجّرات حقيقيّةً، لقد باتوا خارجين عن القانون، وفرنسا التي لم تكن تريد التورّط في هذه الحرب ستتبرّأ منهما، وسيُعاملان كمجرمَيْ حربٍ في حال جرى إيقافهما؛ فقد قاما بخرق خطٍّ لا مرئيٍّ كانت مود تدرك أهميّة قيمته الرمزيّة، لقد أصبحا محاربين بالفعل، وأصبح لهما من الآن فصاعداً أصدقاء وأعداء، ولم تعد هناك من ضمانةٍ لحياتهما .

جلس ليونيل في الطين إلى جانب الإطار الفارغ، والوهن يبدو عليه، فانضمّ إليه فوتييه من دون تسرّع؛ لقد أخذ وقته كي يرتدي ثيابه، وينتعل حذاءه قبل الخروج من خيمته، وانحنى كي يعاين الإطار .

– إنّه فارغٌ من الهواء، هذا ما في الأمر كلّه .

– « كيف لك أن تعرف؟ » . قال ليونيل متذمراً .

– لأنّني سمعت الصبيّة تفتح الصمّام في اللّيل .

– سمعتها! ولم تفعل شيئاً؟

– بلى، فعلت .

– ماذا؟

– عاودت النوم .

نهض ليونيل، وأمسك بيديه الاثنتين ياقة قميص فوتييه .

– عاودت النوم! أتسخر منّي؟ أنت إذنْ متآمرٌ معهم .

– قام ليونيل – بذراعيه النحيلتين – بشدّ فوتييه، لكنّه كان غير قادرٍ على تحريكه من مكانه، فباعد الأخير بهدوءٍ اليدين اللّتين كانتا تمسكان به .

– « سأقوم بإعادة نفخ الإطار » . قال ليونيل .

– لا تُتعب نفسك، لقد سرقا المنفاخ بلا شكّ .

نظر ليونيل إليه مغلوباً على أمره، فأمسكه فوتييه من الكتف.

– تعال، سنتحدّث في كلّ شيءٍ بهدوء .

– بهدوءٍ، وقد قاما بالهروب آخذين معهما الشاحنة؟ هُما يبتعدان في كلّ ساعةٍ تمضي، ونحن ما زلنا هنا كالبلهاء .

– لا تقلق، لن يذهبا بعيداً .

ابتسم فوتييه، وهو يعضّ على شفتيه. لم يكن في هيئته شيءٌ يشي بأنّه كان يمزح، لا بل إنّ الكراهية التي يكنّها لمارك كانت ما تزال تبرق في عينيه دائمة الحركة، فأفلته ليونيل، وسارا عائدين إلى الخيام، فخرج أليكس من خيمته، وشعره أشعَث، وجفناه منتفخان .

– لا أعلم ما الذي حصل لي، لقد كنت في سبات ...

– « هل شربت من الماء البارحة مساء؟ » . سأل فوتييه من دون تركيز .

– كما في الليالي كلّها .

– أنصحك بأن تفرّغ مطرتك، لا بدّ من أنّ صديقك الحميم قد وضع فيها جرعةً كبيرة .

– جرعة ماذا؟

– « هل قام بتنويم أليكس؟ » . قال ليونيل : « كان الأمر مبيّتاً إذن » .

– عمَّ تتكلّمان أنتما الاثنان؟ أين الشاحنة الثانية؟

– « بالتأكيد كان ذلك مبيّتاً » . قال فوتييه : « لحُسن الحظّ أنّنا نحن أيضاً كنّا قد بيّتناً أموراً أُخرى » .

كان فوتييه الوحيد بكامل وعيه، وبالكاد كان الآخران يرتديان ملابساً، وأعينهما مرهقة، وحركاتهما متخبّطة .

– حسناً، اذهبا لارتداء ملابسكما، سأقوم في هذه الأثناء بتحضير وجبة فطورٍ دسمة، وسنتناقش بتفاصيل ما حصل .

كانت الشمس قد بدأت تبزغ من خلف رؤوس الأشجار عندما اجتمع ثلاثتهم جالسين على صناديق حول السخّان، وكانوا يمسكون بكؤوسهم براحات أيديهم كي يتدفّؤوا، فوضع ليونيل لفافة حشيشٍ خلف أذنه، وانتظر حتّى ينتهي من شرب قهوته قبل أن يشعلها .

– ما قصّة الأمر المدبّر هذه؟

– « علينا العودة إلى الوراء أكثر » . قال فوتييه : « أتذكران أنّني التقيت أصدقاء لي في مقرّ الأمم المتّحدة الذي استرحنا فيه؟ » .

– نعم.

– منهم من هو على اطّلاعٍ واسع .

– مخبرون؟

– لنقل عناصر مخابرات فرنسيّة، ترتدي بدلة قوّات الأمم المتّحدة .

– ماذا قالوا لك؟

– « طلبت إليهم أن يتحرّوا عن هذين الاثنين » . قال فوتييه، وهو ينظر إلى أليكس .

– لا تقل : هذين الاثنين، ترى جيّداً أن ...

– لقد خانك مثلنا أيضاً؟ أنا أعلم ذلك، لكنْ في ذلك الحين لم أكن أدري .

– « إذنْ، قل ما أخبروك به » . أصرّ ليونيل.

– لا أستطيع أن أفصح لكم عن التفاصيل كلّها، هناك تحقيق يجري الآن في فرنسا، ويجب أن يبقى سرّياً. بالمختصر، هذا ما أستطيع قوله .

وقف وقفةً مهيبةً كقاضٍ، أو مدّعٍ عام يتحضّر للكلام .

– سُرقتْ متفجّراتٌ حربيّةٌ من ترسانة « أورانج » قبل شهرين، ولم يجدوا السارق بعد، لكنْ من المؤكّد أنّ لديه شركاء من الداخل، وأنّه عسكريٌّ سابق .

– « لكنّ المتفجّرات الصناعيّة الخفيفة ليست بمتفجّرات حربيّة! » . صرخ أليكس : « لقد قمت أنا بنفسي بشرائهم من شركة أشغالٍ عامّة » .

– دعه يكمل! تابع يا فوتييه .

– شكراً، سأتحدّث في المهمّ، بما أنّه لا صبر لديكما؛ كلّ شيءٍ يحمل على الاعتقاد بأنّ صديقنا المشترك هو من قام بسرقة المتفجّرات، وقام بوضعهم في الشاحنة رقم اثنين .

– كيف أمكنك أن تعرف؟

– ذلك يتطابق مع البلاغ، وأصدقائي حصلوا على معلوماتٍ عن طريق أحد المخبرين .

بدت الدهشة على أليكس، فهذه الأخبار صعقته، لكنّها في الوقت نفسه كانت تقدّم له أجوبةً عن الأسئلة التي ما برح يطرحها حول مارك. لم يكن قد فهم جيّداً لمَ قبل أنْ يرافقه بهذا القدْر من الحماسة، وهو لم يكن لديه أصدقاء في (كاكاني) ، وحسب ما كان يشعر أليكس في سرّه، لم يكن يعبأ نهائيّاً إن كانت مضخّات المنجم ستستطيع متابعة عملها أم لا، وصداقتهم كانت حقيقيّةً، لكنْ ليست عميقةً كفاية كي تسوّغ قبول مارك هذه المخاطرة الكبيرة الناتجة عن الانخراط في هذه الحملة، ووجود خطّةٍ مضمرةٍ يجعل الأمور أكثر وضوحاً؛ لذا، وعلى الرغم من دهشته، كان أليكس على يقينٍ تامٍّ بأنّ معلومات فوتييه كانت دقيقة .

– « ومتفجّراتي الصناعيّة؟ » . قال أليكس : « ماذا سيفعل بها؟ » .

– لقد استغلّك يا عزيزي أليكس، يؤسفني أن أقول لك ذلك : كان في حاجةٍ إلى زميلٍ كي يقود شاحنته، وكان على علمٍ بأوهامك حول منجم (كاكاني) .

– ليست تلك بأوهام .

– « لا، بالتأكيد » . قال فوتييه بتلذذ : « على أيّ حال، لقد قام بوضع متفجّراتٍ حقيقيّة في الحمولة، وليس مفرقعاتك » .

– متفجّرات حقيقيّة؟ وضع متفجّرات حقيقيّة؟

– نعم يا عزيزي، إنّه شخصٌ جديٌّ، لا تهمّه سخافات مضخّات الماء تلك .

– لم أتوقّع قطّ أنّه سيفعل بي هكذا مقلب .

– لقد فعلها على الرغم من ذلك. مع الأسف، لم تجر الأمور كما كان يريد؛ فقد تكلّمت أنت كثيراً، وقام ليونيل بتغيير الطواقم، فانتهى به الأمر مع مود .

– « لا أصدّق! » . تأوّه أليكس، وهو يضع يديه على رأسه : « غير معقول...! » .

– « لكنْ » . تابع فوتييه، وإصبعه مرفوع : « إنّه حيوانٌ خبيث، ولم يعدم الحيلة، لم يدع مود تشكّل عائقاً له، فلقد عمل على أن تقع في غرامه، ولم يكن ذلك بالأمر الصعب نظراً إلى وجهه الجميل وغموضه » .

– « ماذا تقول؟ » . قاطع ليونيل : « مود مغرمة به؟ توقّف عندك، أنت تبالغ؛ لم تكن في حياتها مغرمة بأحد... وهذه مشكلتها على أيّ حال » .

نبرة صوته كانت تدلّ على أنّ جرحه لم يندمل .

– توقّف عن التفكير كالأطفال، أرجوك! عليك أن تقبل الأمر، فهي لم تهتمّ لأمرك يوماً، واليوم اهتمامها بك هو أقلّ ما يكون .

– « اِخرس! » . صرخ ليونيل منتفضاً .

لقد أخذ وجهه السمة العابسة نفسها التي رآها أليكس حين كان يشكّ به .

– لماذا تريدني أن أخرس؟ في الحياة، عليك أن تتعلّم رؤية الأمور كما هي، وإلّا لن نصل إلى أيّ شيء. والحقيقة هي أنّ صديقتك مغرمة بالفارس مارك حتّى النخاع .

– اِخرس!

كرّر ليونيل هذه الكلمات تلقائيّاً، لكنّه عاد وجلس، ونظره هائم، وبدأ غضبه يتحوّل إلى تعاسة .

– « في مركز العُطَل » . تابع فوتييه بلا رحمة : « قاموا بتمضية اللّيلة معاً في الدور الأوّل. سأوفّر عليك تفاصيل الآثار التي تركوها، والتي تدلّ في الحقيقة على أنّ الشابّة لم تكن لديها أيّة خبرة؛ أمّا الآن، فقد أصبحت تعرف الحياة » .

لزم ليونيل الصمت، وهو يمسك رأسه بيديه، ثمّ نهض هادئاً ومستسلماً، وكان لصرامة فوتييه تأثيرٌ مهدئٌ عليه، وكره كلامه، لكنّ هذ الإفشاء وضع حدّاً للكذبة التي

هو نفسه لم يعد يصدّقها، لقد كان شبه مرتاحٍ، والتفت إلى فوتييه قائلاً من دون أيّة عدوانيّة .

– لماذا انتظرت أن نصبح هنا كي تتكلّم؟ لماذا لم تتكلّم حين كنّا في مركز القيادة؟ كنّا سلّمناه، وانتهت القصّة حينها .

– أجل، كان باستطاعتي جعلهم يوقفونه حين كنّا في مركز القيادة، وكانوا سيسجنونه ويقدّمونه إلى المحاكمة، لكنّه واسع الحيلة، وكان بإمكانه أن ينكر، أو أن يقول : إنّنا شركاؤه، كي نسقط معه .

– « هذا صحيح » . وافق ليونيل .

– « على كل حال » . تابع فوتييه : « ليست لديّ أيّ رغبة في أن يذهب إلى السجن » .

– لماذا؟

– أفضّل أن أهتمّ به بنفسي .

صمتٌ طويل . أبرز ضوء الشمس المشرقة بلون أصفر مثل لون القشّ بقع الثلج على الأرض الطينيّة السوداء، فنظر ليونيل المنحني على نار السخّان المزرقّة إلى أليكس الذي ما زال تحت تأثير المخدّر الذي دسّه مارك له، ورأى أنّه ينعس من جديد، وهو يستند إلى مرفقه .

– « تمام » . أضاف ليونيل، وهو يرفع كتفيه : « سنهتمّ نحن بالأمر، ولكنْ أيمكنك أن تقول لي كيف؟ » .

– سنقوم بدايةً بإصلاح الشاحنة بسلام، وأنا متأكّدٌ من أنّه يمكننا أن نجد مزرعةً في المحيط تحوي منفاخاً، أو ضاغطاً .

ثمّ أضاف فوتييه بنبرةٍ خافتة :

– أمّا فيما يخصّ الباقي، فلا داعي للقلق؛ سيحصلون على ما يستحقّون، ومن الأفضل ألّا نكون بالقرب منهم حين يحصل ذلك .

– « ماذا حضّرت لهما؟ » . سأل ليونيل .

تدثّر فوتييه بمعطفه الجلديّ الكنديّ الجديد، وغمز ليونيل، وهو يشير بذقنه إلى أليكس كي ينصحه بالحذر .

– « هذه منطقة خطر » . تابع بصوتٍ منخفض : « لقد رأيت البارحة أنّ هناك مليشيات منفلتة، وعصابات قتلة تجوب المكان؛ إنّهم قادرون على التسبّب بالكثير من الخسائر » .

– « هل تقصد أنّهم سيصادفون أشخاصاً كهؤلاء؟ » . قال ليونيل جَفلاً : « كيف يمكنك أن تعرف؟ » .

– هو الحدس، ربّما .

بحث فوتييه عن قلنسوته في جيبه كي يغطّي بها رأسه الأصلع، وكان ليونيل شاحباً .

– لا تقل : إنّك جنّدت قتلةً لملاحقتهم . . .

لم يُجب فوتييه، وكان يبتسم، وعلى وجهه تعبيرٌ ينمّ عن الشرّ والقسوة، وكان من السهل فهْم أنّه لم يكن يريد أن يعطي أيّة معلومات إضافيّة .

لم يُلحّ ليونيل، ففكرة أن يكون شريكاً في جريمة قتلٍ بدت مرعبةً بالنسبة إليه، لكنْ لن يكون بمقدوره في الوقت نفسه، إذا سارت الأمور على هذا النحو، أن يمنع نفسه من الشعور بسعادةٍ حقيقيّةٍ؛ ففكرة الانتقام كانت تعجبه في المجمل بشرط ألّا يحمل تبعاتها؛ أمّا فوتييه، فلم يكن لديه هذا الوازع .

في تلك اللحظة، كان ليونيل يجده لطيفاً بشعره الأصهب، وعينيه الصغيرتين اللامعتين .

2

كانا يتناوبان على القيادة، وبقيت مود خلف المقود لثلاث ساعات، وعادت الآن إلى الكرسيّ الجانبيّ، وكان من المفترض أن تغفو قليلاً، لكنّها شعرت بإثارةٍ كبيرةٍ منعتها من النوم .

– كم من الوقت يلزمنا كي نصل إلى (كاكاني) ؟

– لسنا ذاهبين إلى (كاكاني) .

عدّلت من جلستها :

– صحيح؟ إلى أين نحن ذاهبون إذنْ؟

– حيث ينتظروننا .

لو أتاها هذا الجواب من شخصٍ آخر لَأثار غضبها؛ فقد كانت تكره ألّا يُجاب عن أسئلتها، كما لو أنّها كانت لا تؤتمن على معلوماتٍ مهمّة، لكنّها بدأت تعرف طباع مارك، إنّه يجيب تماماً على قدْر السؤال، وما من شكٍّ في أنّ ذلك مردّه تدريبه العسكريّ، وإذا أردنا أن نعرف أكثر علينا طرح المزيد من الأسئلة .

– من ينتظرنا وأين؟

أفلت المقود من يده اليسرى، وراح يفرك عينيه، وكانت تلك الحركة الوحيدة الدالّة على التعب التي كان يسمح لنفسه بها، وعادةً ما يقوم بها أيضاً حين يشرع بإلقاء خطابٍ طويلٍ، بما يعني أنّه كان نادراً جدّاً ما يقوم بها .

– ماذا روى لك أليكس تماماً عن (كاكاني) ؟

من الواضح أنّ هذا السؤال كان يهدف إلى تحديد النقطة التي عليه أن يبدأ منها روايته، آملاً أن يحكي أقلّ ما يمكن .

– لقد حدّثني عن صديقته بوبا، وقال لي : إنّك كنت تذهب دائماً عند الكرواتيّين الذين يحاصرون المخيّم .

– هذا كلّ شيء؟

– بالمجمل نعم، أنا لا أخفي عنك أيضاً أنّ ما قاله لي قد فاجأني، يبدو أنّ هؤلاء الأشخاص أوغاد؛ يقومون برمي الحجارة على اللاجئين عندما يقتربون من الأسلاك الشائكة .

انتظر مارك أن ينتهي من تجاوز منعطفٍ نازلٍ قبل أن يتابع الكلام .

– الأوغاد موجودون في كلّ جانب. ألم تذهبي قطّ من قبل إلى بلدٍ في حالة حرب؟

– على الإطلاق .

– الحرب الأهليّة يمكن أن تُلخّص بكلمتين : انتصار الأوغاد. نراهم يأتون من كلّ صوب، حتى إنّنا نفاجأ بأنّه يوجد منهم هذا القدْر كلّه، وأنّنا لا نلحظهم أكثر من المعتاد .

هزّت مود رأسها موافقةً، وكانت قادرةً على رؤية هؤلاء الأوغاد. لقد وجدتهم في الأوساط كافّةً، وفي الظروف كلّها، وكانت قادرةً على كشفهم على الرغم من تنكّرهم، وقالت في قرارة نفسها : إنّها ربّما كانت منذ البداية ترى العالم كما لو أنّه ساحة حرب .

– « لكنْ » . تابع مارك : « ليس لذلك أيّة أهميّة؛ فالأوغاد هُم نتاج الحرب، وليس سببها، وفي أغلب الأحيان، المسؤولون الحقيقيّون هُم الذين يدفعون الناس إلى العنف، ويشعلون الحروب، وهُم أشخاصٌ جيّدون، وصادقون، وكريمون، ومثقّفون، وعلى كلّ حال، هذا ليس موضوع النقاش » .

– هذا ليس سبباً يدفع إلى التقرّب من الأوغاد .

– الكرواتيّون الذين يحاصرون المخيّم ليسوا أوغاداً كلّهم .

لم تقتنع مود كثيراً بهذا الكلام .

– كان بودّي ألّا يكونوا، لكنّ أليكس روى لي ما قاموا بفعله بعائلة بوبا .

– بالتأكيد، ما إنْ بدأت الحرب حتّى انفلت عقال المحيطين والجيران الغيورين كلّهم، لكنْ هذا ليس حال الذين يقاتلون كلّهم .

انقشاع الغيوم الصباحيّ لم يدم طويلاً؛ فقد اجتاحت السماء غيومٌ سوداء، وغطّت طبقاتٌ من الضباب بعض أقسام الطريق التي تقع في قعر الوادي، ولم يكن مارك يبطء في تلك المناطق، لكنّه كان يزيد من حذره؛ لأنّه كاد لمرّتين، أو ثلاث يصطدم بالعربات الخشبيّة التي لا تظهر إلّا في آخر لحظةٍ من شدة الضباب .

– كنت على معرفةٍ جيّدةٍ بلاجئي المنجم، وأستطيع القول : إنّني أحببتهم، وذلك ليس بالأمر الصعب؛ إنّهم أناسٌ عُزّل، وضحايا نساء وأطفال، وليسامحني على ما أقول من يعمل في المجال الإنسانيّ، يستطيع الناس كلّهم إظهار تعاطفهم مع الضحايا .

كان باستطاعة مود مناقشة هذه النقطة، فتساءلت إن كان الإنسانيّون، مثل : ليونيل على سبيل المثال، يتعاطفون حقّاً مع الضحايا، أم كانوا من خلالهم يستسيغون فكرة القدرة على المساعدة؛ أي : أن يشعروا بتفوّقهم عليهم، لكنْ هذه كانت قضيّة أُخرى .

– « على كلّ حال » . قال مارك : « إنّه لأمرٌ أصعب أن تتعاطفي مع مقاتلين، أناس ذوي هممٍ عاليةٍ، يقاتلون ولا يمدّون أيديهم طلباً للطعام » .

التفت نحوها للحظةٍ، وابتسم لها . كانت ابتسامةً وقوراً وحزينةً قليلاً، تولّد لديها الانطباع بأنّها لم تكن موجّهةً إليها .

– صحيح، لقد أصبح لديّ أصدقاء كرواتيّون، من الفئات كلّها، منهم من كانوا جنوداً بكلّ بساطة، ومنهم من كانوا يحاربون رغماً عنهم من دون أن يكنّوا الكراهية لأحد .

– ليسوا مضطّرّين إلى القتال في مثل هذه الحالة .

– تعلمين أنّه حين تنهار الدولة لا يكون لديك الخيار، عليك أن تذودي عن أرضك، وتحمي من يخصّك . من الصعب علينا تخيّل ذلك .

– ربّما .

- الجنود النظاميّون ليسوا مثيرين للاهتمام عامّةً، ولا يعلمون الكثير عمّا يجري، يعرفون ماذا يدور حولهم، هذا كلّ شيء، ويطيعون الأوامر، لكنْ هنالك أشخاص أيضاً ذوو بصيرةٍ نافذة.

- عسكريّون حقيقيّون، أليس كذلك؟

ابتسمت مود، وهي تعطي هذه الملحوظة، لكنّ مارك لم يتجاوب مع مزاحها.

- ليس بالضرورة على الإطلاق، إنّه ليس جيشاً محترفاً؛ فمعظم الرجال الذين يقاتلون في صفوفه ليسوا عسكريّين محترفين. لديّ صديقان : أحدهما طبيب، والآخر مهندس عمارة، وضعا رتباً كي يبدوا كضبّاطٍ حقيقيّين، لكنّهما كانا مدنيّين في المقام الأوّل .

- ما كان دورهما؟

- الطبيب اسمه فليبوفيتش؛ كان يعمل طبيب قلبيّة في (بانيا لوكا) ، ذهب في بداية الحرب إلى (فوكوفار) حين قصفها الصرب ليعالج الجرحى، لكنْ سرعان ما تسلّح وأصبح كولونيل في غضون شهرين، وكان هو من يدير قطاع (كاكاني) حين تعرّفت إليه.

- ومهندس العمارة؟

- هو أصغر سنّاً، يبلغ من العمر خمساً وثلاثين عاماً تقريباً، كان قد تخرّج في الحال حين اندلعت الحرب، واسمه مارتيش، تعود أصوله إلى موستار، هرب حين قام المسلمون بتطهير حيّه عرقيّاً، وأصبح في (كاكاني) قائداً في سلاح المدفعيّة، وكانت مهمّته، كما كان يقول؛ تدمير المنازل عوضاً عن إعمارها، لكنْ ظلّ يعتقد أنّه يعمل في الاختصاص نفسه .

رمق مارك مود بنظرةٍ مشفوعةٍ بابتسامةٍ صغيرةٍ ارتسمت على طرف شفاهه، فقالت في نفسها : إنّه يتمتّع بحسّ فكاهةٍ، لكنّها فكاهةٌ سوداء تتمحور دوماً حول الدمار والموت.

توقّعت أن يكمل قصّته، لكنّه قام بالدوس على الفرامل فجأةً! لزم الصمت، وراح يحدّق في الضباب، منحنياً إلى الأمام، والقلق يعتريه .

- « ما هذا الشيء هناك؟ » . قال مارك .

لم يصادفوا حواجز منذ أن هربوا، ربّما كان ذلك أمراً طبيعيّاً؛ فالحدود بين الجيوب في هذه المنطقة كانت دائمة التغيّر، أو ربّما قاما بتجاوز حدودٍ لا يحرسها أحد، لكنْ ذاك احتمالٌ ضئيل، وعليهما على أيّ حال أن يبقيا يقظين؛ ففي هذا الضباب الذي ما فتئ يزداد كثافةً، من الممكن مصادفة حاجزٍ من دون تبيّنه من مسافةٍ بعيدة.

كانت هنالك أشكالٌ معتمةٌ على بعد مئة مترٍ منهم تغلق الطريق، ومن بعيد، على الرغم من ذلك، لم يكن يبدو الأمر كأنّهم عناصر حاجز، بل بدت الأشكال أشبه بقافلةٍ متوقّفةٍ يحوم حولها رجال .

- « لا يبدو أنّهم يتقدّمون » . قالت مود : « أتظنّ أنّهم قد رأونا؟ » .

أطفأ مارك المحرّك، وعلّق فرامل اليد. لقد كانا يختبآن خلف ستارةٍ من الأشجار، وما من شكٍّ في أنّهما كانا يأملان أنّ الرجال الواقفين على الطريق، مع وجود الضباب؛ لم يسمعوهما، وهُما يقتربان. فكّر مارك بسرعة. كلّ شيءٍ كان يحمل على الاعتقاد بأنّه شيء يشبه الكمين، لكنْ من الذي نصبه؟ من غير المحتمل أن يكون ليونيل والآخرون قد استطاعوا أن يرسلوا إنذاراً إلى الأمم المتّحدة؛ لقد كانوا بعيدين عن أيّة قاعدةٍ حين تركوهم، لكنْ بالطبع، من الممكن أن يكون ذلك بمحض المصادفة، كأن تكون قافلة للأمم المتّحدة قد مرّت بالقرب منهم، وبلّغت الوحدات كافّةً عن هروبهم عن طريق شبكتهم اللا سلكيّة، إلّا إذا كان ذلك شيئاً مختلفاً تماماً. فكّر مارك. وفي تلك الحالة، ليس من الممكن سوى توقّع فرضيّات سيّئة .

كما توقّع فوتييه؛ لم يجدوا صعوبةً في العثور على مزرعةٍ بالقرب منهم، فالمُزارع لم يذهب للالتحاق بالقتال، وهذا أمرٌ استثنائيٌّ، كونه كان يعيش وحيداً، ومن دون وجوده في المزرعة يفقد محصوله. لقد أتى بنفسه لينفخ الإطار بمنفاخٍ كهربائيٍّ يعمل على بطاريّة، وبعد ذلك قاموا بارتداء ملابسهم، وطيّ خيامهم بهدوءٍ، وصفّ أواني المطبخ ببطءٍ، وها هُم الآن يسيرون على طريقٍ مستقيمٍ تقريباً، تحدّه أشجار نغت يابسة. ليونيل يغنّي بصوتٍ مكتومٍ مقاطع من أغاني الراب، وهو يقود الشاحنة. جلس فوتييه هادئاً على الجانب الأيمن من المقعد الأمامي؛ أمّا أليكس، الذي لم يكن جسمه قد تخلّص من المخدّر على نحوٍ كامل، كان ينام على السرير الخلفيّ.

- قل لي، فوتييه : أتعمل لحساب أصدقائك المخبرين الذين التقيت بهم في المدينة ذلك اليوم؟

- نعم، يمكنك أن تقول ذلك.

- أنت لم تنخرط في جمعيّة لاتيت دور لتكتشف مناطق جديدة إذن .

- تماماً.

- كنت تراقبنا.

- قطعاً لا!

لم تكن نبرة كلام ليونيل تنمّ عن ملامةٍ ما، لقد كان أكثر فأكثر شاكراً فوتييه لإنقاذه الموقف، وكان يكنُّ له نوعاً من الفضول يشبه الانبهار .

- لم تكن تتجسّس علينا؟

- لا .

- أصدقك القول بأنّني لا أستوعب ذلك.

- لكنّ الأمر بسيطٌ على الرغم من ذلك؛ أصدقائي في المخابرات كانوا في حاجةٍ إلى معلوماتٍ حول ما يجري في هذا البلد : مناطق القتال، والقوّات الموجودة على الأرض، وخطوط الجبهات؛ لذلك قاموا بتكليفي بهذه المهمّة، وفي قافلةٍ كهذه، نتنقل ونجتاز مناطق لا يصل إليها أحد، ويمكننا التكلّم بحريّة إلى الجميع، لهذا السبب انضممت إلى مهمّتكم، ولم يكن ذلك بالتأكيد لاهتمامي بقصص المراهقين الذين تملأ وجوههم البثور مثلكم .

لم يكن ليونيل سعيداً بمعرفة أنّ قافلته كانت مراقبةً من قِبل المخابرات، لكنّه أحسّ بالفخر في الوقت نفسه؛ لأنّ فوتييه كان يثق فيه كفاية كي يخبره بالأمر بكلّ صراحة. على أيّ حال، كان يشعر الآن أنّه يقف إلى جانبه.

- لمّا علمت أنّكم مخترقين من قِبل هذين العسكريّين السابقين، اضطّررت بالطبع إلى إخبار رؤسائي أيضاً، ولقد أحسنت الفعل، فهكذا تمكّنوا من القيام بمقاطعة معلوماتهم، ومعرفة ما يحضّره ابن العاهرة هذا.

تأفف أليكس في الخلف، وهو يحاول الجلوس. فرك عينيه، وكان شعره أشْعَث. صمت فوتييه حين رأى أنّه استيقظ، وراح يتلمّس حلق أذنه، ويحول عينيه قليلاً كما هي الحال دائماً حين ينتابه الغضب .

3

كانا ما يزالان متوقّفين، والضباب من حولهما يزداد كثافةً، أو أنّه كان انطباعاً تولّد نتيجة بداية حلول اللّيل. على كلّ حال، كانت الرؤية تزداد صعوبةً، ولم يشعل مارك أضواء الشاحنة الأماميّة، وبعد قليل أحاطتهم الظلمة.

- « أتظنّ أنّهم قد رأونا؟ » . سألت مود .

- لكانوا تقدّموا.

- إن كان ذلك حاجزاً، فمن الخطر أن نختبئ بالقرب منه، أليس كذلك؟

- لا أظنّ أنّه حاجز .

- لِمَ؟

أثارت هذه الأسئلة بوضوحٍ توتّر مارك، لقد كان مركّزاً يبحث عن حلّ. الأشكال البعيدة على الطريق لم تتحرّك، والأمر المثير للقلق هو أنّ هذه الأطياف لم تشعل ناراً، وقد حلّ الآن ظلامٌ دامسٌ، ففتح مارك الباب وترجّل إلى الطريق، لم يكن الطريق عريضاً كفايةً بما يسمح للشاحنة بالالتفاف من دون مناورة، لا سيّما أنّها كانت تعاني صعوبةً في الالتفاف، والخندقان على جانبيّ الطريق كانا ممتلئين بشجيراتٍ، فقام مارك بمدّ رجله فيها بغية تفحّص عمقها، وكان الخندقان عميقين، وإنْ علق بأحدهما إطارٌ لن يكون هنالك من وسيلة تخرجه منه، فقام بالسير لبضع لحظاتٍ ليتأكّد ممّا إذا كان يوجد في الخلف مدخلٌ لحقلٍ، أو قطعة عريضة من الطريق، إلّا أنّه لم يجد شيئاً، فعاد إلى الشاحنة، وصعد إلى مقعده.

- « ما العمل الآن؟ » . سألت مود.

لقد غلبها الخوف، ووجود مارك كان يؤثّر عليها بطريقتين متناقضتين؛ كان هو من سبّب هذا الاستنفار. بطريقةٍ ما كانت تشعر بخوفه، وفي الوقت نفسه، كان وجوده مطمئناً لها؛ ستتّكل بعد الآن على القرار الذي سيأخذه.

– ستتولّين القيادة في حين أقوم أنا بدفع الشاحنة إلى الخلف. الطريق مائلٌ قليلاً، والأرض مستوية، ومن المفترض أن أستطيع تحريكها. حافظي على الباب مفتوحاً، وانتبهي إلى مسارك؛ فهناك خنادقُ على كلّ جانبٍ من الطريق. إنْ رأيتُ أنّكِ تنحرفين سأطرق على صفيح غطاء المحرّك.

جلست مود بانسيابيّةٍ على كرسي السائق، واصطدمت من جرّاء الظلام بمارك الذي لم يكن قد نزل بعد، كان ذلك أقوى منها، فتشبّثت به، وأمسكته من عنقه. لم تكن ترى وجهه، فقامت بتلمّسه حتّى وجدت شفاهه، لقد كانتا ما تزالان قاسيتين ومتوتّرتين كما هي الحال حين يلبس وجهه النهاريّ، لكنْ مع ملامسة شفتيها، أحسّت بأنّ شفتيه قد استسلمتا وطالت قبلتهما، وفي هذه الليلة غير المقمرة، مع البرد الذي ينسل، والخطر المُحدق، كانت هذه القبلة كالملجأ، عبارة عن إنكارٍ لوجود العالم، ولم تكن ترغب بأن تنتهي، وأحسّت برغبةٍ أعمق وأعمّ تجتاحها، لكنّ مارك دفعها عنه، وترجّل إلى الطريق.

احتاجت إلى وقتٍ طويلٍ كي تتمالك نفسها من جديد .

– « هيّا بنا » . قال مارك.

أرخت فرامل اليد، وتأكّدت من أنّ علبة السرعة غير معشّقة على أيّة سرعة، ثمّ جهّزت نفسها واضعةً يديها على المقود، وجسدها منحنٍ نحو الخارج، وكان الطريق المعتم بالكاد أكثر وضوحاً من أطرافه.

– أنا جاهزة.

أحسّت بأنّ مارك قد استند إلى قدميه، وراح يدفع بكلّ ما أوتي من قوّةٍ؛ لأنّه كان يئنّ، وبعد برهةٍ توقّف عن الدفع، وهو يتنفّس بصوتٍ عالٍ، فلم تتزحزح الشاحنة من مكانها.

– « فلنعاود المحاولة » . قال مارك .

أعطت إشارة البدء مرّةً أُخرى، فعاود هو الدفع، فشعرت هذه المرّة أنّ الشاحنة تراجعت قليلاً قبل أن تعود إلى وضعها السابق.

– سوف أحرّر الإطارات، لا بدّ من أنّ أحدها عالقٌ بأخدود.

سمعته، وهو يدور حول الشاحنة، ويخدش الأرض.

قاموا بمحاولات أربع من دون أن ينجحوا، فصعد مارك الشاحنة مجدّداً؛ أمّا مود، فقد شعرت بأنّه كان يفكّر مليّاً، فلم تطرح عليه أيّ سؤال، وأحسّت بعد برهةٍ بأنّ الصمت كان لديه ميزة معيّنة، وبعد قليلٍ شعرت بندف الثلج تتساقط على الزجاج الأماميّ .

خطرت لهما الفكرة نفسها : لو تساقط الثلج على نحوٍ كافٍ سيخمد الأصوات، وقد يغطّي آثارهما . لا بدّ من أنّ الرجال هناك في البعيد قد التجأوا إلى سيّاراتهم، ولن يكون بمقدورهم سماع ضوضاء الخارج جيّداً . انتظرا لمدّةٍ طويلةٍ، كان الثلج فيها يتابع هطوله، وبدأ المنظر يأخذ مظهراً شاحباً، وكان هذا يسمح بالتمييز بين الأرض البيضاء والسماء الحالكة، فترجّل مارك، ودار حول الشاحنة، فتركت مود له مكانها خلف المقود . أدار مفتاح التشغيل، فدار محرّك الديزل عند المحاولة الثانية .

على الفور، ومن دون إضاعة ثانية، قام بتعشيق مسنّن السير إلى الخلف، وبدأ بالنزول وبالدوس على الفرامل بضرباتٍ قصيرةٍ؛ بحيث استطاع أن يسخّر الأضواء الخلفيّة التي تضيء عند الدوس عليها كي يرى مساره . ببطءٍ ومن دون أيّة حركةٍ فجائيّةٍ استطاع الرجوع إلى مسافة مئة متر، وفي هذا المكان، لم تكن الشاحنة في مجال رؤية رجال الكمين، فأشعل مارك الأضواء الأماميّة، وكان هناك طريقٌ حراجيٌّ ضيّقٌ وطينيٌّ إلى جهة اليسار، والثلج الذي علق على أشجار السرو التي تحدّ الطريق من الجانبين لم يكن قد غطّى الأرض بعد، فدخل بشاحنته في هذا الطريق، وأفضى الطريق بعد ثلاثين، أو أربعين متراً صعوداً إلى فسحةٍ، كميّة من جذوع الأشجار المُكدّسة بعنايةٍ كانت بلا شكّ تنتظر أن تُحمَّل . ركن مارك الشاحنة بمحاذاة أحد الجدران، وأطفأ المحرّك .

– سنمضي اللّيلة هنا؟

– نعم . غداً سأذهب لأرى إن كان الحاجز ما يزال موجوداً .

دخل الهواء الرطب داخل قمرة القيادة، ولم تكن هناك تدفئة كهربائيّة، ولا فراش في هذه الشاحنة .

– ماذا نفعل الآن؟ هل ننصب خيمة؟

– من الأفضل أن نبقى في الشاحنة تحسّباً لحصول شيءٍ ما ...

أخرجت مود سترةً شتويّةً ثانية وتدثّرت بها، وفتحت كيس النوم خاصّتها واستعملته كغطاء .

– « تمدّدي على المقعد » . قال لها مارك .

كانت قمرة القيادة ضيّقةً إلى درجة أنّها حين تمدّدت وضعت رأسها على ركبتي مارك .

– وأنت؟ لن تستطيع النوم هكذا .

– لا تقلقي .

كان يداعب شعرها، وتأسّفت للمرّة الأولى أنّه كان قصيراً؛ كانت تتمنّى لو كان بإمكانها أن تغطّيه بضفائر طويلةٍ حريريّةٍ كي يشعر بنعومتها تحت أصابعه، ولكي تدفئه قليلاً .

لقد كانت الغابة ساكنةً جدّاً، وأحسّت مود بانتشار حرارة جسدها تحت الغطاء الناعم . لقد كانت مصمّمةً على البقاء مستيقظةً، لكنّها في غضون عدّة لحظاتٍ استغرقت في نومٍ عميق .

حين استفاقت كان ضوء نهارٍ شاحبٌ قد بزغ، فأدركت أنّ مارك قام باستبدال حقيبة ظهرٍ بركبتيه، ولم يكن موجوداً في القمرة، فنظرت من حولها، وكان هطول الثلج قد توقّف بعد أن هطل مدّةً طويلةً من اللّيل؛ لأنّ الأرض كانت بيضاء، والأغصان مكسوّة بطبقةٍ من الثلج اللمّاع . الفسحة ظهرت أكبر ممّا ظنّتها البارحة، وأكواخ الحطّابين تشغل جانباً كاملاً منها . كان مارك جالساً على مدخل إحداها يسخّن الماء على سخّانٍ أخرجه من الشاحنة، فانتعلت حذاءها ونزلت لتنضمّ إليه .

– ألم تنم؟

– ليس كثيراً . أتريدين قهوة؟

مدّ يده لها بفنجانٍ يخرج منه البخار .

– لقد ذهبوا .

– كيف عرفت؟

- لقد صعدت حتّى أعلى المنحدر، وراقبتهم بالمنظار.

- هل عرفت من كانوا أخيراً؟

- مجموعة من الأشخاص يلبسون زيّاً موحّداً من دون أيّة رتب. يبدو أنّهم مليشيات.

- المجرمون الذين قتلوا القرويّين؟

- هُم، أو آخرون.

- هل يبحثون عنّا؟

- ربّما.

كانت تشرب قهوتها الحارقة بجرعاتٍ صغيرة .

- أتظن أنّ قلقنا لم يكن له داع؟

- لا يهمّ. الأفضل ألّا نخاطر.

- أتظنّ أنّ فوتييه والآخرين نجحوا في إطلاق الإنذار؟

- من الممكن، لكنْ على أيّ حال، لم يعد لهذا الآن أيّة أهميّة، سنترك الطريق بعد خمسة كيلومترات.

- سنترك الطريق! لكنْ لنذهب إلى أين؟

كانا يسيران على محورٍ فرعيٍّ؛ حيث لا يمرّ أحدٌ تقريباً، ولم تكن تتخيّل أنّه بالإمكان السير بالشاحنة في طريقٍ أصغر، إلّا لبضعة أمتارٍ بغية الاختباء.

- سنقوم بأخذ طريقٍ مختصرٍ يمرّ عبر الجبل.

بدا مارك يعرف ما الذي يقوم به، فلم تطرح أيّ سؤال.

أكل كلّ واحدٍ منهما قطعتين من الخبز الجافّ، قام مارك بتقطيعهما بسكّين الجيب، ثمّ قاما بإعادة كلّ شيءٍ إلى الشاحنة، وعاودا الانطلاق.

خرجا من الغابة من دون أيّة صعوبةٍ، فوَصلا إلى المنحدر الذي صعداه البارحة. بزوغ أشعّة الشمس على الثلج أعطى المراعي، وأحراج الصنوبر، منظراً شبيهاً بالمناظر

في جبال الألب التي كانت مود معتادةً عليها. شعرت كأنّها في عطلةٍ، فتذكّرت روائح طبق « الراكليت » ، والجلسات العائليّة حول طاولة الطعام التي أثارت في نفسها مشاعر مختلطة، وهي التي كانت تشعر بوحدةٍ رهيبةٍ ضمن هذا الاجتماع الوديّ والسعيد، الذي كان يمثّله قضاء الأعياد مع العائلة في الجبل، ولم تعِ قطّ من قبل، وبهذا القدر من القسوة، مقدار ما يفصلها عن الآخرين، لا سيّما أقاربها، لكنْ خلال النهار، كانت تذهب للتزلّج وحيدةً خارج المسارات، فتذهب بعيداً في الغابة لينتهي بها الأمر سائرةً على قدميها، حاملةً الزلّاجات، وكانت تعود إلى الشاليه عند حلول اللّيل، مشبعةً بالأحلام إلى درجة أنّها كانت لا تسمع لَوْمَ أهلها بخصوص تهوّرها؛ هذه الذكريات كانت الصورة الأوضح لما تمثّله السعادة بالنسبة إليها .

كما أعلن مارك، وصلا إلى مفترق طرقٍ بعد عدّة كيلومترات. للوهلة الأولى، بدا الدرب اليساريّ كأنّه يفضي ببساطةٍ إلى مزرعة، لكنّ مارك أخرج خريطة أركان دقيقة كان يحتفظ بها مبسوطة على علبة الساعات. أشار لمود إلى الخطّ الضيّق الذي يمرّ عبر الجبال، فاتّبعا هذا الطريق، ولم يمرّ فيه أحد منذ البارحة، وتركا خلفهما على الأرض البيضاء من الثلج خطّين متوازيين يتيمين .

***

احتاج أليكس إلى يومٍ وليلتين كي يتخلّص كليّاً من آثار المنوّم.

خرج من الخيمة التي نام فيها وحيداً، وأخذ يتمطّى، وكان ليونيل وفوتييه ما يزالان نائمين، فتذكّر بصورةٍ مبهمةٍ أنّهم قد تحدّثوا مطوّلاً البارحة، لكنّ ذاكرته كانت مشوّشةً بسبب الأدوية. سخّن لنفسه كوباً من القهوة وشربها ببطءٍ، وهو جالسٌ على كرسيٍّ مطويّ، وكانت الأرض مغطّاةً بالثلج، وفكّر بأنّه لا بدّ من أن تكون بوبا تشعر بالبرد في فرنها الكئيب، وكان يرغب بأن يكون بالقرب منها، ولم تستطع أيّة امرأةٍ أُخرى أن تقلب حياته بهذا الشكل. كان يتساءل أحيانا : من أين لها قوّة التأثير هذه؟

الثلج يمثّل بالنسبة إلى أليكس عالم طفولته؛ فقد كان يعشقه عندما كان صغيراً، ولطالما انتظر هطول الندف الأولى طيلة الخريف، وما من عيد ميلاد لا يقترن بالثلج بالنسبة إليه، وحصل ذلك مرّةً، وكان تعِساً جدّاً، كما أنّه ارتاد المدرسة متأخّراً؛ لأنّ أمّه كانت تبقى في المنزل، وتفضّل أن ترعاه بنفسها. التهكّمات الأولى حصلت في المدرسة،

لم تكن شرّيرةً فعليّاً، ولم يقم رفاقه بالسخرية منه سوى بترديد ما سمعوه في منازلهم ربّما، وكان مزاحهم يتمحور كلّه حول المفارقة بين لون بشرته الأسْود وبين بياض الثلج، فأدرك للمرّة الأولى الحالة الفريدة التي يشكّلها؛ إذْ لم يكن أسْود فحسب بين أناسٍ بِيض، إنّما كان أسودَ في الثلج أيضاً، أسودَ نسبيّاً كونه خلاسيّاً، لكنّ لون بشرته كان يبرز بحدّةٍ أكبر على بياض الثلج المطلق، فأخذ على الأقلّ يخشاه إن لم يكن يكرهه.

لم يمنعه هذا الأمر من أن يعيش، أو حتّى من أن يكون سعيداً ولديه أصدقاء، لكنّه حمل معه هذا الجرح السريّ، وهذا الانطباع بأنّ الحياة رمته في مكانٍ ليس مقدّراً له أن يكون فيه، لقد كان يشعر بظلمٍ لا يمكنه إلقاء اللوم فيه على أحد، لكنْ هذا الظلم جعله منفيّاً، شخصاً لا يتماهى مع الأرض التي ولد عليها، والفتيات اللّواتي عاشرنه لم يستطعن فهمه؛ لقد كنّ بيضاوات وجبليّات تعشن في الإطار الملائم لهنّ، فالتقى في (غرونوبل) فتاةً من سكّان جزر الكاريبي كانت قد تركت المارتينيك وهي في الثانية عشرة؛ أي : إنّها لم تعش شيئاً ممّا كانت عليه طفولته هو، ثمّ في أحد الأيّام، وهو يضع قبّعته الزرقاء، رأى بوبا، وكان يوماً مثلجاً كهذا، لقد رأى فيها المنفى ذاته الذي كان يشعر به، منفى كانت أسبابه مختلفة بما أنّ مردّه هو الحرب، إلّا أنّه كان منفى أيضاً، اقتلاعاً من الجذور .

شعر بأنّه يحسّ بألمها، وبأنّها تدرك ألمه أيضاً، وبفضلها توقّف عن كونه ضحيّةً ليصبح المنقذ؛ من يحاول أن ينقذ شخصاً أشدّ تعاسةً منه، فكان هذا يشكّل جزءاً كبيراً من حبّه لبوبا، ومن مشروعه في الذهاب للعيش هناك بعد الحرب، كمن يعالج المنفى بالمنفى.

– بماذا تحلم؟

لم ينتبه لمجيء ليونيل الذي كان يقف خلفه.

– لا شيء. أترغب بفنجان قهوة.

– مع قطعتين من السكّر، شكراً.

حرّك أليكس القهوة في الماء الساخن، وأضاف السكّر، وقدّم الفنجان إلى ليونيل.

– البارحة، كنت فاقداً للوعي طوال النهار .

- لقد وضع لك جرعةً كبيرة.

جلس ليونيل مقابله، وراح ينفخ على الشراب الساخن .

- ربّما كنت أحلم نظراً للحال الذي كنت عليه، لكنْ قل لي، ألم تتحدّثا عن قتلهما من قِبل الميليشيات خارج المعسكر؟

- قتلهما! لمَ هذه الكلمات الكبيرة؟

- ماذا كانت الفكرة إذن؟

كان ليونيل منزعجاً قليلاً، ولم يكن بإمكانه إنكار كلّ شيء، لكنّه لم يكن يريد أن يخبر أليكس بتفاصيل القضيّة كلّها، كونه لم يكن يثق به، خاصّةً أنّه لم يكن يريد أن يحمل أيّة مسؤوليّةٍ في هذه القصّة .

- الفكرة هي إفزاعهم قليلاً على ما أعتقد.

- إفزاعهم قليلاً؟ باللجوء إلى قتلةٍ مأجورين؟ لا يمكنكم فعل هذا.

أدرك أليكس فجأةً جديّة الموقف، فحالته القريبة من الغيبوبة جعلته لا يشارك في اتّخاذ القرارات، وربّما قد فات الأوان الآن.

- أنتم مجانين تماماً! لقد قام مارك بعملٍ أحمق، أنا متّفقٌ معكم، وأنا أشدّ من يلومه على ذلك، لكنّني لا أوافق على تسليمه إلى القتلة من أجل هذا.

- استمع إليّ جيداً، أليكس، نحن في منطقة حرب، ولا يمكننا أن نسيطر على كلّ شيء، ولن يكون ذلك خطأنا إن قامت قوّات غير عسكريّة بقتله، كان عليه ألّا يذهب وحيداً قبلنا .

- يمكنكم التبليغ عنه للأمم المتّحدة، وتسليمه، لكن ليس قتله!

- ألم يقم هو بالمخاطرة بقتلنا بمتفجّراته؟

نهض فوتييه بدوره، وانضمّ إلى الحديث، وهو ينظر نظرة شرٍّ إلى أليكس .

- ما الذي يجري؟

- إنّه قلقٌ ممّا سيحصل لصديقه .

– لطالما ظننت أنّهما على اتّفاقٍ تام، هما عسكريّان في نهاية الأمر .

– « ليس هنا السؤال » . قال أليكس متلعثماً : « ليس لكم الحق في قتله سواء كان عسكريّاً أم لا » .

خطرت له فجأةً فكرة أُخرى.

– ومود، أتريدان تصفيتها هي أيضاً؟

– فاتتك بعض التفاصيل بسبب ما اجترعته. أذكّرك بأنّهما يتضاجعان؛ هي شريكته.

– يتضاجعان!

ردّد أليكس مذهولاً، فنظر إلى ليونيل الذي كان يبتسم متهكّماً، ثمّ نهض فجأة.

– ألهذا السبب تريدها أن تموت؟ تلومها لأنّها رفضتك وأغرمت بمارك؟ أنت لست سوى شخصٍ غيور! أنت مثيرٌ للشفقة!

– هل ستغلق فمك أم لا؟

– « اتركه » . تدخّل فوتييه : « لقد فهمنا الآن. لقد كنّا متأكّدين من أنّه لن يترك صديقه، وكان علينا أن ندعهم يذهبون ثلاثتهم بعد هذا الكلام » .

– أنت أيّها المخبر الممتلئ بالكراهية ...

– « صديقنا يخبرنا بما يجول صراحة في خاطره » . قال فوتييه بهدوءٍ، وهو يغلق جفنيه : « أظنّ أنّ علينا تسليمه للأمم المتّحدة عندما نلتقيهم في المرّة القادمة كي يقوموا بإعادته إلى الوطن » .

– لا حاجة لذلك؛ سأعود من تلقاء نفسي. أنتما تثيران قرفي!

قال أليكس هذه الكلمات وابتعد، ثمّ قام بطوي خيمته بحركاتٍ منفعلة.

أشار فوتييه لليونيل بأن يهدّئ من روعه.

– دعْه يقول ما يحلو له، لا تكترث، لا بدّ من أنّ الأمر قد حُسِم الآن .

أنهيا طعام فطورهما بهدوءٍ، وقاما بترتيب حاجياتهما، ثمّ صعدا الشاحنة .

جلس أليكس في الخلف متصلّباً وصامتاً .

قاد ليونيل من دون أن ينبس بكلمةٍ، في حين كان فوتييه يدندن ليظهر بأنّه في مزاجٍ جيّدٍ، وبأنّه لم يتأثّر بالشتائم البتّة .

انقشع ضباب البارحة، وكانت السماء ما تزال رماديّةً، لكنْ مضيئة أكثر، وكان المنظر الذي اكتسى بالثلج يتجلّى بأشكالٍ لطيفةٍ تدغدغ الحواس، ولا تشي بشيءٍ عن الحرب القائمة.

عند الساعة العاشرة لحظوا من بعيدٍ مجموعةً من الرجال تتقدّم على الطريق، وأغلبهم كانوا راجلين، إلّا أنّ سيّارتَيْ جيب كانتا تلحقان بهما.

– « أستطيع الجزم » . قال فوتييه : « بأنّهم أصدقاؤنا في المليشيات » .

أليكس، الجالس في الخلف، عدّل من وضعيّة جلوسه .

تابعوا مسيرهم إلى أن أصبحوا على بعد عدّة أمتارٍ من المليشيا .

– إنّهم هُم، أستطيع التعرّف إلى أركان؛ ذلك الطويل الذي يعتمر قبّعةً صوفيّةً سوداء.

أحاطت القوّات شبه العسكريّة بالشاحنة رافعين أسلحتهم، فقفز فوتييه على الأرض، واقترب من أركان. لم يسمع ليونيل، ولا أليكس – اللّذان بقيا في الشاحنة – ما كان يقوله، إلّا أنّهما شاهداه يشرح أمراً بانفعال، وكان مُحيّا أفراد الميليشيا شرساً؛ لقد كانوا أشدّ إثارةً للخوف ممّن قابلوهم كلّهم حتّى الآن. على الحواجز، صادفوا عسكريّين منضبطين عامّةً، ويقومون بمهامهم برتابةٍ، أو فلّاحين بالكاد قادرين على حمل السلاح، وكانوا لا يصلحون لأيّ شيءٍ آخر؛ أمّا في هذه الحال، فكانوا يتعاملون مع مقاتلين حقيقيّين من النوع الأشدّ فتكاً : نوع القتلة، كانت نظراتهم باردةً لا تعرف الخوف، أو الرحمة .

اكفهرّ فوتييه مع استرسال قائد المقاتلين بكلامه، وعاد إلى الشاحنة، ففتح ليونيل زجاج نافذته كي يتكلّم معه.

– ماذا قالوا؟

– لم يجدوهم .

- أتمزح؟

- هل أبدو كذلك؟

- هذا غير معقول!

- أركان متأكّد تماماً. لقد صعدوا الطريق بكامله، ولم يجدوا الشاحنة .

شعر أليكس براحةٍ، إلّا أنّه حاذر من إظهار ذلك .

- من غير المعقول، من أين يمكن أن يمرّا؟!

- لا بدّ من أنّهما اختبآ، ويبدو أنّه كان هناك الكثير من الضباب مساء البارحة، إلّا إذا . . .

- إلّا إذا ماذا؟

- دعني ألقي نظرةً على الخريطة .

4

– إلى أين يفضي هذا الطريق؟

نظرت مود إلى الخريطة، إلّا أنّها لم تكن واضحةً جدّاً. الطريق الضيّق الذي سلكاه كان يتفرّع إلى عدّة اتّجاهاتٍ عند وصوله إلى الجبل، وكان هناك أكثر من احتمال

.

– « سنرى أين يكون المرور أسهل » . قال مارك.

– لكنْ لنذهب إلى أين؟

بدّل مارك يده التي على المقود، وقام وهو يتابع القيادة بالإشارة بإصبعه على الخريطة المبسوطة في حضن مود .

– من هنا، إلى الشرق من (زينكا) . ما زلنا في جيب (كاكاني) ، لكنّنا لن نمرّ ضمن المدينة، سنظلّ إلى الغرب منها.

– هل ينتظروننا هناك؟

– نعم .

– من هم؟ صديقاك : الطبيب، ومهندس العمارة؟

– مع آخرين .

لقد كان من المزعج في نهاية الأمر أن تضطرّ إلى انتزاع المعلومات هكذا. طَوت مود الخريطة بحركةٍ سريعة.

– ألا تعتقد أنّه بإمكانك أن تقول لي صراحةً ما سوف نفعل؟ أنا مشتركة بالأمر معك، وأجازف بالقدْر نفسه، وأظنّ أنّ لي الحق بأن أعرف.

لم يقل مارك شيئاً. أخرج منديلاً من جيبه ومسح أنفه، فتساءلت إن أغاظته بكلامها. فلْيكن. كانت تشعر بأنّها بعيدةٌ عنه حين يكون وجهه هكذا، ولم تكن ترى من

مسوّغٍ كي تحتمل منه ما لم يكن بإمكانها تحمّله من أيّ شخصٍ آخر.

– أردت أن أخبرك بكلّ شيء البارحة؛ لكن قوطِعنا.

لقد كان يقول الحقيقة، وخرجت نبرة صوته هادئةً، فلامت نفسها؛ لأنّها كانت عدائيّةً أكثر من اللازم.

– الرجلان اللّذان كلّمتك عنهما، واللذان أصبحا صديقَيّ، هما شخصان بعيدا النظر؛ لقد فهما جيّداً أنّ مصلحتهما تكون في أن يتحالفا مع المسلمين ضدّ الصرب.

– الأمر الذي لا يمنعهما من تهديد اللاجئين الموجودين في المنجم.

– هذه هي اللّعبة الخبيثة التي يلعبها أشقياء المنطقة، لكنّ الأمر مختلفٌ على مستوى آخر، مستوى القادة؛ إذْ إنّهم يتعاونون. أجل، أعرف أنّه من الصعب إدراك ذلك.

– أعتقد أنّ باستطاعتي الفهم.

ابتسم لها، ومدّ يده ليضعها على ركبتها، فجفلت، ليس بسبب الحركة بقدْر الانفعال الجسديّ الذي ولّدته فيها.

– تابع.

– أعدّ صديقاي خطّةً مع مسلمي المنطقة المجاورة. الأمر خارج نطاق خبرتهم، لكنْ في هذه الحرب الأمور تتمّ هكذا أيضاً: هنالك العديد من المبادرات المحليّة، وليس للجيوش إدارة مركزيّة قويّة.

– ما خطّتهم؟

– الفكرة بسيطة حتّى إنْ كان الموقف معقّداً: لا يستطيع صرب البوسنة الاستمرار في محاصرة باقي المجموعات وقصفهم إلّا إن جرى إمدادهم بالسلاح والذخيرة من صربيا، ومن أجل قطع إمداداتهم يجب منعهم من استعمال الطرق التي تؤدّي إلى بلغراد.

فتحت مود الخريطة، وحاولت أن تقرأها.

– من أجل إمداد البوسنة الوسطى، يقومون باستعمال هذه الطريق، هنا؟

كان ذلك محور يسهل إيجاده، خُطِّطَ بخطٍّ أحمر عريض.

– بما أنّهما لا يمتلكان سلاح طيرانٍ، أو مدفعيّةً يستحقّان تسميتهما، فالوسيلة الوحيدة . . .

– تفجير هذا الجسر .

وضعت مود يدها على النقطة التي يلتقي بها الخطّ الأحمر مع خطّ أزرق عموديّ يرمز إلى نهر (دريجنا) . ابتسم مارك. تولّد لديها الانطباع بأنّه تركها تختم حديثها، كما لو كانت طفلاً يُلقَّن الأجوبة، فلامت نفسها لحساسيّتها المفرطة، وفضّلت أن تبتسم.

– « لا ينتظرون سوى متفجّراتنا » . قال مارك .

انتاب مود ما يشبه الدوار؛ فالأسلحة التي كانوا ينقلونها – هي أسلحة، ويجب تسمية الأشياء بمسميّاتها – لم تكن حمولات ممنوعة فقط، وكان عليهم تهريبها، بل كانت أيضاً أدوات عملٍ حربيٍّ، عمل مصيريّ يمكن أن يغيّر وجه النزاع، عمل سيؤدّي في نهاية المطاف إلى حفظ حياة كثيرين، ولكنّه في طبيعة الحال سوف يودي بحياة الكثيرين؛ بالمختصر، سوف يقتلون.

كان الشارع ضيّقاً حقّاً، بالكاد أعرض من الشاحنة أحياناً، وكان الثلج الأبيض يعطي الانطباع بأنّ الطريق سهلٌ، لكنّه كان يخفي أرضاً غير مستوية، والبرودة لم تكن كافيةً كي يقسو الطين، وكانت إطارات الشاحنة تنزلق دائماً. انقشع الأفق مرّةً أمامهم، فرأوا القمم والمنحدرات العالية، كان هذا المشهد ليكون جميلاً لو لم تكن هذه الأراضي العالية تشكّل عائقاً عليهما تجاوزه، فطلبت مود المنظار من مارك، وراحت تحدّق بعيداً. كانت السفوح في أغلبها مغطّاة بالغابات، وكان لا يمكن تمييز أيّ طريق، أو منزل، وكانت المناطق في مجملها مهجورةً وغير مضيافة .

– هل أنت متأكّد من أنّه يمكن المرور من هناك في هذا الوقت من السنة؟

– سنعرف قريباً.

مع انبلاج النهار عمّ الضياء السماء، وتوقّفت السُّحب عن تشكيل سقفٍ رماديٍّ، وتشتتت على شكل قطعٍ مدوّرةٍ تطفو على سطح أزرق شاحب، وارتفعت الحرارة في الخارج قليلاً، فذاب الثلج عن الطريق الذي كان أكثر دفئاً من الحقول، وأصبح الطريق الآن كشريط أسْود يتعرّج على بساطٍ أبيض. مرّوا ضمن العديد من المزارع، وتوقّفوا

أمام إحداها، وقبلت مزارعةٌ تغطّي رأسها بمنديلٍ مزهّرٍ أن تبيعهم بيضاً، وحليباً، وقطعة خبزٍ كبيرة خبزتها في فرنها.

عند بداية بعد الظهر، رأيا طيّارتين مقاتلتين تمرّان في السماء فوق الجبال التي أصبحوا بالقرب منها الآن. كانت الطيّارات تحلّق على علوٍّ منخفض، ولا بدّ من أنّ الطيّارين قد رصدوهما؛ لأنّهما قاما بانعطافٍ قصيرٍ، ومرّا عموديّاً فوق الشاحنة. لقد كان الصرب محظورين من التحليق بقرارٍ من الأمم المتّحدة، وبما أنّ الفصائل الأُخرى لم تكن تمتلك سلاح طيران، فمن المحتمل أن تكون هاتان المقاتلتان عائدتين إلى إحدى دول التحالف الدولي .

– ماذا يريدون؟

– وما أدراني.

أكثر ما في الأمر غرابةً أنّه كان بالإمكان تمييز الشكل الطولانيّ لصواريخ الجو-أرض تحت أجنحة الطائرة. اختفت الطائرتان فجأةً! كما ظهرتا، وراح مارك يركّز على الطريق الذي كانا يتقدّمان عليه ببطء.

– لمن تتبع المنطقة التي نحن فيها الآن؟

– الحاجز الأخير كان كرواتيّاً على ما أذكر.

– هل هناك حواجز أخرى قادمة؟

– سيكون ذلك غريباً؛ هنالك حواجز، لكنْ من السفح الآخر للجبل. لا يوجد أحدٌ في هذه المنطقة .

كان مارك أكثر ارتياحاً منذ أن تركا الطريق الرئيس، وكان الجوّ في قمرة القيادة بهيجاً إلى حدٍّ ما، وحاولت مود أن تلتقط بثّ محطّة راديو، فانتهى بها الأمر إلى أن وجدت محطّة تبثّ موسيقا تقليديّة من البلقان، فيها الكثير من أصوات الطبل والزمر .

– هل أحضّر بعض الشطائر؟

– فكرة جيّدة.

من خلال البحث في صندوقٍ موجودٍ خلف المقاعد، وجدت بقايا جامبون، وقطعة زبدة ملفوفة بورق الرق، وخبز المزارعة كان طريّاً وطازجاً، فأكلا من دون أن يوقفا الشاحنة.

- لذيذ!

- أتعرفين ما ينقصه؟ بعض الطماطم.

ضحكا معاً لأوّل مرّةٍ منذ أن هربا وحْدهما، وتراجع الخوف في نفس مود أعطى مكاناً لنوعٍ من راحةٍ متفائلةٍ جعلتها ترغب بأن تغنّي، فاستلمت القيادة بعد قليل، في حين غرق مارك إلى جانبها في نومٍ ثقيلٍ لم تقلقه هزّات الطريق .

استغلّت ذلك كي تنزع نظاراتها الغليظة. في الحقيقة، لم تكن تخدمها النظارات في شيء، فلقد كانت تعاني قِصَر نظرٍ خفيفاً، وأصرّت على وضع عدساتٍ حين كانت في سنّ المراهقة، واختارت لها إطاراً خشناً أكثر ممّا يجب كي تبدو قبيحة. نظرت إلى نفسها في المرآة الخلفيّة، هكذا سوف يراها مارك، فأمِلتْ أن يجدها جميلة.

كانت، من وقتٍ إلى آخر، تنظر نحوه، وتحدّق في هذا الوجه النائم، وكانت أساريره منفرجةً كاشفةً عن شخصٍ آخر، لم يكن هذا المحارب المتوتّر الذي كان عليه طوال النهار، ولم يكن أيضاً المستسلم للرغبة التي لحظتها في أثناء الحُبّ؛ كان يبدو أكثر شباباً وضعفاً، ومذعوراً تقريباً .

بدا في نومه كطفلٍ محرومٍ من الحنان، هشٍّ، وحزينٍ، وجريح. اضطّربت مود نتيجة للمشاعر التي تملّكتها وهي تنظر إلى هذا الوجه، ولطالما تخيّلت الحُبّ، لكنّه كان يُخيّل إليها دوماً كنوعٍ من الغياب، كقوّةٍ تشعر بها في داخلها من دون أن تجد المجال لاستعمالها، وكانت تفضّل دفن هذه القوّة بعيداً، بحيث تجهل استعمالها، إلى درجة أنّها، في أغلب الأحيان، كانت تنسى أنّها موجودة.

كان في شاليه العُطَل الكبيرة الخاصّة بعائلتها غرفة لم يكن أحدٌ يشغلها، سمّاها أهلها غرفة الأصدقاء. زيّنتها أمّها بعنايةٍ فائقة، لكنْ لم يأتِ أحدٌ إليها يوماً؛ هكذا كان حال هذه الحجيرة من شخصيّتها التي كانت مود تسمّيها حُبّاً، كانت تفضّل عدم فتح بابها كي لا تراها فارغة، وها هو رجُل قد دخل إليها، وبدا كلّ شيءٍ جاهزاً لاستقباله في هذا الفضاء السريّ. هل كان يبادلها المشاعر نفسها؟ لم تكن تستطيع أن تصدّق ذلك. ما

المكان الذي كانت تشغله هي في ذهنه؟ هل فكّر يوماً بهذا؟ هل كان لديه متّسعٌ ليستقبل فيه أحد؟ لم تكن مقتنعة بذلك. أمرٌ غريبٌ أنّ هذه الفكرة لم تكن تؤثّر على مشاعرها، بل على العكس، كانت تشفق عليه لأنّه يحمل هذا النقص، لقد حوّل شخصه إلى قلعةٍ جاهزةٍ لتدافع عن نفسها ضدّ العالم الخارجيّ، ولا بدّ من أنّه كان أكثر من يعاني هذا الفراغ القاسي، لكنّ نعومة وجهه الغافي كانت تظهر أنّه لم يكن راضياً عن ذلك تماماً، وخلصت إلى أنّهما لم يكونا مختلفين في عمقهما، حتّى لو أنّ حياتهما لم تكونا متشابهتين .

***

– أتعتقد حقّاً أنّهما استطاعا الهرب عبر هذا الطريق الضيّق؟

حدّق ليونيل في الخريطة، وعقب لفافة تبغه مُطفأ في فمه .

– « ليس هناك من حلٍّ آخر » . تمتم فوتييه : « كم كنت غبيّاً عندما لم أفكّر في ذلك من قبل! » .

كان وجه ليونيل يدلّ على الارتباك؛ لقد ظنّ بأنّ الحلّ سيكون سهلاً، وها هي الأمور تتعقّد من جديد. نجح مارك في أن يتخلّص منهم، وكلّ شيء يُنبئ بأنّ الأمور ستكون أكثر تعقيداً .

لقد تابع أركان وقتلته طريقهم بحثاً عن ضحايا جُدد بعد حديثه مع فوتييه.

– « لقد تقدّموا كثيراً » . قال ليونيل، ويداه منبسطتان على المقود، وكتفاه متهدّلتان : « لن نستطيع اللحاق بهم » .

– لا تقلق، لن يستطيعا السير سريعاً، ولا التقدّم على الطريق الذي سلكاه. انطلق بالشاحنة.

انطلقوا من جديد، وخيّم صمتٌ ثقيلٌ في المقصورة؛ كان الكلّ غارقاً في أفكاره .

تملّك أليكس – الذي كان يجلس على السرير الخلفيّ – غضبٌ متأخّرٌ، كان لا يفكّر سوى بمساعدة مارك ومود طالما أنّ خطراً محدقاً يهدّدهما؛ أمّا الآن، وقد عرف أنّهما في أمان، مؤقّتاً على الأقل، أخذ يفكّر بمرارةٍ بالخيانة المزدوجة التي كان ضحيّتها،

وأكثر ما كان يثير حنقه هو أنّه قد جرى التخلّي عنه. لطالما كان يكنّ الولاء لمارك، ولم يكن يستوعب لمَ هذا الأخير لم يصحبه معه في هروبه، والخيانة الأخرى كانت تبديل المتفجّرات من دون أن يخبره بشيء؛ لن يكون بالإمكان إنقاذ منجم (كاكاني) من جرّاء ذلك، وستمسي المنطقة خراباً، حين يحلّ السلام من جديد. الغريب في الأمر أنّ هذا أثّر على مشاعره تجاه بوبا، فقد كان أليكس ما يزال يشعر بالرغبة بأن يلتحق بها، لكنّ شيئاً ما قد ضعف، أو ربّما انكسر، وكان يدرك أنّها كانت تمثّل أكثر من نفسها بالنسبة إليه، لقد بدأ هذه المغامرة مدفوعاً بفكرة أنّه لن ينقذ شخصاً واحداً، بل البلد بأكمله، وكان ذلك مثيراً للسخرية بالفعل، لكنّه في الوقت نفسه كان مقتنعاً بذلك، كما لو أنّه كان يريد بهذا العمل الخطر أن يندمج بهذه القطعة من الأرض، أن تصبح أرضه، والعودة إليها الآن لن تكون سوى عبارة عن منفى آخر بالنسبة إليه.

اجترّ أليكس غضبه الذي خفتت حدّته تدريجيّاً. كان يفهم في قرارة نفسه ما أقدم عليه مارك حتّى إن لم يشاركه التزامه، لقد كان لديهما مفهومان متنافران عن الحرب، ولم يكن هنالك مجال للمساومة، فتصرّف مارك حسب قناعاته، ولم يكن يلومه على ذلك، كما أنّه، من وجهة نظرٍ عمليّةٍ؛ كان من المستحيل في موقفٍ ملحٍّ كهذا، تدبير هروب ثلاثة أشخاص، وعدم إشراكه في الأمر هو طريقة كي لا يتورّط في مغامرةٍ هو غير مقتنعٍ بها .

أخيراً، توصّل إلى قرارٍ : عليه أن يتابع لأنّه وعد بوبا بذلك، ولأنّها كانت تنتظره، وهو أيضاً لا يستطيع السماح لهذين الخنزيرين أن ينتقما من مارك ومود مهما كانت مشكلتهما، لكنْ من أجل أن يتابع كان عليه أن يزعم بأنّهما يستطيعان الثقة به، وأن يمنعهما مهما كلّف الثمن من أن يتخلّصا منه في أوّل فرصةٍ تسنح لهما .

– « ما الذي تنويان فعله إذا استطعتما اللحاق بهما؟ » . سأل أليكس .

– « بالك منشغلٌ حقّاً على صديقك! » . تهكّم فوتييه : « مؤثّرٌ جدّاً، لا سيّما أنّه لم يكترث بك كثيراً » .

تراجع أليكس إلى فراشه، وهزّ كتفيه لا مبالياً .

– أعرف، ما ستفعلونه به لم يعد ذا أهميّةٍ بالنسبة إليّ؛ لقد فكّرت مليّاً : إنّه وغد

.

رمقه ليونيل بنظرة مندهشة.

– « آه، أترى؟ » . قال فوتييه، وهو يلكزه بمرفقه بين ضلوعه : « هنالك أخبار جيّدة من وقتٍ إلى آخر. عليك ألّا تفقد الأمل حتّى من العسكريّين » .

وصلوا إلى تقاطع الطريق الذي يودي إلى الجبال في وقتٍ متأخّرٍ من فترة بعد الظهر، فترجّلوا من الشاحنة عند بداية الطريق، وكان الثلج قد ذاب هنا أيضاً، وبالنظر مليّاً، اكتشفوا آثار شاحنة مارك، التي كانت ما زالت ظاهرةً على الأرض الطينيّة .

– « يريدان أن يقطعا الجبل من هنا؟! » . صرخ ليونيل، وهو يتأمّل الطريق الذي يختفي في التلال : « من المستحيل، لن تستطيع الشاحنات المرور! » .

– « هذا ما كنت أقوله لك. لقد انتهى أمرهما » . قال فوتييه مع ابتسامةٍ شرّيرة.

– هل سنذهب على كلّ الأحوال؟

– سنفكّر بذلك، لكنْ علينا أوّلاً أن نتعشّى بهدوء هنا، وأن ننصب خيامنا.

– نحن متأخّرون مسافة مسير يومٍ عنهما ...

– ليس لذلك أيّة أهميّة؛ سيتعرقلان عاجلاً أم آجلاً، والأفضل أن نكون بلياقةٍ جيّدةٍ حين نلحق بهما .

بينما كانوا ينصبون المخيّم، كان أليكس يتابع التفكير بطريقة التصرّف التي سيتّبعها، فوصل إلى خلاصة أنّ عليه ألّا ينتظر أن يسلّمه هذان الاثنان إلى الأمم المتّحدة، فالحلّ الأمثل كان الاستحواذ على الشاحنة الثانية والهرب هو الآخر، وتساءل إن كان يحمل في الأدوية التي ينقلها عقاراً قادراً على تخديرهما، كما فعل مارك به .

الاحتراز الأوّل هو الاستحواذ على مفاتيح الشاحنة، وعموماً كانت المفاتيح تبقى في مكانها ليلاً. لقد صادفوا مشكلةً في إحدى الصباحات في تحرير المقود، ولم يعودوا منذ ذلك الحين يخاطرون بسحب المفاتيح، لكنْ هذه اللّيلة قام فوتييه بالاحتفاظ بالمفاتيح، ومرّ من أمام أليكس، وهو يمسك بحافظة المفاتيح في يده، ونظر إليه نظرةً ساخرة، فكان عليه أن يجد حلّاً آخر، فذهب أليكس إلى النوم مباشرةً بعد العشاء، تاركاً الاثنين متحلّقين حول النار .

كان ليونيل يطرح على نفسه أسئلةً أيضاً منذ أن التقوا بـأركان : لقد وافق على أن يتكفّل أفراد الميليشيا بحلّ المسألة، لكنّه كان أكثر تحفّظاً حول أن يكون مشاركاً في ملاحقتهم، وبدأت هذه المطاردة تسبّب له القلق، ولم يقم حتّى الآن بشيءٍ يستحق الملامة أمام جمعيّة لاتيت دور؛ لقد كان مارك مسؤولاً عن كلّ شيءٍ من تغيير نوع الحمولة حتّى الهروب الذي كان أشبه بكلّ بساطةٍ بعمليّة سرقة؛ أمّا الآن، بعد أن سار بشاحنته في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر، وبعد خروجه من الدائرة التي تسمح له أوراقه بالمرور منها، بحثاً عن مواجهة يمكن أن تكون عنيفة، أصبح على ليونيل، كقائدٍ لهذه القافلة، أن يقدّم تفسيراً لما حدث، وكان يعلم أنّها يمكن أن تكلّفه منصبه، فتركه فوتييه يدخّن لفافة الحشيش حتّى النهاية من دون أن يقول شيئاً .

– « ألا تعتقد. . . » . بدأ ليونيل الكلام، وهو يتابع النظر إلى النار : « بأنّنا يمكننا أن نتركهم يتعثّرون وحدهم؟ » .

كان فوتييه يغيّر مَيلان زجاجة البيرة، فيتغيّر الصوت الذي يشبه صوت الناي الذي يصدره الهواء عند مروره بعنقها .

– « أرأيت الطريق الذي سلكاه؟ » . قال ليونيل الذي كان صمت رفيقه لا يعطيه الشجاعة للمتابعة : « طريق زراعيّ، ولا نعرف إذا كان بالإمكان السير عليه. على كلّ حال، الطريق يقع خارج المنطقة التي يُسمح لنا المرور بها، وليس لدينا أدنى فكرة عمّا يمكنهما أن يجدا هناك، من المحتمل أن يجدا نفسهما وسط معركةٍ على خطّ تماس .

وبما أنّ فوتييه كان لا يردّ بشيء، تابع ليونيل قائلاً :

– « أقترح أن نبقى على الطريق الرئيس » . قال بحيويّة : « ونقوم بالتبليغ عنهما عندما نستطيع كي تتلقّاهما الأمم المتّحدة من الجانب الآخر » .

لم يُجب فوتييه، فظنّ ليونيل أنّه كان موافقاً على كلامه، وتجرّأ أخيراً على النظر إليه مباشرةً مبتسماً ابتسامةً عريضةً، لكنْ ما قرأه في عيني مُحادثِه الصغيرتين الثابتتين ثبّط من حماسته مباشرة .

– « هكذا إذنْ! » . قال فوتييه بابتسامةٍ عابسة : « ستقوم بإخبار الأمم المتّحدة بأنّ أحد سائقيك هرب بشاحنة متفجّرات حتّى يعلم العالم بأجمعه أنّ فرنسا تقوم بإرسال الديناميت في قافلاتها الإنسانيّة » .

أخفض ليونيل رأسه، فشرح له فوتييه بتأنٍّ لماذا لم يعد لديهم الخيار.

إنّ نيّة الحكومة الفرنسيّة باتت واضحةً؛ لقد شرح له محاوروه الخطوط العريضة للموقف الفرنسيّ: يجب ألّا تصل هذه الشاحنة إلى هدفها. كانت تلك مسألة سياسيّة تتجاوزهم جميعاً، والتدخّل الفرنسيّ في هذا النزاع كان يقتصر على إمداد قوّات الأمم المتّحدة، وكانت الحكومة ترفض على الإطلاق أن تُسْتَدرَج إلى هذه الحرب، لكنّ هذه المتفجّرات العسكريّة كانت موجّهةً من دون أدنى شكّ إلى أحد طرفيّ النزاع، التحالف الكرواتيّ الإسلاميّ، يريدون أن يفجّروا بها طريقاً، أو ثكنةً، أو جسراً، وحْده الله يعلم، وستحمل فرنسا مسؤوليّة هذا العمل، ويمكن أن تنخرط في الحرب، وسيكون ذلك مصيبةً، وجمعيّة ليونيل ستكون أوّل ضحيّةٍ للعمليّة؛ أمّا إذا حُلَّتْ المشكلة قبل أن تتفاقم، فسيرضى الجميع، وستجري تهنئة ليونيل رسميّاً.. إلخ.

– هذه هي الفكرة العامّة، ويجب علينا اختيار الطرائق والوسائل المناسبة لوضعها في حيّز التنفيذ.

ترك فوتييه لكلامه الوقت الّلازم كي يتشبّع به ذهن ليونيل القلِق، ثمّ غيّر من نبرة كلامه، وأنارت سعادةٌ شرّيرةٌ وجهه العريض.

– كلّ شيءٍ سيصبّ في مصلحتنا في نهاية الأمر، لديّ حساب أصفّيه مع هذا السيّد، وأنت لديك حساب مع صديقته الشابّة.

ابتسم ليونيل ابتسامةً خفيفةً، فخطاب فوتييه أقنعه بأنّه ليس لديه خيار آخر سوى الانجرار وراء هذه المطاردة، لكنّه لم يخفّف من هواجسه، حتّى إنّ فكرة الانتقام لم تكن تحرّك في نفسه أيّة حماسة.

أدرك فوتييه أنّ عليه أن يراقبه عن كثب.

عاودوا الانطلاق عند صباح اليوم التالي، وكانت الآثار ما تزال واضحةً، ولم يكن عليهم سوى اقتفائِها، وكان هنالك القليل من مفارق الطرق، فكانت احتمالات الوقوع في الخطأ شبه معدومة.

تحسّن الطقس؛ لأنّ اتّجاه الريح تحوّل جنوباً في الّليل، وكان يحمل هواءً دفّأته شمس البحر الأدرياتيكيّ، غير كافٍ كي يدفئ الأرض، لكنّه يجعل الأفق ضبابيّاً. سُحبٌ

عاليةٌ كانت تمرّ في السماء، بدت أنّها ستتحوّل إلى أمطارٍ أكثر منها إلى ثلوجٍ إنْ تحوّلت إلى هطولات .

ومع حلول الّليل، ظنّت مود أنّ مارك، الذي ارتاح طوال النهار؛ سيقرّر مجدّداً ألّا يتوقّفا، وتفاجأت بسرور حين قام بإيقاف الشاحنة في فسحةٍ، وإيقاف المحرّك .

- لا يمكننا أن نتابع من دون أضواء أماميّة على طريقٍ مماثل .

كان ذلك صحيحاً، لكنّها كانت الآن تعرفه جيّداً، لتعلم أنّه لم يقتنع بذلك على الفور، وكان يواجه صعوبةً في التخلّي عن شخصيّته النهاريّة القاسية والمركّزة .

- حتّى إنْ لم تعد في حاجةٍ إلى نظّارات!

نظر إليها، وهو يبتسم، ورأت أنّه قد فهم، فانفجرت ضحِكاً، واستكانت إليه .

بقيا مدّةً طويلةً صامتين في الشاحنة يستجمعان نفسيهما، ثمّ، ودون أن يدريا من قام بالحركة الأولى؛ وجدا نفسيهما في أحضان بعضهما يتبادلان القُبل بحرارةٍ، فخلعا ملابسهما بارتباكٍ، وهُما يرتطمان بلوحة المفاتيح، ومارسا الجنس على قماش المقعد الخشن .

ثمّ بقيا في أحضان بعضهما بلا حراك، منهكين من اندفاعهما، فصفرت الريح حول الشاحنة، وأضفى الثلج على الّليل لمعاناً مائلاً إلى الزرقة، وحريريّاً، وممتلئاً بالشهوانيّة .

كان من الضروري أن يرتجفا في القمرة الباردة كي يجدا القوّة للنهوض، ويرتديا ملابسهما، ويخرجا . قاما بطبخ بقايا طعامٍ، ونصبا الخيمة، ثمّ اضطّجعا في كيس النوم نفسه، وناما .

5

قبل الخطر، وقبل المعركة، كان هذا الصباح يمثّل الوداع الذي سيبقى بالنسبة إليهما الوقت الأكثر سعادةً في هذه الأيّام الغريبة.

كان الجبل في البدء مريحاً، وحين سار مارك في المنعطفات الأولى، لم يكن هنالك من أشجارٍ على أطراف الطريق، وكان يمكن للناظر أن يرى السهل المُغطّى بالثلوج الذي قطعاه سابقاً، وكان المسار ضيّقاً، أشبه بالدرب منه بالطريق، وكان من المستحيل أن تتلاقى فيه شاحنتان، لكنْ من المستبعد أن يكون هنالك من سيّارات أُخرى في هذا المكان، كما أنّه من دون الخريطة التي أكّدت أنّ هذا الطريق يمرّ في الجبل، كانا قد اعتقدا أنّه ممرٌّ في الغابة مخصّصٌ لناقلات الأخشاب.

استمرّ صوت المحرّك من دون أن تضعف قوّته، كما أنّ ميلان المنحدر كان ثابتاً، وبدت السماء غامضةً، يصعب التكهّن بما تنويه، وكان يوجد فيها كلّ شيء؛ كتل من غيوم سوداء، وانقشاعات زرقاء شاحبة، وضوء مائل إلى الصفرة ينبئ بالمطر في اتّجاه الغرب .

ما فتئت مود تشعر بالنعاس، أو كانت تدّعي ذلك؛ لأنّها كانت ترغب بأن تحلم. لا شيء في العالم يمكن له أن يدعها تفصح لمارك عمّا يجول في خاطرها من أفكار؛ إذْ إنّها كانت تفكّر بمواضيع لا يُحبّذها؛ كانت تتخيّل أن تكون حياتها معه بعد انتهاء هذه المهمّة، لقد كانا على اتّفاقٍ تامٍّ في هذا العالم الغريب من انعدام الراحة، والمحفوف بالمخاطر، إلى درجة أنّها تساءلت كيف يمكن أن تصبح علاقتهما في جوٍّ طبيعيّ. هل لهذه الكلمة من صدى في نفس مارك؟ هل عاش سابقاً حياةً تشبه التي يعيشها الناس كلّهم؟ وكيف كانت لتراه هي ضمن حياةٍ يوميّةٍ خاليةٍ من الإثارة؟ لم تقبل الحُبّ إلّا في هذا الجوّ من الخطر والمعارك الذي كانت تشارك فيه؛ حيث الأدوار الاجتماعيّة والجنسيّة كانت مشوّشةً ومتحرّرةً، لكنْ ماذا بعد؟

كلّ شيءٍ في حياتهما هنا كان قاسياً، وحبّهما كان يحمل الطبع العنيف لهذه الحرب. لقد تصادما بشكلٍ، أو بآخر، وكان اتّحادهما أكثر كمالاً، وأكثر قوّةً منه لو كان

مسبوقاً بتقاربٍ بطيءٍ، وكانت مود تشعر بأنّها تعرف هذا الرجُل بعمق، إلّا أنّها ما زالت لا تعرف إلّا القليل عنه .

ودّت لو تسأله عن حياته العاطفيّة التي لم يقل عنها شيئاً : هل عاش مع نساءٍ أخريات؟ هل لديه أطفال، أو التزامات، أو علاقات نسائيّة؟ لكنّها لم تكن تجرؤ على طرح هذه الأسئلة مباشرةً، كانت تشعر بالراحة أكثر لطرح مواضيع أكثر حياديّة .

– كيف كان شعورك بعد أن أتيت إلى فرنسا ووجدت نفسك في كليّةٍ عسكريّة؟

– لماذا؟

– لا شيء . كنت أحاول أن أتخيّل شعور شخصٍ دخل إلى الجيش في عمر الخامسة .

بدا مارك كأنّه لم يحبّذ كثيراً هذا السؤال، ولحُسن الحظّ، جعله الجبل بمزاجٍ جيّدٍ، وكان للمرّة الأولى غير مكفهرّ الوجه كما هي حاله عادةً في النهار .

– « أحسست ببردٍ شديد » . قال ذلك، وهو يبتسم : « أتيت من بيروت، يمكنك أن تتخيّلي وقع جوّ النورماندي عليّ » .

– هل أصبح لديك أصدقاء؟

– أصدقاء؟

هزّ كتفيه، فشعرت مود بأنّ سؤالها لا معنى له، لكنّه كان يتردّد في شرح ذلك، لا بدّ من أنّه كان عليه أن يروي الكثير لكي يفهم محدّثه مغزى حديثه، وكان لا يحبّ الشرح الطويل .

– « حين وصلت » . بدأ كلامه، وهو يبحث عن الكلمات المناسبة : « كنت أقصر من الآخرين، وأسمر البشرة؛ لأنّني كنت أتعرّض للشمس دائماً في (لبنان) » .

توقّف عن الكلام، وراح يبحث عن لفافة تبغٍ في جيبه، وكانت تلك إشارة على التأثّر؛ لأنّه كان لا يدخّن أبداً بالفعل إلّا حين يكون غاضباً .

– كانوا ينادونني بالعربيّ .

- من هُم؟

- الصِّبْية الآخرون، والأساتذة أيضاً بلا شك، ولم تكن تخرج الكلمة من أفواههم كإطراء؛ فالكثير من أساتذتنا شاركوا في حرب (الجزائر) ، كما هي حال أهل الطلاب، ومعظم الطلّاب كانوا أولاد عسكريّين.

- هل كان لديك أقارب في (فرنسا) ؟

- لا، جدّاي بقيا في (هنغاريا) ، وأبي كان ولدهم الوحيد، ومهما كان الأمر الذي سأتعرّض له، فلن يأتي أحد ليدافع عنّي، وأدرك الأولاد ذلك.

- كانوا يضربونك؟

أتى مارك بحركةٍ غير واضحةٍ كما لو كان يطرد حشرةً، أو ذكرى مزعجة .

- دام ذلك عاماً واحداً، فهمت بعده أنّه لا يوجد سوى وسيلة واحدة للتخلّص من ذلك، وهي أن أكون الأقوى .

- حتّى إن كنت الأصغر؟

- القوّة ليست جسديّة فقط؛ يجب تعلّم تحمّل العناء، وعدم الخوف. لقد تدرّبت لعدّة أشهرٍ من دون أن أقول شيئاً، وكانوا يتابعون ضربي، وكنت أستثيرهم كي يضربوني بقوّةٍ أكبر، وتوصّلت إلى طريقةٍ للسيطرة على الألم بعد مدّة.

- كيف؟

- كنت أتجرّد من جسدي، فأرى نفسي أتعذّب، لكنّني لم أكن أتعذّب. يصعب شرح ذلك، لكنْ حين نستطيع ذلك يصبح الأمر لذّة. لا أعرف إن كان بإمكانك أن تفهمي هذا، يغلق المرء على نفسه تماماً، وكلّ شيءٍ يتمّ على السطح، ونشعر في العمق بأنّنا سليمون وأصلاب .

دهشت مود لرؤية الحدّ الذي كان مارك واعياً للتحوّلات التي ألمّت به، ذلك التحوّل الذي طرأ عليه لاحتكاكه الدائم بالخطر، الذي ردّته إلى طبيعته، وظنّت أنّه لا إراديّ، وفي الحقيقة كان هذا التحوّل ثمرة قرارٍ أخذه بملء إرادته، وإن كان قد أصبح أمراً طبيعيّاً مع الوقت، إلّا أنّه احتاج في البداية إلى أن يعمل على تطويره كما لو كان يمرّن عضلة .

– كما يجب التعلّم على استقبال الضربات جيّداً، الدفاع عن النفس لا يفيد بشيء، ومن الأفضل الرضوخ طالما كان المرء لا يستطيع أن ينزل بخصمه ضرباتٍ فعّالة .

كانا يسيران الآن تحت غطاءٍ من الأشجار المنخفضة ظلّلت وجه مارك، وكان يبتسم من دون أن يشيح بنظره عن الطريق .

– كان الآخرون يذهبون إلى منازلهم في عطلة نهاية الأسبوع؛ أمّا أنا، فكنت أبقى في المدرسة، ووجدت كتباً عن رياضات القتال، وتعلّمت الضربات الموجعة، تلك التي تجرح، والقاتلة منها أيضاً، وحصلت على الإذن بدخول قاعة الرياضة وحيداً أيّام الآحاد بعد الظهر، وكانت هنالك أكياس ملاكمة وأثقال، وما يلزم كلّه، وبقيت أتلقّى الضربات طيلة أيّام الأسبوع من دون أن أردّ عليها، ولم أرغب بالردّ عليها قبل أن أصبح جاهزاً حقّاً .

نادراً ما سمعت مود مارك يتحدّث مطوّلاً هكذا، وكانت تعتقد بأنّه لم يتحدّث عن ذكرياته لأحدٍ قطّ من قبل، فجرفته قوّة الذكريات بعد أن أطلق لها العنان فجأةً!

– وفي أحد الأيّام، كان ذلك في العشرين من أيّار/مايو، لم أعد أذكر أيّة سنة، لكنّني ما زلت أذكر التاريخ، قام زميلٌ ضخمٌ في الصف بالتعرّض لي في أثناء الاستراحة، وكان ذلك يبدأ دائماً بالطريقة نفسها، فطلب إليّ أن أقوم بشيءٍ مذلٍّ؛ أن أقوم بربط شريط حذائه، أو بشيء من هذا القبيل، وكنت أرفض دوماً، فكانوا يجتمعون ضدّي، لكنّني تظاهرت في ذلك اليوم بأنّني سأرضخ، فاقتربت منه، وما زلت أذكر أنّه أشقر، ولديه بثورٌ على خدّيه، واسمه يدلّ على أصوله النبيلة، وكان الآخرون يحترمونه؛ لأنّه قويّ البنْية، خاصّةً أنّ أباه كان عقيداً في سلاح المدرّعات، ويعمل في قيادة الأركان في باريس، فتركني أقترب منه، وكنت أخفض عيوني كالعادة، لكنْ في اللحظة الأخيرة، انقضضتُ عليه عوضاً عن تنفيذ ما أرادني أن أفعل، ولم أُضيّع وقتي في محاولة إيقاعه، فقمت مباشرةً بتوجيه ضرباتٍ محكمةٍ واحدةٍ إلى كبده، والأُخرى بحدّ يدي إلى الرقبة .

– قمت بقتله؟

– تقريباً؛ لقد فقد الوعي، وكاد يختنق؛ لأنّني كسرت له حَنجرته، فحملوه إلى المستوصف، ثمّ إلى المستشفى، فأنقذه الأطبّاء في آخر لحظةٍ، وبقي غائباً عن الوعي لخمسة أسابيع .

- ألم يفصلوك من المدرسة؟

- أرادوا ذلك، وشهد الكلّ ضدّي، واقترح المدير طردي، لكنْ حين علمت أمّي في لبنان بالأمر قامت بالطلب إلى أحدهم - ولا أعرف من هو - التدخّل، وقاموا بإبقائي .

- ألم يرد الآخرون الانتقام منك؟

- على العكس، لقد ارتحت منذ ذلك اليوم، حتّى حين عاد ذلك الضخم الذي ضربته إلى المدرسة، تحاشى الاقتراب منّي، ولقد كانوا كلّهم خائفين.

رمى عقب لفافة التبغ من النافذة.

- تابعت تدريبي، لكنّني لم ألجأ قطّ إلى قوّتي، ولم أسع إلى أن أتزعّم مجموعةً بدوري، واعتاد زملائي شيئاً فشيئاً المجيء لرؤيتي حين يصادفون مشكلةً ما، كالمصالحة بين متخاصمين، أو حين يتعرّض أحد الصغار إلى إزعاجٍ من قِبل الكبار، وكانت المشكلات تُحلّ من تلقاء نفسها حين أتدخّل، وباتوا يعلمون أنّني قادرٌ على القتل، ولا أخشى أن أُقتَل؛ لا أحد كان يرغب في معاداتي.

- لهذا لم يكن لديك أصدقاء.

- كان هنالك أشخاص أحبّهم، يأتون لطلب مساعدتي، لكنْ لم يكن لديّ أصدقاء، أصدقاء حقيقيّون قطّ. أعتقد أنّ تلك هي الضريبة التي دفعتها. أكرّر أنّ القوّة وحْدها لا تكفي، الغموض هو ما يلزم لحماية النفس، ويجب أن يكون المرء كتوماً، ومن الصعب التنبّؤ بأفكاره، والصداقة تتطلّب العكس تماماً : يجب على المرء أن يكشف نفسه، وأن يدع أحدهم يعرف أفكاره، وكان هذا الأمر خطِراً جدّاً في المدرسة، فأصبح ذلك جزءاً من شخصيّتي حين ذهبت إلى الجيش، ولم يتغيّر من حينها .

- أليس أليكس صديقك؟

- أليكس رفيق، أحبّه كثيراً وأحترمه. هو شخصٌ جيّدٌ جدّاً، لكنّه لا يعرفني، والبرهان على ذلك أنّه الآن خلفنا مع الآخرين، ولا بدّ من أنّه يلعنني .

- والنساء؟

- ماذا عن النساء؟

شعرت بأنّه بدأ يتصلّب.

- هل تثق بهنّ؟

فكّر وترك وقتاً يمرّ.

- لا .

انفجرت ضحكاً بعد تردّدٍ، وقام هو بالشيء نفسه أيضاً، كان ذلك ضحكاً عصبيّاً خفّف من التوتّر قليلاً .

شعرت عند هذه النقطة من الحديث بأنّ عليها التوقّف لتدعه وشأنه، لقد كان غير مرتاحٍ ودفاعيّاً، لكنّها أرادت أن تعرف أكثر، وكان لها الحق في ذلك.

- هل عرفت الكثير منهنّ؟

- ما هذا السؤال؟!

- سؤالٌ نسائيّ. أهذا ما تظنّ؟

بتغيير نبرة المحادثة قامت بتسهيل مهمّته. كان بإمكانه الآن ترك صيغة الاعتراف الثقيلة التي اعتمدها ليبادر بالمزاح .

- الفتيات كالرفاق، أدعهنّ يقتربن، ولكن لا أدعهنّ يدخلن.

- أبداً؟

- أبداً .

- ألَم تكن مغرماً من قبل؟

- ليس إلى درجة أن أنسى نفسي كما...

- كما أنت معي .

ضحكا معاً من جديد، وفي النهاية اقتربت منه، ومالت نحوه كي تقبّله، فقام بالفرملة فجأةً!

- توقّفي! سوف نخرج عن الطريق.

- لا أكترث، أنا راغبة بك.

توقفت الشاحنة في منتصف الطريق الضيّق، وتابع المحرّك دورانه البطيء، وغطّى عصف الرياح القادمة من القمم صوت هديره.

رميا بثيابهما على أرض القمرة، وتبادلا القبلات بعنفٍ لم يعرفاه قطّ في الّليل .

ضاعف الضوء المنعكس على جسديهما من شبقهما، وأعطاهما الانطباع بأنّهما يكتشفان بعضهما للمرّة الأولى، وكانت مود تدفع أكتافه حين كان يحاول ضمّها، كي تستطيع رؤيته من بُعدٍ، وتستمتع بإحساسٍ مزدوجٍ من قربٍ حميميٍّ وابتعاد، كما لو أنّها تسعى إلى أنْ تقنع نفسها بأنّه هو الرجُل نفسه الذي تراه في النور، والذي يلج داخلها في الوقت نفسه، ونظرت في عينيه المفتوحتين من دون أن ترمشا. ما كانت تعرفه عنه الآن مدّها بلذّة الاعتقاد بأنّ عينيه السوداوين المفتوحتين بوسعهما أمامها كانتا تسمحان لها برؤية الأسرار الأكثر عمقاً لهذا الكائن شديد التحفّظ، ولم يغلق جفنيه في لحظة وصوله إلى النشوة .

ثمّ استسلم في حضنها، وراحت تداعب شعره الكثيف، مباعدةً بين أصابعها كي ترسم فيه خطوطاً عابرةً، وغير مرئيّة، وبما أنّه كان مستنداً إلى كتفه، راحت تتفحّص الوشوم التي تغطّي ظهره؛ كان الحبر الصينيّ موزّعاً في جلده، والخطوط غير واضحة، ولدى رؤيتها عن قرب، فقدت الرسوم ما كان يجعلها مخيفةً كلّه، وتلاشى النفور الذي أحسّت به مود عندما رأتها في البدء، فهذه الأشكال الملوّنة بغموضٍ كانت في البدء عبارة عن ألغاز، مثل الرسوم شبه المبهمة التي يمكن ملاحظتها تحت مينا قطع السيراميك القديم، فلمستها بإصبعها، وأغمضت عينيها كي تتخيّل أشكالاً، كما يحدث عندما تلمس زخارف سجّادة، وكانت لا ترى سواها بعد أن تتعرّف إليها، منها وشمٌ على عضلة الكتف البارزة عبارة عن طائرٍ يشبه العنقاء الأسطوريّة، تفتح أجنحتها المسنّنة التي تشبه أجنحة الوطواط، ومن تحتها، على الذراع، وشمُ سيفٍ محاطٍ بثعابين، ونقش في خرطوشةٍ ملفوفةٍ على كلّ جانبٍ لم تستطع قراءته .

- أتنظرين إلى وشومي؟

- أنت من اختارها؟

– هذان الاثنان وُشِما في (إفريقيا) ؛ لقد خدمت سنتين في تشاد، وكان هناك صينيٌ يتقن الوشم.

– لكنْ لمَ هذين الرسمين على وجه الخصوص؟

نهض، وكانا هما الاثنان عاريين، يجلسان جنباً إلى جنب، فأحسّت بأنّها ضعيفةٌ، وبلا دفاعٍ ببشرتها البيضاء الخالية من الرسومات؛ أمّا هو، فعلى العكس، كان يبدو مكسوّاً ربّما بسبب عضلاته، ولكنْ على وجه الخصوص بسبب زينة الحبر التي غطّت ذراعيه وصدره مشكّلةً نوعاً من الدرع .

– « التنّين المرسوم هنا » . قال مارك : « يرمز إلى الشرّ » .

بدا كأنّه منزعجٌ، وضحك .

– قذارة هذا العالم، والعنف الذي يقع على الأبرياء، والدناءة، والخيانة، واستغلال السُّلطة؛ ذلك كلّه.

– الشيطان في المحصّلة. أتؤمن بالله؟

– لم أرغب يوماً بأن أؤمن بإله، مع ذلك كانت الخيارات متعدّدةً بالنسبة إليّ؛ فأمّي مسلمة، وأبي بروتستانتيّ، وفي المدرسة كانوا يصحبوننا إلى القدّاس الكاثوليكيّ. كي أؤمن بإلهٍ يجب أن يكون إلهاً عالميّاً، الآلهة كلّها التي اقترحت عليّ كانت آلهةً محدودةً لا توسّع تأثيرها أبعد من المؤمنين بها. الشيء الوحيد الذي يشتركون به هو الشرّ، هذا هو الإيمان العالميّ، وهذا الإيمان لم أرفضه.

– والسيف؟

– هو الخلاص، لمحاربة الشرّ لا يوجد سوى القوّة.

– خلاصة الكلام، أنّك تريد أن تصبح فارساً من نوعٍ ما .

لامت نفسها؛ لأنّها قالت ذلك بنوعٍ من السخرية، ولأنّه كان يمكن أن يفهمه على نحوٍ خاطئ.

– لا تقلقي، لست من هؤلاء المجانين الذي يظنّون أنفسهم دو غوسكلان، لكنْ حين تخرّجت في المدرسة الثانويّة، وكان عليّ أن أجد مهنةً، لم أر نفسي أقوم بمهنةٍ أُخرى

غير الانخراط في الجيش، ليس لأنّ ذلك كان يعجبني جوهريّاً، لكنّني كنت أقول لنفسي : إنّ المرء يمكن أن يحمل السلاح ليس لخدمة آلة، أو دولة، أو سياسيّين، بل ببساطة لكي يجاهد ضدّ الشرّ.

أنصتت مود إلى مارك باهتمامٍ، وكانت معجبةً بصدقه، لكنّها لم تستطع منع نفسها من الابتسام لسماع هذه التصريحات. لماذا تمتلك النساء موهبة دائمة في رؤية الطفل الكامن في الرجُل البالغ؟ لأنّ هذا ما كانت تشعر به في تلك الّلحظة؛ فوشوم مارك الرهيبة، وعضلاته البارزة، وهيئته الشرسة، بدت درعاً مثيراً للسخرية اختبأ خلفه طفلٌ ضعيفٌ ووحيدٌ كي يحمي نفسه، ورؤاه التي كوّنها عن العالم كان هدفها السماح له بأن يتجاوز الإهانات لينجو من الضربات، من دون أن يكون له ملجأ آخر سوى الشجاعة والقوّة التي لم يكن قد امتلكها بعد، ومرّت السنوات، وانتهى الأمر به قاسياً ومحصّناً، لكنّ قلبه بقي قلب طفل.

ارتديا ثيابهما بعد أن بحثا عنها بمرحٍ في كومة الثياب المشتبكة على الأرض، وعاودا الانطلاق بالشاحنة.

اسودّت السماء من دون أن يهطل المطر، وبدأت الأشجار تبدو متباعدةً، وسرعان ما وصلا إلى أراضٍ عشبيّةٍ خاليةٍ من الأشجار، وكانت الريح تلوي الشجيرات القصيرة التي شوّهتها الماعز، وبرزت صخورٌ كلسيّةٌ كبيرةٌ من الغطاء العشبيّ، اجتمعت بفوضى بدت فيها كأنّها تشكّل قلاعاً، وأخذ الطريق شكل دربٍ ريفيّ، وهو : خطّان متوازيان أبيضان كلسيّان مع شريطٍ من العشب الوسخ في المنتصف .

اقترحت مود على مارك أن تستلم القيادة، فتوقّف وترجّلا كي يتمشّيا قليلاً، ومن الشرفة التي كانا فيها على سفح الجبل، تمكّنا من رؤية السهل كلّه الممتدّ إلى كيلومترات في الأسفل، فالتقط مارك المنظار من علبة القفّازات، وراح يحدّق في البعيد. الطريق الثعبانيّ الذي قطعاه كان بارزاً بوضوحٍ، فعدّل حدقة العدسة، وأفلت شتيمةً فجأةً!

– ماذا رأيت؟

تردّد، فأخفض المنظار، وأغمض عينيه، ثمّ راح ينظر من جديد.

– إنّهم يتبعوننا .

6

تمتّع فوتييه بغريزة صيّاد؛ فمن وقتٍ إلى آخر، كان يوقف الشاحنة، ويترجّل ليتفحّص الآثار، وهو في وضعيّة القرفصاء، وتبعاً لوضوح الأثر، كان يستنتج كم من الوقت مضى منذ أن مرّت شاحنة مارك، فقام بالتوقّف عند بعض المزارع الموجودة على أطراف الطريق، ليبادر بسؤال الفلّاحين بالإشارة إن كانوا قد رأوا شيئاً، فمن المعتاد في هذه المناطق الموحشة أن تُراقَب العربات كلّها من خلف ستائر المطبخ المطرّزة؛ هكذا كان فوتييه يتأكّد من معلوماته .

– بالكاد يسبقوننا بمسير يومٍ واحد؛ ما زال بإمكاننا اللحاق بهم.

– ربّما، لكنّ شاحنتهم أسرع من التي لدينا، خاصّةً على المنحدرات.

بدا ليونيل متشكّكاً. لقد وافق فوتييه الرأي، وسلك هذا الطريق، لكنّه بدأ يندم على ذلك.

– « لا يعرفون بأنّنا في أعقابهم » . أصرّ فوتييه : « أنا متأكّدٌ من أنّهما يشعران بالأمان كونهما سلكا هذا الطريق المختصر، وسيقومان بارتكاب أخطاء، فإن استمرّينا في السير ليلاً ونهاراً سنلحق بهم، صدّقني » .

تسنّى لليونيل في أثناء القيادة أن يتمعّن بكلّ واحدةٍ من الحجج التي سيقت له، وكان أقلّ اقتناعاً بما كان يفعله. فبإمكانه أن يحلّ المسألة برمّتها بإخبار الأمم المتّحدة من دون أن يتسبّب بحادثٍ دبلوماسيّ، وكان هنالك ما يكفي من الإثباتات التي تورّط مارك، وتثبت أنّه تصرّف وحيداً، فبدأ ليونيل يتساءل عن دوافع فوتييه الخاصّة، فقد كان هنالك تناقضات في كلامه، إن كان حقّاً عميلاً للاستخبارات، هل من المعقول أنّ المؤسّسات الرسميّة التي يعمل عندها تدعه يأخذ مثل هذه المبادرات من دون الرجوع إليها؟ وما الذي سيُقدِم عليه إن استطاع اللحاق بالشاحنة؟

نظر إلى الخلف، ورأى أليكس الذي كان دوره في الاستراحة، نائماً على الفراش، فقام باستجواب فوتييه من دون أن يلفت الانتباه، ومن دون عدائيّةٍ، فقد كان ما يزال

يرهب جانبه .

- كيف أصبحت رجُل أمن؟

- أنا؟ أنا لست رجُل أمن؛ هذا منافٍ لقناعاتي.

- أتسخر منّي؟

التفت فوتييه نحوه متجهّماً.

- أريدك أن تكلّمني باحترام. أكرّر لك أنّني لست رجُل أمن.

- قلت لنا بنفسك : إنّك تعمل مخبراً!

- وما المشكلة؟ هذان عملان مختلفان.

أرخى فوتييه جسده كلّه على المقعد، واتّكأ على ظهر المقعد، ومدّ رجليه المُنتعلتين جزمة السانتياغو على لوحة القيادة.

- أتريد أن تعرف كيف انتهى الأمر بي أقوم بهذه المهنة؟ سأروي لك، لكن قبل ذلك عليّ أن أقول لك شيئاً : عندما كنت طفلاً، في مدينة (ديكازوفيل) ، كنت أرى والدي عائداً من المصنع، وأرباب عمله يعاملونه ككلب، وكان أبي المسكين عضواً ناشطاً في الحزب الشيوعيّ، وكنت أرافقه حين كان يذهب لإلصاق دعايات الحزب، وبعد تعرّفي إلى أعضاء الحزب شعرت بأنّهم يستهزئون بأبي، وما كانوا يريدونه هو أن يبقى العمّال مستكينين، وأن يدعوهم يحتلّون المناصب الجيّدة. منذ كنت صغيراً، قلت لنفسي : إنّني لن أدع أحداً يجعل منّي عبداً له أبداً، لا أرباب العمل، ولا السياسيّين الهزليّين، ولا الشرطة، ولا أحد .

نشق بقوّةٍ، ومسح أنفه بكمّه، فتساءل ليونيل إنْ كان قد ذرف دمعةً، لكنْ سرعان ما عاد فوتييه إلى الكلام بصوتٍ ربّما كان أشدّ قوّةً بقليل.

- عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري، وقعت حرب فيتنام، فرفضت الخدمة العسكريّة لاعتباراتٍ أخلاقيّةٍ، وكنت أصادق أشخاصاً يتظاهرون ضدّ الأمريكيّين، الأمريكيّين الإمبرياليّين، كما يقال. لقد كنت ثائراً، وغاضباً، ومشاكساً، ذلك كلّه.

- هل كنت مؤمناً بذلك؟

تابع فوتييه كأنّه لم يسمع السؤال.

– قمت بحماقةٍ في ذلك الوقت، وألقت الشرطة القبض عليّ.

– حماقة من أيّ نوع؟

– عمليّة سطوٍ كي أموّل القضيّة. كنت أعيش في (سان وان) ، في مكانٍ محتلٍّ، سكوات، مع مجموعة من التروتسكيّين، فرع راديكاليّ جدّاً، أشخاص مُسيّسين بشدّة، وقد كانوا أكبر منّي سنّاً، وأردت أن أثبت جدارتي بالوجود معهم، فقمت مع أحد الأصدقاء بالسطو على بارٍ ومحلّ يا نصيب ساعة فتْحه. ما كنّا نجهله هو أنّ المتجر قد تعرّض للسرقة ثلاث مرّاتٍ في العام السابق؛ ولهذا فالشرطة كانت تراقبه، فقبضت علينا إحدى الدوريّات، ونحن نهمّ بالخروج، واستطاع شريكي الهرب، وانتهى الأمر بي في غرفة التوقيف .

– هل حُكم عليك بالسجن؟

– لا، وقعت على شخصٍ غريب الأطوار، ضخم يشبه بطل مسلسل « المفوّض ميجري » ، بغليونه وكل شيء، كان يدعى ميياك، واعتاد أن يجول على أقسام الشرطة في المنطقة كي يلتقي بمخبرين. تحدّثنا وأعجبني، لقد كان شخصاً خبيثاً جدّاً، متحرّراً كليّاً على طريقته، هو متوفّى الآن، لكنّنا قضينا سنواتٍ نلتقي فيها، وكان يحمل شهادةً بالفلسفة، والتحق بالشرطة عن رغبة، رغبة كي يرى ويفهم.

– أهو من قام بتشغيلك؟

كان ليونيل مفتوناً كليّاً؛ فهو يحلم بأن يعيش حياةً كتلك، لكنّه كان يعلم أنّه ما كان ليملك الشجاعة كي يعيشها .

– يمكن أن نقول ذلك، لكنّه قال لي : ألّا أغيّر شيئاً على الإطلاق، فعدت إلى المكان المحتلّ، سكوات، ورويت قصّةً تقول : إنّ الشرطة أطلقت سراحي عن طريق الخطأ، فتابعت النضال من بعدها، وكنت ألتزم التزاماً تاماً حين أنظّم مظاهرةً، أو أيّ شيءٍ عنيف، وإلى جانب ذلك كنت أعطي معلومات إلى ميياك، وكنت أسرّ بالتحدّث إليه.

– هل كان يدفع لك أتعابك؟

– لا بأس بما كان يدفعه، وهذا سمح لي بتحقيق حلمٍ لطالما رغبت به؛ استطعت أن أشارك في سباق درّاجاتٍ ناريّة، شاركت في منافساتٍ وربحت، إلى حين أنْ حصل معي الحادث، وأجبرت على التوقّف.

– ألم يتساءل رفاقك اليساريّون من أين كنت تأتي بالنقود؟

– لم أخبرهم بشيء؛ كنت أضع حواجزَ بيني وبينهم.

ضحك فوتييه من جديد، وهو يهزّ خدوده المتهدّلة .

– استمرّ الأمر لسنوات، تقاعد بعدها ميياك، لكنّه وجّهني إلى العمل مع أجهزةٍ أُخرى؛ حيث كان لديه أصدقاء، فتركت المكان الذي أقطنه، والتحقت بمجموعاتٍ جديدةٍ، مكوّنةٍ من مستقلّين خُضر، مناهضي عولمة، وكان عليّ أن أكسب رزقي، فذهبت حيثما قالوا لي أن أذهب.

– من هم؟

– الذين كانوا يدفعون لي؛ الاستخبارات العامّة، والجمارك، وإدارة الأمن الخارجيّ، وإدارة مراقبة الأراضي الفرنسيّة.

شعر ليونيل بالفخر بأنّه شاركه هذه الأسرار، فهذا يعني أنّ فوتييه مقتنعٌ بأنّه جديرٌ بسماع الحقيقة، ذلك أنّه لم يكن هنالك أدنى شكّ في أنّ تلك كانت الحقيقة. على العكس من تصريحات فوتييه الأخرى، بدت هذه صحيحةً، ومع ذلك، بقي تفصيلٌ يشغل باله؛ بما أنّهم وصلوا إلى النقطة التي يصرّحون فيها لبعضهم بالأشياء على حقيقتها، سوّغ ليونيل لنفسه بأن يفصح عمّا يجول في أعماقه .

– أتدري ما أظنّه غريباً في قصّتك؟

– قل .

– كيف استطاعت مؤسّسات الدولة الكبيرة هذه، تلك التي حدّثتني عنها كلّها، أن تعطيك الأمر هكذا كي تصفّي رجُلاً.

– تعطيني الأمر؟

عدل فوتييه من جلسته، ونظر إلى ليونيل نظرةً كلّها غضب، وبحث في جيبه، وأخرج منها قطعة علكة قديمة، مزّق غلافها بعصبيّةٍ، ثمّ أدخلها في فمه وراح يمضغ مُصدراً صوت لعاب.

– لا أحد يعطيني أوامر، لست شرطيّاً مسكيناً راضخاً، ويقبل باستغلاله. أنا عميلٌ، مخبرٌ، مستفزّ، سَمِّ هذه المهنة كما شئت، كلّها أسماء مقيتة. من المؤكّد أنّ الناس لا يحبّذون هذا العمل، لكنّهم يرغبون بأن يكون لهم الامتيازات نفسها.

أدار الحركة كي يفتح النافذة، وقام ببصق العلكة إلى البعيد خارجاً.

– هذه الصفقة التي اقترحها عليّ ميياك، لم أكن لأجد هذا العمل من نفسي، لكنْ مع الوقت أدركت أنّ هذا العمل يناسبني، فلم أقم منذ ذلك الوقت بأيّ عملٍ آخر.

تعجّب ليونيل من أنْ يكلّمه فوتييه بهذه الصراحة، وتساءل إن كان يلعب معه الدور نفسه الذي لعبه ميياك معه في الماضي .

– لقد أرسلت إلى السجن أشخاصاً كانوا يستعرضون أنفسهم؛ لأنّهم كانوا يتمتّعون بهيئةٍ جميلةٍ، ويُجيدون إلقاء خطاباتٍ عظيمة، خضراً، وفوضويّين، ويساريّين، ومن الأطياف كلّها، أشخاصاً كانوا يظنّونني إلى جانبهم قبل أن يتساءلوا في أحد الأيّام من هو الذي سلّمهم، حتّى إنّني كنت أضاجع صديقاتهم بحجّة مواساتهنّ أحياناً .

كاد فوتييه يختنق، وهو يضحك ضحكةً رخيمةً وعميقة، فتولّد لدى ليونيل الانطباع بأنّه تحدّث كثيراً عن خِسّته، كما لو أنّه كان يرغب بأن يشاركه العالم الاحتقار الذي كان ينظر به إلى نفسه ربّما.

– على الرغم من ذلك، ألا يثير هذا العمل قرفك من وقتٍ إلى آخر؟

شعر ليونيل بأنّه أصاب فوتييه في مقتل، فنظر إليه الآخر رافعاً ذقنه.

– إذا كان هذا العمل يثير قرفي؟

شعر ليونيل بأنّ فوتييه سيغضب، وأحسّ بالشتيمة الجاهزة للخروج، فقام فوتييه بالنظر إلى الطريق عوضاً عن ذلك.

– شخصٌ أثار حنقك، ووجهه أثار حساسيّتك، ألا ترغب برؤيته ميّتاً؟ أفترض أنّ هذا قد حصل معك سابقاً، أليس كذلك؟

- أحياناً .

- افترض إذنْ أنّك تريد رؤيته قتيلاً، تقوم بأخذ مسدسٍ يوماً ما، أو سكّينٍ، أو أيّ شيءٍ وتقتله، أيمكن أن تتخيّل شيئاً أكثر لذّةً من هذا؟ سأقول لك ما هو أكثر لذّة بعد من ذلك : أن تقوم بقتله، وضميرك مرتاحٌ؛ لأنّك تعرف أن لا أحد سيلومك على شيءٍ، لا بلْ سوف تتلقّى التهنئة على ذلك .

ضحك فوتييه، لكنّ ليونيل شعر بأنّه يريد أن تكون هذه الكلمات خلاصة الحديث، فأخذ يستغرق كليّاً في تأمّل الآثار التي خطّتها الشاحنة التي يلاحقونها على الأرض. هنا حيث وصلوا، اختفت الآثار تحت طبقةٍ من الثلج الجديد، فساروا على بساطٍ أبيض لبرهةٍ، وكان فوتييه يحملق في الأرض لاصقاً رأسه بالزجاج الأماميّ، وعند منحدرٍ خفيفٍ؛ حيث الطريق محاطٌ بأشجارٍ، ظهرت الآثار فجأةً من جديد؛ لأنّ الطريق كان غير مغطّى بالثلج، فارتاح فوتييه .

- « في الأحوال كلّها » . اختتم فوتييه، وهو يتّكئ من جديد على ظهر مقعده : « حين ألتقي بهذا الوغد وجهاً لوجه ستكون تلك أمتع لحظات حياتي » .

فهم ليونيل أنْ لا فائدة من المزيد من الكلام .

أمسك مارك بالمقود مرّةً أُخرى، فاكفهرّ وجهه فجأةً! كان ذلك وجه المعركة، فأطلق المحرّك بطاقته كلّها، لكنّ الميلان كان يزداد شدّةً، ولم تتقدّم الشاحنة بسرعةٍ أكبر، وبدأت تمطر رذاذاً، وكانت المسّاحات مستهلكةً؛ أمّا الزجاج الأماميّ، فتغطّى بغبارٍ ممزوجٍ بالماء، ما جعل الرؤية تتمّ عبر ستارةٍ من الأوساخ .

- ما زلنا بعيدين عن القمّة؟

- لا أدري.

- شعرت مود بأنّه يلومها؛ لأنّها فرضت عليه التوقّف، وهجرتها الحماسة برمّتها، وبقي في نفسها شعورٌ مبهمٌ بالإهانة كما لو أنّ الحُبّ الذي أظهرته تراجع فجأةً إلى أمرٍ ثانويٍّ غير مُجْدٍ، وهدفه التسلية .

كانت تدرك إلحاح الموقف، لكنْ بدا لها أنّ ذلك لا يفسّر كلّ شيء، فالقضايا الجدّيّة بالنسبة إلى مارك كانت في نطاقٍ آخر، وليس ذلك المتعلّق بالمشاعر، وكان هذا على حدٍّ

سواء ما يجذبها نحوه، وهو أيضاً مصدر الألم الذي ربّما لن يكون بإمكانها تحمّله لوقتٍ أطول.

بحث مارك عن لفافة تبغٍ في جيبه، لكنّه لم يجد شيئاً، فأخذت تبحث عن علبةٍ أُخرى ضمن الأغراض المبعثرة خلف المقعد، فوجدت واحدةً وفتحتها، وأشعلت لفافة تبغٍ، وقدّمتها إليه بعد أن بلّلتها بشفاهها، وكان ذلك شكلاً من أشكال القبلات، وتمنّت لو يكون حسّاساً تجاهها، لكنّه كان قد انغلق على نفسه تماماً، وبدا كأنّه لم يعد يثق بأيّ شخص. هل كان لها أن تأمل أن يتذكّر عندما يتعرّض للخطر أنّها معه؟

أشاحت بنظرها نحو الطريق، ومن دون أن تنظر إليه تركت فكرها يتخدّر بالضربات غير المنتظمة لماسحات الزجاج الأماميّ، التي ما فتئت ترسم قشرةً من الطين على الزجاج .

أخرجتها ضربة فرامل مفاجئة من حلم يقظتها بعد برهةٍ؛ كان المطر يهطل بغزارةٍ أكبر الآن، وضوء النهار يخفت. فتح مارك بابه فجأةً وخرج، ورأته يتقدّم، والماء يسيل منه، ثمّ توقّف على بعد عدّة أمتارٍ من الشاحنة، وكان ينظر إلى شيءٍ لم تستطع تمييزه بسبب ستارةٍ من المطر تدفّقت على الزجاج الأماميّ، وفتحت الباب هي بدورها وترجّلت، ولم تكن تلبس سوى قميصٍ، وفي غضون لحظاتٍ باتت مبتلّةً تماماً، وكان المطر بارداً، والريح التي لم تسكن جعلتها ترتجف، فالتحقت بمارك .

أصبحت التضاريس أكثر انحداراً منذ عدّة كيلومترات، عوارض حجريّة كانت تنتصب أعلى الطريق الذي أصبح أضيق، ويسير بمحاذاة جرفٍ صخريٍّ قائم، وكان الجبل ممتلئاً بمضائق؛ أمّا الماء الذي يسيل في هذه الأقماع الحجريّة، فيتدفّق إلى الطريق، ولم يكن هنالك من جسور، أو قنوات تصريف تحت الأرض، ولم يكن هنالك سوى منخفضات في الأماكن التي حفرت فيها السيول أخاديد، ولا بدّ من أنّ الطريق يزداد انخفاضاً في كلّ فصل ربيع. أمامها، في المكان حيث يتدفّق أحد هذه السيول الصغيرة، كان الماء قد عرّى الغطاء الإسفلتيّ كلّه .

وعلى مسافة عشرة أمتارٍ، كان الطريق قد تحوّل إلى تجويفٍ ضيّقٍ من الصخور، يحدّه المنحدر من جانب، والهاوية من الجانب الآخر .

انشغل مارك بقياس عرض الممرّ تحت وابلٍ من المطر، وقدّر المسافة بخطواتٍ واسعةٍ، ولكنْ بما أنّ حساب كلّ سنتمتر كان مهمّاً، قام بنزع حزامه واستعمله ليقوم بقياسٍ أكثر دقّة، من دون أن يقول أيّة كلمة، فعاد نحو الشاحنة كي يقدّر المسافة ما بين الإطارَيْن .

– « يمكننا القيام بذلك » . قال مارك : « ستقومين بإرشادي » .

ذهبت مود لإحضار سترتها المطريّة من القمرة، فارتدتها فوق ثيابها المبتلّة، لم تدفئها، لكنّها على الأقلّ ستَقيها من الريح، ووقفت إلى الجانب الآخر من مهبط السيل، فركب مارك خلف المقود، وأدار المحرّك . من بعيد، كان يبدو أنّه من المستحيل أن يتمكّن من المرور، لكنْ كلّما اقترب كانت مود ترى أنّ عرض الشاحنة وعرض المضيق متساويَان تقريباً . طوى المرآة الخلفيّة، واحتكّ بالمنحدر، ومن جهة الهاوية، كان الإطار يتجاوز بمسافةٍ واسعةٍ الأرضَ الصخريّة، فتابع مارك تقدّمه، وكان نظام التعشيق قاسياً، وعلى الرغم من الجهد الذي بذله ظلّت الشاحنة تتقدّم على نحوٍ متقطّع، وكلّ هزّةٍ كانت تفتّت حصى تحت الإطار الأيمن الأماميّ، ذلك الذي كان من جهة الهاوية، وتولّد شعورٌ مبهمٌ لدى مود بأنّ طرف الطريق بدأ يتفتّت، لكنّ الشاحنة تابعت تقدّمها، فراقبت الإطارين الخلفيّين اللّذين دخلا بدورهما الجزء الضيّق، وكان المحور الخلفيّ مؤلّفاً من أربعة إطارات، وأعرَضَ من الأماميّ، من جهة الهاوية، وكان أحد الإطارات ما يزال يدور على الأرض؛ أمّا الآخر، ففي الفراغ تماماً . تقدّمت الشاحنة، ووصلت الإطارات الأماميّة الآن إلى الجانب الآخر من الجزء المنهار؛ حيث كان الطريق يعود إلى عرضه المعتاد، لكنْ فجأةً! فيما كانت مود تسمع زمجرة المحرّك، لم تعد المركبة تتقدّم؛ لأنّ الإطارات الخلفيّة بدأت تنزلق، فأصرّ مارك، وحاول جهده ثلاث مرّاتٍ، أو أربع من دون أن تتحرّك الشاحنة . أخيراً، قام بشدّ فرامل اليد، ومرّ عبر القمرة، وخرج من الباب الآخر؛ لأنّ المنحدر كان يعيق فتح بابه، وحاول أن يفهم ماذا جرى من خلال النظر أسفل الشاحنة، لكنّه لم يلحظ أيّ شيءٍ غير عاديّ، واضطرّ إلى الصعود على سقف القمرة كي يتفحّص الجانب الخلفيّ .

– ماذا ترى؟

– أعلى الحمولة يحتكّ بالصخر .

كان الجدار الصخريّ يحمل نتوءاتٍ في جسده، ومرّت قمرة القيادة المنخفضة من دون صعوبةٍ من تحته، لكنّ مؤخّرة الشاحنة كانت تصطدم بالعائق، فتوجّب حكّ الصخرة لتعريض الممرّ، لكنّهما لم يكونا يملكان الوقت ولا المعدّات لذلك، فقام مارك بتقدير الموقف من دون أن يجيب عن أسئلة مود، ثمّ صعد الشاحنة.

- « لا تبقي في الأمام! » . صرخ : « تراجعي مسافة عشرة أمتار! » .

اغتاظت لأنّه لم يكن يردّ على أسئلتها، ولكنّ الوقت لم يكن مناسباً للسجال، فتراجعت.

سخّن مارك المحرّك بالضغط عميقاً على دوّاسة الوقود، ثمّ عشّق السرعة بحركةٍ واحدةٍ، فقفزت الشاحنة، لكنّ العائق أوقفها مباشرةً، إلّا أنّها تحرّكت نتيجة القوّة الكبيرة، فقوّة المحرّك أنتجت حركةً مزدوجةً، وحرّكت العربة الثقيلة، والحركة الأكثر وضوحاً كانت انزلاقاً خفيفاً للمحور الخلفيّ نحو الخارج. دارت الشاحنة حول محورها قليلاً مدفوعةً بالنتوء الصخريّ، واقترب الإطار الثاني الخارجيّ من الهاوية أكثر. اعوجّ – في الوقت نفسه – الشادر الذي يغطّي الحمولة، وسُمع صوت تمزّقٍ من جانب المنحدر، ودامت المناورة بمجملها لوقتٍ قصيرٍ، لكنّ مود تصلّبت من الخوف، وكانت متأكّدةً من أنّ الشاحنة ستسقط في الهاوية، فأطلقت صرخةً، وأشارت إشارةً كبيرةً إلى مارك كي يتوقّف، ومن دون أن تفكّر بما قاله لها، تقدّمت نحو قمرة القيادة، في تلك اللّحظة، شغّل مارك المحرّك بقوّته كاملةً، وأطلق السرعة، فقفز المحرّك من جديد. انزلقت – فجأةً – الإطارات الخلفيّة نحو الهاوية من دون أن تسقط فيها، ذلك أنّه في الوقت نفسه، الْتَوَت الأقواس التي كانت تثبّت الحمولة، وبما أنّ الشاحنة كانت تعمل بقوّتها بأكملها، انطلقت إلى الأمام، وقد تحرّرت من العائق .

رأت مود كلّ شيءٍ بلمحة عين : رأت مقدّمة الشاحنة الضخمة التي تشقّ طريقها نحوها، ومن خلف الزجاج الأماميّ المُشوّش بالماء الممزوج بالتراب، وجه مارك المكفهرّ، شبه الشرّير، العازم على تجاوز العائق حتّى لو اضطرّ إلى دهسها، فشعرت بماصّ الصدمات يصدمها، ووقعت إلى الخلف، وكانت الشاحنة ما زالت تتقدّم، وحين توقّفت في نهاية الأمر كانت مود ممدّدةً تحت المحرّك. لم تشعر بأنّها فقدت الوعي، لكنّها شعرت مع ذلك – حين سحبها مارك من كتفيها ليخرجها من الموضع الذي كانت فيه – بحرقٍ على خدّها من دون أن تذكر أنّها لا مست شيئاً ساخناً؛ يبدو أنّها اصطدمت بأنبوب

العادم حين سارت الشاحنة من فوقها، لكنّها لم تشعر بذلك، وحين نهضت، أدركت بأنّ جلدها كان ملذوعاً من كرسيّ خدّها حتّى الأذن، ومتألّماً جدّاً؛ لا بدّ من أنّها سقطت ممدّدةً على حجرٍ؛ لأنّ ظهرها كان يؤلمها جدّاً، تحديداً بين لوحَيْ كتفيها.

أصبح مارك هادئاً وحنوناً من جديد. بحث عن كمّاداتٍ في حقيبة الإسعافات الأوليّة، وراح يمسح الحرق بسائلٍ باردٍ أراحها.

– هل تجاوزنا العائق؟

– نعم، انتهينا.

قبّلها، ولم يقم بلَوْمِها على اقترابها كثيراً، لا بل قدّم إليها اعتذاراً ضبابيّاً، لقد كانت مضطّربةً بسبب مشاعرها المتناقضة، التي تملّكتها بالقوّة نفسها، ولم تكن تدري إن كانت تبكي أم تضحك. لقد نجَوَا. كانت ما تزالت ترى الإطار الخلفيّ يدور في الفراغ، وتذكّرت أنّ الشاحنة كلّها أوشكت على السقوط في الهاوية، لكنْ في الوقت نفسه، لم تفارقها صورة مارك، وهو مندفعٌ بهدوءٍ نحوها.

– « يجب ألّا نبقى هنا » . قالت مود.

بدأت تدرك من جديد خطورة الموقف، وفكرة العمل ساعدتها على طرد الانفعالات، فنهضت وأحسّت بنوعٍ من اللذّة في التغلّب على الألم الذي كانت ما تزال تشعر به في ظهرها.

– هل أنتِ بخير؟

– نعم، لا تقلق، فلْنتابع.

– علينا أن نعيد ترتيب الحمولة قبل ذلك، لقد تمزّق الشادر، وانكسرت الأقواس في الخلف أيضاً، ولم يعد هناك شيء يثبّت الصناديق من الجهة اليسرى.

– أرني .

خرجت، وهي تصكّ أسنانها كي تسيطر على الألم، وزاد البرد من شعورها بالحرق. لا بدّ من أنّها ارتطمت بمكانٍ آخر عندما سقطت، فقد كانت ذراعها اليمنى تؤلمها عند تحريكها، وكانت تشعر بثقلٍ خلف حوضها، ولم يكن ذلك بالتأكيد بالشيء الخطِر، لكنّها قالت في نفسها : إنّ جسدها أصبح مغطّى ببقعٍ زرقاء.

قاما بالدوران حول الشاحنة لحصر الأضرار : القسم الأيسر كلّه من الحمولة كان مكشوفاً فعليّاً، وبعض الصناديق قد وقعت بالفعل، والمطر الذي كان يهطل عليها نفش الورق المقوّى، وبدأ شكلها يتشوّه، ولا يمكنهم متابعة المسير هكذا، وكان من الممكن أن يفقدوا قطعاً أُخرى من الحمولة عند كلّ اهتزازٍ يسبّبه الطريق.

– يجب التخلّص من أكبر قدْرٍ ممكنٍ من الصناديق. سنكوّم ما نحتفظ به في المقدّمة، ونعمل على تغطيته كي لا يبتلّ بالماء .

– أتعرف في أيٍّ منها توجد المتفجّرات؟

– نعم، لحُسن الحظّ خبّأتها كلّها في العمق، وعلّمتها بقطعةٍ من لاصقٍ أحمر إلى جانب بطاقة المعلومات اللاصقة.

قفز مارك على المنصّة، وبدأ يرمي بالكراتين على الأرض .

– ماذا سنفعل بها؟

– لا نستطيع سوى تركها على الطريق. لحُسن حظّ من سيجدها.

بعض الكراتين كانت مُعلّمةً بصليبٍ أخضر للدلالة على أنّها تحوي أدويةً، وبعضها الآخر، الأكثر ثقلاً، مُلئت بموادّ غذائيّة، وكانت هناك صررٌ من الثياب المضغوطة أيضاً، التقطها مارك من شرائط البلاستيك التي كانت تحزمها، وحاولت مود إبعاد الكراتين كي تفسح مجالاً، لكنّها لم تقدر على حمل شيءٍ، فاكتفت بتغيير مكان الأخفّ منها بدفعها بقدميها.

كانت الحمولة أضخم ممّا تبدو عليه من الخارج، وتخلّص مارك من نصفها تقريباً، وما بقي منها ظلّ في مأمنٍ؛ لأنّ الشادر كان سليماً من منتصفه، فقام مارك بتجميع قطع القماش الممزّقة، وحاول أن يصنع منها مخزنا جديداً باستعمال الأطواق التي كانت تثبّت الأقواس الخلفيّة، ولم تكن النتيجة جميلةً، ولكنْ على الأقلّ بقيت الحمولة المتبقّية في مكانٍ جافّ، فقفز إلى الأرض، ومسح يديه بطرف صرّة ثياب .

بدا المشهد غريباً؛ رقدت عشرات من الصناديق الملطّخة بالطين وسط هذا الجبل الموحش، والمفارقة هي أنّ مود أحسّت بأنّ هذا إثباتٌ للحقيقة، فالقيم العليا التي دفعتها للمجيء إلى هنا أثبتت أنّها مثيرةٌ للسخرية، وسخيفةٌ تقريباً، هذه الصناديق المثقوبة

المبعثرة على الطريق عكست الصورة التراجيديّة لعجز العمل الإنسانيّ أمام رعب وتعقيد الحرب، وصرر الثياب، وطرود الغذاء، وعلب الأدوية، كانت مضحكةً بكلّ بساطة، والآن بعد أن أصبحت أخفّ ومحمّلةً بسلاحٍ، بدت الشاحنة كأنّها تحرّرت من هذا النفاق، إنّهم الآن يهتمّون بما هو أساسيّ، وشعرت مود بالفخر لأنّها في تلك اللحظة تخلّت عن دور المنقذ المبهم، الذي لم تكن قد شعرت حياله بالراحة قطّ، والشيء الوحيد الذي كان يحزنها ويدفعها إلى البكاء هو أنّ اشتراكها في هذه المعركة كان يقرّبها من مارك، في حين أنّه لا يعيرها أيّ اهتمامٍ حين يكون مركّزاً على عمله، ولم تكن تستطيع أن تنسى نظرته من خلف زجاج الشاحنة، كان مستعدّاً لأنْ يحطّم العوائق كلّها كي يصل إلى الهدف الذي حدّده لنفسه، حتّى إن احتاج ذلك إلى أن يطحنها تحت عجلاته .

خفّت حدّة الرياح، وأصبح المطر رذاذاً من الممكن أن يتحوّل إلى ثلجٍ، ولفهْم صمت الجبل ملأت مود نفسها من هذا الصمت كعلاجٍ قادرٍ على أن يعيد إليها بعضاً من السلام بعد هذه الأوقات المخيفة والعنيفة، وكان مارك يصغي هو الآخر، لكنْ ليس ليستمع إلى الصمت، فرفع إصبعاً، وصوتٌ ما زال بعيداً، وبالكاد يمكن سماعه، صوتٌ رخيمٌ يجتاز الهواء الرطب كأزيز حشرة، كان منتظماً، ولكنّه يزداد حدّةً فجأةً! نظرت مود إلى السماء الرماديّة، فظنّت أنّه صوت طائرةٍ، أو مروحيّةٍ، لكنّها فهمت عندما أنصتت بتركيز؛ الضجيج كان قادماً من الطريق من الجهة نفسها التي أتوا منها .

- « إنّهم هُم » . قال مارك.

- بهذه السرعة؟!

هرعا إلى القمرة وركبا، وأدار مارك المحرّك وانطلقا .

7

– ما هذا الذي أراه؟

لحظ ليونيل – الذي كان يقود – كتلاً غير محدّدةٍ في البعيد مبعثرةً على الطريق، فظنّ أنّها صخورٌ تدحرجت من أعلى المنحدر، فضغط على الفرامل.

– اذهب وتفقّد.

فتح أليكس باب الشاحنة وخرج، فتعرّف من بعيد إلى الصناديق، وظنّ أنّها سقطت من الشاحنة التي كانوا يلاحقونها، ومع تقدّمه أكثر، لحظ أنّ الطريق على شكل زاويةٍ قائمة، وأنّ المضيق الذي يمرّ الطريق عبره كان قد ضاق نتيجة لانهيارٍ صخريٍّ، فأشار إلى ليونيل كي يتقدّم حتّى يصل إليه، فقفز فوتييه خارج الشاحنة، ومشى حتّى وصل إلى مكان الانزلاق الأرضيّ، فانتابته نوبة غضبٍ شديدة.

– يا إلهي! لقد استطاعوا العبور على الرغم.....

– « لماذا تركوا حمولتهم؟ » . قال ليونيل الذي انضمّ إليهم .

– « ليس الحمولة كلّها » . أشار أليكس.

– بالطبع ليس كلّها، أتظنّ أنّه سيتخلّى عن الديناميت؟!

قيّم فوتييه حجم المشكلة بنظرةٍ واحدة.

– لا بدّ من أنّهما قد مزّقا الشادر؛ يمكن ملاحظة أنّ الشاحنة احتكّت بالمنحدر.

كانت قطعةٌ من القماش ما زالت معلّقةً على نتوءٍ صخريٍّ في الأعلى، كما كان يمكن رؤية الموضع الذي انزلقت إليه الإطارات الخلفيّة بوضوحٍ من جهة الهاوية، دافعة معها قطعة من الأرض، الأمر الذي زاد الممرّ ضيقاً .

– إن استطاعوا هُم العبور، فبإمكاننا نحن أيضاً ...

رفع فوتييه كتفيه، ولم يصرّ ليونيل. لقد استنتجوا عند مرورهم على جسرٍ ضيّقٍ قبل عدّة أيّامٍ أنّ الشاحنة التي يقودونها أعرض من الأخرى بعشرين سنتمتراً.

- « علينا وضع جذع شجرة » . اقترح ليونيل .

- وهل ترى أشجاراً هنا؟

لقد كان الجبل أجرد كليّاً، إلّا من بعض شجيرات التنوب القزمة التي كانت تتعلّق على الصخور، وجذوعها لا تتعدّى عرض الكف.

- « حسناً، انتهى الأمر » . اختتم أليكس، وهو يجلس على ماصّ الصدمات.

لم يكن في قرارة نفسه تعِساً لأنّ الملاحقة قد انتهت، لقد كانت تلك النهاية الأكثر ملاءمةً؛ لا أحد فقد ماء وجهه، وتجنّبوا الأسوأ.

- « كيف انتهى الأمر؟ » . بصق فوتييه .

لم يكن يريد أن يقرّ بهزيمته، وكان الاثنان يراقبانه، وهو يمشي مهتاجاً على الطريق، يضرب برجله على الأرض ليتحقّق من صلابتها من جهة الهاوية، ويتفحّص بعنايةٍ الجدار الصخريّ ونتوءه، ويقيس عرض الممرّ، ثمّ عرض محاور العجلات، وكان غارقاً في التفكير، فتركاه يقوم بعرضه، وقام أليكس بتحضير الطعام، وأخرج موقد الطبخ، ووضعه تحت صادٍّ للرياح صنعه من قطعةٍ من الشادر، وتسنّى لهم الوقت لكي يتناولوا طعام الغداء بسلام. كان ليونيل يحاول أن يخفي ارتياحه قدر استطاعته؛ أمّا أليكس، فلم يكن يتكلّف هذا العناء، كان يصفّر، وفوتييه المنعزل قليلاً كان ما زال يفكّر، ومضت عدّة ساعات من دون فعل أيّ شيء، فدخّن ليونيل كي يهدأ، وبدأ ينعس، وكان أليكس يقصّ أظافره.

انتفض فوتييه فجأةً!

- وجدتها! قفا أنتما الاثنان، ليس لدينا وقتٌ لنضيعه .

لكنْ بالنسبة إلى ليونيل، وكذلك أليكس، كانت صفحة المطاردة قد انطوت، وفي رأسيهما كانت القضيّة منتهية : أجبرتهما ظروفٌ خارجةٌ عن إرادتهما على متابعة الملاحقة، ثمّ كفّا عن البحث؛ وقد وجّها اهتمامها إلى شيءٍ آخر.

– « اسمع، فوتييه، عليك أن تتعلّم كيف تتوقّف » . قال ليونيل : « حين لا نستطيع ذلك يعني أنّنا لا نستطيع، وهذا ليس خطأ أحد » .

– قفا! لم أطلب رأيكما .

– فليكن، ونحن نعطيك إيّاه.

نظر أليكس إلى فوتييه باحتقارٍ، وبكلّ هدوء، فبما أنّه لم يستطع أن يحلق ذقنه في الأيّام الأخيرة، كان وجهه مكسوّاً بلحيةٍ سوداء مجعدة بطول شعره نفسه، ومسحت عن وجهه المحلوق ما كان يوحي بتعابير طفوليّة كلّه؛ أمّا فوتييه الذي لم يكن أكثر عنايةً بنفسه، فقد بدا أكثر شيخوخةً وضعفاً من جرّاء الشعر الرماديّ الذي كان ينمو بغير انتظامٍ على وجنتيه، هذه المواجهة كانت بلا شكّ غير متكافئة، لا سيّما أنّ ليونيل قد اختار بوضوحٍ معسكره هذه المرّة، وكان يقف إلى جانب أليكس من دون أن يتحرّك .

نظر فوتييه إلى الاثنين، وعضّ على شفته.

– « كما تريدان » . همس فوتييه من بين أسنانه التي بالكاد فتحها.

استدار وعاد بهدوءٍ إلى الشاحنة، ورأوه يصعد القمرة ويبحث عن شيءٍ في داخلها.

حين عاد وقف أمامهما.

– « هل أمعنت التفكير؟ » . قال أليكس من دون أن ينظر إليه .

كان ليونيل مستلقياً مسنداً رأسه إلى صخرةٍ، ومخدّراً من لفافة الحشيش، وعيناه نصف مغلقتين.

– بعمق .

– إلى أين وصلت؟

– ستقومان بما أمليه عليكما.

استدار أليكس نحو فوتييه، وحينها فقط اكتشف أنّه يوجّه نحوه سبطانة مسدّس عيار 9 مم .

– هل تشكو من شيء؟ ماذا تريد؟

- لقد كلّفت بمهمّةٍ، وأريد أن أكملها حتّى النهاية.

- لكنْ بما أنّ هذا مستحيل!

- سنعرف حين نستنفد المحاولات كلّها.

نهض أليكس وليونيل ببطءٍ من دون أن يبعدا نظريهما عن السلاح .

- أريد أن تقوما بما أريده تماماً .

لم يكن هناك جواب ممكن، وترك فوتييه قليلاً من الوقت يمرّ كي يستوعبا توازن القوى الجديد، ثمّ قام بتوجيه نظره إلى أليكس.

- حين حدّثتنا عن المتفجّرات الصناعيّة ذلك اليوم أريتنا طرداً حسب ما أذكر. أين هو؟

كان بإمكان أليكس أن يكذب، فذلك سهلٌ جدّاً، ويكفي القول إنّ مارك احتفظ به، لكنّ نظرة فوتييه كانت حادّةً إلى درجة أنّ أيّ تردّدٍ كان سيلحظه، وكان قد تردّد .

- إنّه في حقيبة ظهري.

- اذهب وأحضره .

نهض أليكس، ومشى ببطءٍ، وعاد مع الطرد .

- أحذّرك من أنّ المتفجّرات لا تعمل عندما تكون مبلّلة.

- سنرى ذلك.

كان المطر قد توقّف على أيّ حال، وفتح فوتييه الطرد، وأخرج قوالب المتفجّرات الصغيرة، وكان هناك خمسة منها.

- العلبة مخصّصة لستّة قوالب. أين السادس؟

نهض أليكس بتمنّعٍ، وبحث من جديد في حقيبته، وعاد بالمتفجّرة السادسة.

- هذه المتفجّرات مخصّصة للفحم، ولا أعتقد أنّها تصلح لشيءٍ آخر.

لم يتكلّف فوتييه عناء الردّ.

– تحرّكْ ليونيل، اصعدْ إلى الشاحنة، وارجع بها إلى الخلف هناك!

جلس ليونيل خلف المقود، وقاد رجوعاً كي يركن الشاحنة في مكانٍ بعيدٍ عن الانهيارات الأرضيّة.

– أنت، أيّها القويّ، اذهب وأحضر صرّةً من صرر الثياب التي رماها الأحمقان .

وقف أليكس، وقطع المنطقة المنهارة، وأمسك بإحدى الصرر التي كانت تزن قرابة خمسين كيلوغراماً وأحضرها بصعوبةٍ، فجعله فوتييه يسندها إلى المنحدر، في المكان الذي كان يوجد فيه النتوء الذي يعيق العبور.

– ابتعد الآن في هذا الاتّجاه.

مشى أليكس لعشرة أمتارٍ في الاتّجاه المعاكس للمكان الذي ركن ليونيل الشاحنة فيه

.

– حسناً، هذا يكفي!

وضع فوتييه المسدّس في نطاقه، وصعد فوق الصرّة، وكان يستطيع من هناك أن يصل إلى الشقوق التي تحز النتوء، فقام بكشط التراب الذي يملأ الشقوق، وهو يراقب أليكس بطرف عينه، ونظّف العديد من الشقوق وثبّت بها المتفجّرات، ونزل عن الصرّة، ووضع آخر متفجّرتين على مستوى طوله تحت النتوء، ثمّ قام بتناول مسدّسه بيده من جديد، وحلّ صمّام الأمان.

– ألديك ولّاعة؟

اقترب أليكس وقدّم إليه ولّاعته.

– احتفظ بها، لديّ أعواد ثقاب. حسناً، إنّه دورك الآن أن تصعد فوقها.

– لماذا؟

– حين أقول لك، ستشعل المتفجّرات العلويّة، وأنا سأتدبّر أمر الاثنتين في الأسفل، لكنّني أحذّرك! ليس لدينا فتيلٌ موحّدٌ، علينا إذنْ أن نتدبّر أمرنا، وحين يبدأ بالاشتعال، علينا الهرب سريعاً.

صعد أليكس فوق الصرّة.

- « حين أصبح مستعدّاً سأبدأ بالعدّ » . قال فوتييه .

أخذ يبحث في جيوبه كي يجد عود ثقابٍ، ووضع أليكس الواقف على الصرّة يديه على المنحدر، وأسند رأسه إلى الصخر البارد، وكان يشعر بأنّه منهارٌ بعد هذه الأيّام كلّها من النوم السيّئ والتوتّر، أمام الخيانات، وتشرّد المجموعة، وبعد هذا الجنون، وهذا العبث كلّه، فنظر إلى قوالب المتفجّرات الصغيرة، وفكّر ببوبا؛ لقد قام بهذا كلّه من أجلها، وها هو الآن راقدٌ على صرّة الثياب العتيقة تحت المطر، ويقوم بعملٍ ليس له أيّ معنى. هل سيراها مجدّداً؟ وكيف سيعيشان؟ أدرك وهو يتذكّرها بأنّه لم يعد قادراً على تذكّر ملامحها، وفي الحقيقة، لقد أحبّ من خلالها فكرة بقدْر حبّه نفسه لشخصها، ولم يعد الآن يؤمن بها. كان مارك محقّاً : يجب ألّا نخدع الحرب، هي فوضى، ويجب التخلّص منها بصورةٍ قاطعة و ...

- ثلاثة... أسمعت؟ بحقّ الله، لقد قلت ثلاثة .

عاد أليكس إلى وعيه، وكان فوتييه قد أشعل فتائله، وركض كي يحتمي، فضغط أليكس على الولّاعة، وأشعل الفتيل الأوّل .

تمايلت الشعلة في الهواء البارد، وانطفأت لدى إشعال الفتيل الثاني، فأدار أليكس عزقة الولّاعة بعصبيّةٍ، ولم تكن قوّة الريح مثل السابق، لكنّها كانت ترتدّ على الجرف مانعةً الغاز من الاشتعال، فرجفت يده من البرد والخوف لدى إشعال الفتيل الثالث، فانزلق إصبعه عن العزقة الرطبة، وكان يسمع في الأسفل طقطقة احتراق الفتائل الأخرى .

- ماذا تنتظر؟

صرخ فوتييه الذي كان يختبئ خلف حافّة المضيق، ولا يُرى منه سوى وجهه الشاحب، وكان يعتقد أنّ ذلك عملٌ تخريبيّ. هل كان أليكس يقوم بتخريب مخطّطه أملاً في إنقاذ صديقه؟

اشتعل الفتيل الرابع، فقفز أليكس، لكنّ الصرّة تدحرجت من تحت قدميه، فسقط أرضاً، وفي اللّحظة التي نهض فيها، انفجرت القنبلة الأولى، ولم تكن المتفجّرة قويّةً جدّاً في الواقع، فارتجّت الصخرة، ونهض أليكس. لكنْ في اللّحظة التي بات فيها واقفاً، انفجرت القوالب الأُخرى بالتتابع مطلقةً هطلاً من أحجارٍ صغيرةٍ، فانهار بعدها النتوء

الصخريّ دفعةً واحدةً، قاذفاً كتلاً صخريّةً حادّةً على أليكس، وارتدّت عن جسده، ومن فوق الأرض، وتابعت طريقها نحو الهاوية .

خفت صوت الأحجار التي كانت تتدحرج في الهاوية قبل أن يخمد كليّاً، فخيّم صمتٌ عميقٌ على الجبل، وبقي ليونيل الموجود قرب الشاحنة، وفوتييه المختبئ بلا حراكٍ لبرهةٍ، فهرعا بعدها إلى مكان الانفجار، وهرع ليونيل نحو أليكس، في حين كان فوتييه في عَجلةٍ من أمره لرؤية نتائج عمليّته .

– « لقد مات! » . صرخ ليونيل، وهو يقلب أليكس على ظهره .

اقترب فوتييه، كأنّه مضطرٌّ إلى عملٍ لا يريده، وقرفص بالقرب من أليكس، وأخذ يفحص نبضه .

– لا تبالغ! إنّه غائبٌ عن الوعي، هذا ما في الأمر كلّه.

كانت هناك جروحٌ عديدةٌ باديةٌ على جسده، والأكثر خطورةً منها كان على مستوى الكتف الأيسر الذي كان قد شقّ شقّاً عميقاً بحدّ أحد الأحجار، وارتطم حجر آخر بجمجمته من الخلف، فقام ليونيل بتحرير إحدى قدميه من صخرةٍ سقطت عليها .

– ما العمل؟

– الانتظار. إنّه لا ينزف بشدّة، سنحصي جروحه بعد أن يستيقظ.

توجّه فوتييه لتفحّص المنحدر بعد أن أصدر حُكمه، وكان مسروراً جدّاً، وعندما يسحب الكتل التي سقطت إلى الأسفل، سيصبح بالإمكان الحصول على طريقٍ أعرض، لا سيّما أنّه ما من شيءٍ يعيق الشاحنة من الأعلى بعد، بما أنّ النتوء الذي دكّته المتفجّرات قد انهار .

بدأ أليكس يعود إلى وعيه ويئنّ، وحاول ليونيل أن يُجلسه، فصرخ أليكس عندما لمس كتفه. لا بدّ من أنّ الصدمة قد سبّبت أضراراً جسيمةً، وكانت ذراعه معلّقةً بلا حراكٍ كما لو كانت مخلوعةً، ففرك أليكس رأسه باليد الأُخرى، ولقد كان مصدوماً، وبدا كأنّه لا يدري في أيّ مكانٍ هو، وبدأت الأرض الباردة التي كان يستلقي عليها تخدّره، فأخذ يرتجف.

– حسناً، ممّ يشكو بالضبط؟

اهتمّ فوتييه أخيراً بالجريح بعد أن أنعشه ما حصل للمنحدر، فتفحّص بيده الأماكن المختلفة التي بدت مصابةً في جسده جاعلاً أليكس ينتفض ويصرخ عدّة مرّات.

– إنّه يتفاعل؛ هذه إشارةٌ جيّدة .

– أتظنّ أنّه في حالٍ خطرة؟

– بالتأكيد، إنْ تركناه مستلقياً هنا، سنقوم بجعله يستلقي على السرير الخلفيّ. اجلب الشاحنة، وأحضر شادر الخيمة.

هرع ليونيل ينفّذ ما طلبه فوتييه، وقام بوضع شادر الخيمة على الأرض، وعمل على سحب أليكس فوقها. لم يعرفا من أيّ جانبٍ كان عليهما أنْ يمسكاه من دون أن يجعلاه يصرخ من الألم، وبعد أن أصبح مستلقياً على هذه الحمّالة المؤقّتة، قام كلّ واحدٍ منهما بالإمساك بطرفٍ وحمْله، فاحتاجا إلى عشر دقائق كاملة كي يرفعاه إلى الشاحنة، ويضعاه في الخلف.

– « سأقوم بإعطائه شيئاً يخفّف ألمه على الأقلّ » . قال ليونيل.

– لا تُتعب نفسك. حقيبة الإسعافات الأوليّة بقيت معهما.

من خلال البحث في علبة أدواته الشخصيّة، وجد ليونيل علبة باراسيتامول أعطى منها حبّتين للجريح .

نفد صبر فوتييه، فقد أخّرتهم هذه العمليّات كلّها، وبدأ اللّيل يحلّ، وكان يأمل أن يستطيع تجاوز العقبة في اليوم نفسه، وراح يسرع في نزع الأحجار التي كانت ما تزال تغلق الطريق، لكنْ كان بعضها ثقيلاً على نحوٍ يجعلها صعبة التحريك من قبل رجُلٍ واحدٍ فاضطرّ إلى انتظار انتهاء ليونيل من العناية بالجريح كي يجبره على العمل معه، وعندما انتهيا من تنظيف المنطقة، وجَدا أنّها غدت عريضةً كفاية لتسمح بمرور الشاحنة. لكنّ المرور يحتاج إلى دقّةٍ، وكان من غير الصائب أن يقوما بهذه المناورة حالاً، لا سيّما أنّ الرؤية كانت تقلّ أكثر فأكثر، فقرّرا التخييم في المكان، وانتظار الغد للمتابعة .

الشيء الوحيد المشجّع بالنسبة إلى فوتييه كان أنّ الحادث قد حيّد أليكس مؤقّتاً عن الصراع، ولم يعد لديه سوى شخص واحد يراقبه ...

– أتظنّ أنّهم سينجحون في المرور؟

كانت مود مستلقيةً على المقعد، تسند رأسها إلى الباب، وكانت وجنتها المحروقة تؤلمها، فيما شعرت بألمٍ كبيرٍ في الظهر، فكانت الصدمة أعنف ممّا تخيّلته، وكانت تواجه صعوبةً في البقاء جالسة .

– لا أعتقد، ولكنْ لا يمكنني أن أجزم مع وجود هذا الوغد فوتييه.

استمرّ مارك بقيادة الشاحنة، وقد بدأ منذ الصباح، وكانت مود غير قادرةٍ على أن تتناوب معه بسبب أوجاعها، وشعرت بأنّه قد استنفد قواه كلّها، وكانت جفونه ثقيلةً، وكان يغفو من وقتٍ إلى آخر، فأدارت المذياع، إلّا أنّه كان من الصعب في هذه الجبال التقاط أيّة محطّة، فسمعا فجأةً صوتاً متصاعداً، وظنّا في البدء أنّهما نجحا في التقاط بثٍّ إذاعيٍّ، لكنّ الصوت أصبح فجأةً قويّاً جدّاً، وأدركا أنّه صوت محرّكٍ نفّاث، مرّت من فوقهما طائرتان حربيّتان، واختفتا خلف حوافّ الجبال.

بات الطريق الآن أقلّ ضيقاً، لا تحدّه هاوية، الأمر الذي جعل القيادة أقلّ خطورةً، ثمّ باتت التضاريس أقلّ قسوةً على السفح الذي كانا يسيران عليه، ورياحٌ مباشرةٌ كانت تعصف جالبةً معها ثلجاً ناعماً يتساقط باستمرارٍ، فاحتاج الثلج إلى وقتٍ كي يعلق كون الأرض لم تكن باردةً كفاية، لكنْ لقوّة الهطل، انتهى الأمر بها مشكلة طبقة مرئيّة لوّنت كلّ شيءٍ بالأبيض، حتّى الطريق.

أشعل مارك الأضواء الأماميّة مع هبوط اللّيل، ولكنّها ما زالت لا تضيء جيّداً، والتعب، والرؤية السيّئة، وعدم وضوح الطريق الذي كان يختلط بهوامشه، دفع مارك إلى اتّخاذ قرار التوقّف، فأخرج كيس نومٍ، وغطّى به مود؛ أمّا هو، فتدثّر بغطاءٍ، واضطّجع خلف المقود، واحتاج إلى أقلّ من خمس دقائق كي يغرق في النوم.

من جهتها، لم تستطع مود النوم، وآلمتها جروحها أكثر في الظلام، وكانت تغفو من وقتٍ إلى آخر، لكنّ الكوابيس سرعان ما توقظها، وحلمت بأنّها تسقط في هاويةٍ، أو أنّ صخرةً تدحرجت من أعلى الجبل صدمتها، وفي أغلب الأحيان، كانت تتخيّل فوتييه يبرز فجأةً، وفي يده سلاح، وكانت ترى نفسها تذبحه. مثيرٌ للدهشة كم تغيّرت بعد عشرتها لمارك! في السابق، بقدر ما يمكنها أن تتذكّر، كان تمرّدها مجرّداً : لقد كانت تمقت ظلم العالم، لكنّها لم تكن تكره شخصاً محدّداً، فالعمل الإنسانيّ وفّر لها وسيلةً للاستجابة إلى هذا الاستياء الواسع، ولم يكن ذلك كافياً لها، وأخذت تنجرّ شيئاً فشيئاً إلى الانخراط المباشر بقدْرٍ أكبر، وإلى تجاهل مبدأ الحياديّة المقدّس، وأخيراً، تبعت مارك في معركته

المثاليّة، ولم يعد العالم الآن بالنسبة إليها عبارة عن حممٍ بركانيّةٍ تشكّلها قوى الشرّ غير المرئيّة على هواها، بل ساحة معركة يتجابه فيها أصدقاء وأعداء. لم يكن لديها أعداء حتّى ذلك الوقت، وكان لديها خصومٌ في أسوأ الأحوال، وهذا لم يكن الشيء نفسه؛ فالخصم يُصارع؛ أمّا العدوّ، فيُصفّى. لقد اكتشفت شعوراً جديداً : الكراهية، فقد باتت تكره فوتييه وأشباهه، وحين كانت تطلق لنفسها العنان في الأحلام، كانت أفكار الجرائم هي التي تخطر على بالها، ولم يعد الأمر ينفّرها، وكانت هي أولى المندهشين من هذا التحوّل، فشعرت بلذّةٍ عميقةٍ عندما تخيّلت سكّيناً يقطع حنجرة هذا الشخص، لترى دمه ينضح، وتسمع حشرجة موته. ارتعبت من هذا التحوّل! ألم تكن تريد أن تغدو كأفراد الميليشيا هؤلاء الخالين من الرحمة، والرجال المسؤولين عن أكبر الفظائع؟ لأنّ سمة الكراهية هي أنّها لا تعرف حدوداً، ولو سُلّم فوتييه إليها مقيّداً ومجرّداً من السلاح لتقرّر مصيره، ألن تكون على الرغم من ذلك قادرةً على قتله؟ ألن تستمتع أكثر إن جعلته يتعذّب؟

تزاحمت هذه الأفكار في بالها، وكانت غير قادرةٍ على الفصل بينها، وما كانت تعلمه كلّه أنّه في هذه الظلماء الصامتة، والألم ينخر جسدها، كانت تشعر بأنّها ضائعة .

انتهى الأمر بها أنْ نامت قبل الفجر بقليل، وحين استفاقت، كان ضوء النهار قد بزغ، نهار غريب؛ لأنّ ضياءه كان يبدو منبعثاً من الأرض المثلجة أكثر من السماء الرماديّة، وكانت ندف ثلجٍ ما زالت تتساقط منها. عاود مارك القيادة باكراً جدّاً، وبدت عيناه محاطتين بهالاتٍ عميقةٍ، وكانت لحيته السوداء، التي اعتاد أن يُعنى بحلاقتها صباح كلّ يومٍ في السابق، تكلح من تقاسيم وجهه، وتضفي عليه مظهراً أكثر قسوةً، وتتطلّب القيادة على الثلج والطين تركيزاً كبيراً، وكان من الواضح أنّه منهك.

حاولت مود الحركة كي ترى إن كان بإمكانها القيادة، لكنّ حالها كان أسوأ من مساء اليوم السابق، وزاد من أوجاعها أنّها نامت في البرد. قام مارك، من دون أن يزيح نظره عن الطريق، بالتقاط علبةٍ من البسكويت من خلفه، وأعطاها لمود، فابتسمت له من دون أن تنظر إليه .

– أين أصبحنا؟ ما زلنا بعيدين؟

– نسير الآن على سفح الجبل، لم يعد هناك صعود.

- جيّد جدّاً.

- جيّد وسيّئ في الوقت نفسه؛ إن كانوا يتبعوننا، ففرصهم أكبر في أن يلحقوا بنا هنا أكثر ممّا لو كان صعوداً.

أمعنت النظر في الطبيعة، وكذلك في جبال الفوج والجورا، كانت هذه الجبال مدوّرة القمم، ووصلوا الآن إلى نوعٍ من هضبةٍ عاليةٍ، وعليهم أن يجتازوها لكي يصلوا إلى الجانب الآخر من الجبل، وبدأت تظهر من جديد المزارع والمراعي بعيدةً.

- لن تستطيع القيادة طوال النهار، أليس كذلك؟

- ما من مشكلة حتّى الآن.

كانت هضبة البوسنة الوسطى العليا تتماوج أمامهما إلى ما لا نهاية، تارةً تهبط في منخفضٍ، وتارةً أُخرى ترتفع عالياً، ولمّا وصلا إلى إحدى هذه النقاط العالية، أوقف مارك الشاحنة من دون سابق إنذار .

- أعطني المنظار.

أخرجت مود المنظار من علبة القفازات، وناولته إيّاه، وأخذت تراقبه، وهو يحدّق مطوّلاً نحو الأفق بعد أن ترجّل ووقف على قارعة الطريق.

استطاعت مود على الرغم من ألمها أن تنهض وتمسح البخار الذي تكثّف على النافذة، ووفّر لهما المكان الذي توقّفا فيه رؤيةً بانوراميّةً واسعةً مكّنت مارك، على الرغم من الثلوج المتساقطة؛ من رؤية مجمل الهضبة التي اجتازاها. لو استطاع التقدّم أكثر لكان بوسعه رؤية البحر الأدرياتيكيّ. كان الطريق الذي اتّبعاه يمرّ تارةً بمنخفضاتٍ، وتارةً أُخرى بنقاطٍ مرتفعة، فتوقّفا على قمّة إحداها، ولم يكن بمقدور مود، بالعين المجرّدة، سوى رؤية المساحات البيضاء التي امتدّت أمامها على طول النظر، وكان من الممكن فقط تمييز خرائب أبراج أحد القصور القروسطيّة التي برزت معالمها من جهة الجنوب على خلفيّةٍ من الغيوم المثلجة. صعد مارك الشاحنة، ورمى بالمنظار على لوحة العدّادات، وانطلق، وقد بدا عليه توتّرٌ شديد .

- ماذا رأيت؟

- لقد مرّوا.

التزمت مود الصمت بعد أن شعرت بمقدار الملامة التي يشي بها صوته، لامت نفسها؛ لأنّها مصابةٌ، وغير قادرةٍ على القيادة، فلن يستطيع مارك وحْده الحفاظ على مسافة أمانٍ كافيةٍ في حال كان من يلحقون بهم يتناوبون على القيادة. لا بدّ من أنّه يفكّر بالأمر، ويحسب النتائج التي سيترتّب عليها إخفاقهما في الاستمرار، كالصدام الحتميّ معهم، وانكشاف الحمولة، أو حتّى الموت.

حاولت مود أن تتحرّك إلّا أنّ إصابتها بدت ميؤوساً منها، فما إن حاولت مدّ يدها حتّى انتاب ظهرها ألمٌ حادٌّ إلى درجة أنّها رغبت بالبكاء .

- كم من الوقت يلزمهم حتّى يلحقوا بنا؟

- بالكاد ستّ ساعات .

- ما العمل؟

لم يجبها، فأثار ذلك حنقها، وأشعرها بأنّ حضورها مثل عدمه، وكان محيّاه العدائيّ لا يساعدها على منع نفسها من التفكير بما خالجها من خواطر في اللّيلة الفائتة : إنّه لا يعمل إلّا وهو وحيد، وذلك هو الوجه الآخر لقوّته، والقاعدة العامّة في عالمه.

انتابت مود الرغبة بالبكاء، ولامت نفسها على ذلك.

تابع الاثنان طريقهما بصمتٍ لقرابة الساعة قبل أن يوقف مارك الشاحنة مرّةً أُخرى، وفجأةً! ومن دون مسوّغٍ، ينزل إلى الشارع من دون أن ينطق بحرف. رأته مود يجلس القرفصاء أمام قمرة القيادة يتحسّس الأرض المتجمّدة قبل أن يتّجه إلى الخلف، ولمّا عاد كانت ندف الثلج تغطّي شعره؛ فقد بدأت السماء تثلج بكثافة، وما هي إلّا لحظات حتّى اكتسى الزجاج الأماميّ قشرةً بيضاء.

شغّل مارك ماسحات الزجاج، فوضح المنظر أمامها، وانتبهت إلى وجود طريقٍ ضيّقٍ يتفرّع إلى اليسار، مغطى بالثلوج، لم تكن قد لحظته من قبل. لا بدّ من أنّ مارك قد أوقف الشاحنة في هذا المكان بالتحديد ليكتشفه.

- أتريد الصعود من هنا؟

لم يحتج مارك إلى الردّ، فقد كان قد أدار مقوده في ذلك الاتّجاه، وبدأ بالصعود، فتقدّمت الشاحنة بصعوبةٍ في الأمتار الأولى لشدّة انحدار الطريق قبل أن يصبح انحداره

معقولاً. لا بدّ من أنّه طريقٌ مسدودٌ بلا شك، ومخصّصٌ للوصول إلى حقلٍ، أو لولوج حظيرة.

– أتظنّ أنّ الثلج سيمحي أثرنا؟ أهذا ما ذهبت تتحقّق منه؟

اكتفى بالإيماء برأسه.

اختفت معالم الطريق فجأةً! فأصبحا محاطين بالبياض من دون أيّة علامةٍ تشير إلى أيّة جهةٍ ينبغي المتابعة. مع الأسف، لم يكونا قد ابتعدا عن الطريق الرئيس بمقدارٍ كافٍ كي يتوقّفا، فترجّل مارك مجدّداً، وراح يمشي في الثلج ليرى إن كان بإمكانه متابعة الصعود، واختفى عن نظر مود خلف سياجٍ رصعّه الثلج بالبياض .

أوشكت على فقدان أعصابها، وتملّكها نوعٌ من الحنق لم تكن تعلم إن كان ينمّ عن يأسٍ أم عن غضبٍ، أو عن خجل، وشعرت بأنّها ربّما كانت تُقدم منذ زمنٍ، أو حتّى منذ الأزل على اتّخاذ خياراتٍ خاطئة؛ لقد أخطأت بمرافقتها هذا الرجُل، وباستثنائه من الحذر الذي لطالما حماها من الإهانة والعذاب، فأطلقت صرخةً قويّةً من شدّة الألم، والخيانة، والضياع التي شعرت بهم .

أراحتها الصرخة الطويلة التي أطلقتها حادّةً في البدء قبل أن تخمدها بنبراتٍ جهيرة، فأعادت الكرّة، إلّا أنّها كانت تفتقد إلى العفويّة هذه المرّة، فاستعادت الثقة بنفسها، والإرادة، والقوّة، وقطعت عهداً على نفسها، ووعدتها بألّا تكظم غيظاً بعد الآن.

عاد مارك بعد قليل، فتراءى لها في البدء كخيالٍ يتحرّك في ثلجٍ يتساقط ويدور كالدوّامة، فلم تتّضح لها معالمه التي كستها الثلوج، إلّا عندما فتح باب الشاحنة .

– هل وجدت معبَراً؟

ولمّا لم يتكلّف عناء الردّ، صفعته من دون أن تعبأ بالألم الذي كان قد قسَم ظهرها

.

IV
مصائر

1

صفعته، ولم يتحرّك مارك، وبالكاد لامست مود رأسه، فلم يصدر عن الصفعة سوى صوت تلامس البشرتين، وكان هذا آخر شيء يمكن أن يخيفه؛ الضربات، فقد كان قد تلقّى ما يكفي من الضربات خلال طفولته، وأعطى الكثير منها فيما بعد، وردّ فعله الأساسيّ كان التعجّب، ويمكن أن يكون هذا ما أرادته مود، لا بلْ تعجّبت من حركتها هي الأُخرى .

تبادلا النظرات مطوّلاً، واكتشفت أنّها قد حصلت على ما تريده، من دون أن تعي؛ فقد كانت تريد أن يركّز بصره عليها .

– « أنا هنا » . قالت : « حتّى لو لم أعد أنفعك بشيءٍ، فأنا موجودة. أتعرف ذلك؟ » .

وفي تلك اللحظة بالذات فهمت، وكان يبدو كأنّه يصحو من حلمٍ، فكان الخطر، والفعل، والنضال يستولون عليه إلى درجة أنّ كلّ شيءٍ حوله اختفى، ولم يكن يتعامل معها كأنّها عدوّ؛ إنّه بكلّ بساطةٍ لم يكن يراها. خجلت قليلاً من فعلتها، على الرغم من أنّها كانت راضيةً عن النتيجة، فقالت :

– أعذرني .

مال نحوها وقبّلها، فتحسّست شفتاها عندما لمستا ذقنه الخشنة حول فمه، وكان نوعاً من الألم المحبّب الذي أنساها للحظةٍ الآلام الأُخرى، وكانت غاضبةً من نفسها بسبب الدموع التي تملأ عينيها، وتساءلت في داخلها : لماذا تبكي؟ يا للضعف النسائيّ الغبيّ!

أو أنّ هذا دليلٌ على حساسيّةٍ مرهفةٍ، وحساسيّةٍ تكشف لها مدى مأساويّة وضعهما، وتستشرف المشكلات القادمة، فأدارت رأسها .

– يجب ألّا نضيّع الوقت، هل وجدت طريقةً للخروج من هنا؟

– من فوق، على طريق المرج هناك كوخٌ صغيرٌ على بُعد ثلاثمئة متر .

وبينما كان يحرّك الشاحنة، ويدير رأسه نحو الطريق، استغلّت الوقت لكي تمسح عينيها بظهر يدها بحركةٍ خفيّة .

كان الثلج أقلّ عمقاً تحت الشجر، وعندما غادرا الحقل، وجدا طريقاً حراجيّاً مغطى بإبر شجر الصنوبر. استكملا الطريق حتّى الكوخ، وهو عبارة عن بناءٍ من الحجارة الجافّة، وكلّها متراكمة على نحوٍ فوضويٍّ، ومغطّاة بسقفٍ من القصب المثبّت بشِباكٍ، وكان يمكن للمكان أن يبدو خالياً ومهجوراً لولا أنّ خيطاً من الدخان الأزرق كان يخرج من مدفأة .

أطفأ مارك المحرّك. لم يخرج أحد من البيت، وكان الصمت يخيّم على هذا المرج المدفون تحت الثلج .

– هل تعرف من يسكن هنا؟

– ليس بعد .

عندما انحنى نحو أرضيّة قمرة القيادة، فتح مارك كوةً لم تكن مود قد لحظت وجودها قطّ، وهي عبارة عن صندوقٍ توضع فيه البطاريّة، فمدّ يده إلى داخلها، وأخرج مسدّساً كبيراً أسود اللّون، فتفحّص الملقّم ولقّمه، ثم فتح الباب، وخرج واتّجه نحو الخَرِبة .

كانت النافذة الوحيدة مغلقةً من الداخل بألواحٍ من الخشب؛ أمّا الباب، فعبارة عن ألواحٍ غير متجانسة خرّبت الأمطار أجزاءها السفليّة، وكان بإمكان مارك أن يدفع الباب بسهولةٍ بقدمه، لكنّه طرق الباب عدّة مرّاتٍ بهدوء، كما لو أنّه زائرٌ عاديٌّ يريد أن يبيّن نيّاته السلميّة .

سمع أصوات همسات في الداخل، وها هو يقترب بوجهه من فتحةٍ بين لوحَيْ خشبٍ، ويقول بعض الكلمات الروسيّة. مرّ وقتٌ من دون أيّ ردّ فعلٍ ظاهر .

وفجأةً! فتح الباب مواربة، وظهر وجه طفلةٍ، يكاد طولها لا يصل إلى القفل، كانت طفلةً صغيرةً مغطّاة الرأس بشالٍ من النسيج القطنيّ الأخضر، فخبّأ مارك السلاح وراء ظهره على الفور؛ حتّى لا يخيفها أكثر ممّا فعل .

- « مرحباً » . قال لها .

- « مرحباً، أيّها السيّد » . أجابت الطفلة .

- أنت وحدك هنا؟

كان يحاول أن يؤقلم الكلمات الروسيّة مع ما يعرفه من كلمات « صرب - كرواتية » .

بدا على الفتاة التردّد، فألقت نظرةً نحو الشاحنة، ولَحظت وجود مود .

- لا .

- هل والداك هنا؟

- أخي وأختي .

كانت قد فتحت الباب أكثر. في العتمة لحظ مارك وجود ظلّ شخصٍ بالغٍ في الخلف .

- هل يمكننا أن ندخل؟ صديقتي مصابة .

لم تفهم الفتاة معنى كلمة مصابة، فأشار مارك إلى مود، وهو يقوم بحركةٍ تدلّ على الألم .

أدارت الفتاة وجهها، على الأغلب لكي تعرف ما هو قرار أخيها، ولا بدّ من أنّه قام بإشارةٍ ما؛ لأنّها فتحت الباب بأكمله، فنادى مارك مود، ودخلا البيت .

كان البيت غارقاً في الظلام، لكنّ بعض خيوط الضوء دخلت من فتحات النوافذ غير محكمة الإطباق. وكانت تفحّ من الغرفة رائحة النار وبؤس القرى، مع روائح قويّة للجبن الرطب، والأعشاب المجفّفة، وكان أخو الفتاة صبيّاً في عامه الثالث عشر تقريباً، لكنّه فقد معالم الطفولة؛ لأنّ وجهه بدا نحيلاً جدّاً، ومحاطاً بشعرٍ أسْود مجعّد.

عندما اعتادت عينا مارك العتمة، لحظ أنّ الفتى يحمل بيده نوعاً من الهراوات الخشبيّة : أداة تُستعمل لقتل الحيوانات، وربّما كان هذا السلاح الوحيد الذي يملكه، فقام مارك بوضع مسدّسه بوضعيّة الأمان، وأعاده إلى مكانه في زنّاره في ظهره. شيءٌ ما تحرّك في الزاوية الأكثر عتمةً في الغرفة، فلحظ وجود شكل طفلٍ صغيرٍ يختبئ وراء صندوقٍ من الخشب، لا بدّ من أنّها الأخت التي ذكرتها الطفلة .

نجحت مود في الخروج من القمرة، وهي تتألّم، وكانت وضعيّة الوقوف هي الأفضل بالنسبة إليها، فمشت نحو الباب، وعندما فتحته، لحظ مارك أنّ الفتى شدّ بيده على الهراوة، وعندما رأى مود ارتاح .

اقترح مارك أن يفتحوا النوافذ قليلاً؛ لكي يدخل الضوء، ولم يعترض الفتى. جزءٌ كبيرٌ من الغرفة كان مشغولاً بطاولةٍ من الخشب غير المحفوف، وعلى الجانبين مقاعد ثابتة، فجلس مارك على واحدٍ منها، لا لكي يرتاح، إنّما لكي يكون على مستوى ارتفاع الأطفال نفسه، ويبدو أقلّ خطورةً بالنسبة إليهم، وبدا له أنّ الأطفال الثلاثة جائعون، وكانوا متجمّدين من البرد؛ فالحطبة الوحيدة التي كانت تدخّن في المدفأة الجداريّة لم تكن تعطي أيّة حرارة .

– أين والداكم؟

– لم يجب الأطفال. هل فهموا السؤال؟ بدا عليهم الافتتان برؤية مود التي كانت تبتسم للطفلة الصغيرة.

– « بابا؟ ماما؟ أين هم؟ » . كرّر مارك .

– « زينيتسا » . قال الصبيّ .

– بابا عسكري؟ في الحرب؟

كان مارك يقوم بإيماءةٍ، كأنّه يحمل بندقيةً، فهزّ الصبيّ رأسه .

– وأمّكم؟

نظر الصبيّ إلى أخته، وهمس بشيءٍ لم يفهمه مارك .

– أظنّ أنّها ماتت، لكنّ الصغيرة لا تعرف .

قالت مود، وهي غير واثقةٍ ممّا تقول .

فجأةً! صدرت من خلف البيت أصواتٌ غير واضحةٍ، كأنّ أحداً يضرب الأرض، فتشنّج مارك، ومدّ يده إلى ظهره ليخرج سلاحه .

– هل هناك أحد خلف البيت؟

عاد الصوت من جديد، وهذه المرّة كان أوضح؛ لقد كان صوت ضرب حوافر لحيوانٍ كبير الحجم .

– ألديكم حيوانات هنا؟

لم يفهم الصبيّ السؤال، لكنّه خمّن ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء الذي أربك الضيوف .

– « بقرة » . قال : « وحصان » .

عندما حدّق مارك في الغرفة والأطفال فَهِم أبعاد الموقف؛ لا بدّ من أنّ مقاتلاً ما قد وضع أطفاله في مأمنٍ في هذا البيت بينما كان هو يقاتل في المدينة، ولا بدّ من أنّ الأم قد ماتت في الحرب، أو من المرض، فوضع الأطفال هنا تحت حراسة الكبير منهم، الذي لم يكن يملك سوى هراوته للدفاع عن نفسه .

لا شيء كان يسمح لمارك بأن يفهم من النظرة الأولى إلى أيّة جماعةٍ ينتمون، لكنّه لحظ وجود إطارٍ على جدارٍ قرب الباب الداخليّ فيه كتابةٌ عربيّة؛ لذا من المرجّح التخمين بأنّهم مسلمون، إلّا إذا لم يكن هذا بيتهم في الأصل .

بعد أن اكتملت هذه الملحوظات نهض مارك من مكانه وخرج، وعاد بعد دقائق، وهو يحمل علبتين سحبهما من حمولة الشاحنة، فوضعهما على الأرض وفتحهما، بينما كان الصبيّ ينظر إليه نظراتٍ فيها ريب، وما زال يحمل هراوته بيده، فأخرج من العلبة الأولى ألواحاً مغطّاةً بالشوكولاتة، وعلب بسكويت، وكان الأطفال ينظرون إلى الأغلفة الملوّنة من دون أن يجرؤوا على لمسها، فمزّق مارك الأغلفة، وفرد على الطاولة كميّةً من الكعك والحلويات، وكانت عينا الصغيرة تلمعان، ولكنّها تردّدت بأن تمدّ يدها لتناول الحلويات، وانتظرت حتّى يقوم أخوها الكبير بأخذ كعكةٍ بحذرٍ، ويبدأ بأكلها، عندها تدافع الجميع، فالتهمت الفتاة الحلوى، ورفعت أختها الصغيرة للتمكّن هي الأُخرى من تناولها .

في هذه الأثناء، قام مارك بفكّ رباط العلبة الثانية؛ كانت عبارة عن كومة ملابس، كان هناك معاطف وسترات ظهرت على حوافّ الكرتونة ما إن فتحها، فساعدته مود في اختيار ملابس تلائم مقاس الأطفال. عندما حدّقت فيهم لحظت إلى أيّة درجةٍ كانت ثيابهم قليلة، وغير ملائمة، فساعدت الفتاة الصغيرة على لبس كنزةٍ حمراء فاقعة الّلون، مناسبةٍ للشال الذي تضعه، وكانت الفتاة تلمس النسيج الناعم بعيون الدهشة؛ أمّا الصبيّ، فقد ترك هراوته، وبدأ يفتّش في الكرتونة بلا هوادة، فوجد سترةً حشوتها من الفرو الاصطناعيّ، كان لونها أخضر مائلاً إلى الكاكي، وتبدو مثل سترةٍ عسكريّةٍ، ويبدو أنّ هذا ما أعجبه .

بعدها ساد جوٌّ من الثقة، ولم يكن عليهما سوى تركهم ليفتّشوا في العلب ويضحكوا، ثمّ يشبعوا من الحلوى. كانت مود تتسلّى معهم، تصفّق عندما يجرّب أحد الأطفال ثوباً جديداً، وتساعد الصغرى على استعمال سحّاب الإقفال .

أمّا مارك، فقد قام ليقف عند بصيص الضوء الداخل من النافذة، فقد جلب مع العلب خريطةً للطريق، وكان يتفحّصها ليفهم أين هُم، فقامت مود بالّلحاق به، ووقفت وراء كتفه، فأراها بإصبعه الخطّ المنقّط الذي لا بدّ من أنّه كان يدلّ على الطريق الموصل إلى الكوخ على الخريطة العسكريّة .

– هل نبقى هنا؟

– نعم .

– هل أنت متأكّد، بالنسبة إلى الأثر ...

هزّ كتفيه ليوحي بأنّ هذه مخاطرة لا بدّ منها. كان الثلج ما يزال يهطل على الطريق بانتظامٍ، ولا بدّ من أنّه سيغطّي الآثار، فاتّخذ قراره حول هذا الأمر، ولكنّ ما كان يؤرّقه هو شيء آخر، ففتح الخريطة ليرى المنطقة المقابلة على الجبل، الطريق المتّجه باتّجاه الشمال ليصل إلى (زينيتسا) . إذا ما سلكوا الطريق العاديّ سيكون هذا الطريق الموصل إلى المدينة بعيداً جدّاً؛ لأنّه يحوي عدّة انعطافات، ولكنّ الخريطة كانت تبيّن وجود طريقٍ صغيرٍ يقطع المسافة مباشرةً، ويؤدّي الى المدينة، فقاس المسافة على الخريطة، وهو يفتح إبهامه وسبّابته كأنّهما فرجار .

نادى الصبيّ، فاقترب هذا الأخير، وكان ما يزال مبهوراً بلباسه الجديد .

- (زينيتسا) عشرون كيلومتراً؟

فتح الصبيّ ذراعيه بطريقةٍ تدلّ على أنّه لم يفهم، فعدّ مارك على أصابعه حتّى العشرين .

- (زينيتسا) كيلومتراً .

- « (زينيتسا) » . ردّد الصبي .

- حصان؟

- نعم، حصان .

أشار الصبيّ لمارك أن يتبعه، فدفع الباب وخرجا إلى باحةٍ صغيرةٍ، وكانت الحظيرة مجرّد مأوى بسيط (شادر) يحمي الحيوانات من الثلج.

كانت هناك بقرة شهباء نحيلة جدّاً، لا بدّ من أنّ الأطفال يتغذّون من حليبها، وبعيداً عنها بعد حاجزٍ من الخشب، كان هناك حصانٌ أصيلٌ، قوائمه العريضة مُحاطةٌ بشعرٍ وسخٍ، لكنّه كان شابّاً وقويّاً .

- أنت، تقود الحصان؟

رافق مارك كلامه بإيماءاتٍ توحي كأنّه يركب الحصان، فأكّد الصبيّ بفخرٍ أنّه يعرف كيف يقوده، فعادا إلى المنزل، وقام الصبيّ بإغلاق الباب بأسمال .

كانت مود تضع الصغيرة في حضنها، وتلعب معها، فاتّجها نحوها وجلسا حول الطاولة، وكان من الواضح أن الصبيّ لم يفهم ما يريده مارك منه .

- أنت، تمتطي الحصان، وتذهب إلى (زينيتسا) الآن .

هزّ الصبيّ رأسه رافضاً، لا بدّ من أنّ والده كان قد أمره بألّا يترك البيت، وأن ينتبه إلى إخوته. أصرّ مارك، وبما أنّ الآخر كان ما يزال يرفض، أخرج مسدّسه، فاضطّرب الصبيّ، وسادت لحظاتٌ من سوء الفهم الكامل؛ كان البوسنيّ الصغير يظنّ أنّه يهدّده، بينما كانت نيّة مارك هي أن يبيّن له أنّه سيحمي البيت وسكّانه خلال غيابه، وفي النهاية استطاع مارك أن يشرح له ما يريد، فهدأ الصبيّ، لكنّه لم يكن موافقاً تماماً على طلب مارك .

قالت مود :

– أره ماذا نحمل في الشاحنة، ما زال هناك الكثير من صناديق الأغذية والثياب، بإمكانك أن تقول له : إنّنا سنعطيه كلّ شيءٍ لو فعل ما نطلبه منه .

قاد مارك الصبيّ إلى الخارج، ورأتهما مود قرب الشاحنة في حالة نقاشٍ محتدم، وعندما عادا، كان الصبيّ قد جلب لأختيه قبّعات صوفيّة، وكان يلبس حذاءً ضخماً للسير من « الغور تكس » .

– حسناً، إنّه موافق .

دعا الصبيّ أختيه للاقتراب منه، وشرح لهما شيئاً بلغتهم. لم يكن يبدو على الفتاتين القلق بوضوح .

أخرج مارك في هذه الأثناء ورقةً وقلم حبرٍ من جيبه، وكتب رسالةً، وطوى الورقة أربع مرّات، ثمّ نادى الصبيّ .

– « قبل الوصول إلى (زينيتسا) » . شرح له باللغة الروسيّة : « الطريق على اليمين. قرية (لاسفا) » .

أشار الصبيّ أنّه يعرف المكان .

– في (لاسفا) هناك حاجز .

كانت كلمة « تشيك بوينت » معروفةً في البلد، ولم تكن هناك حاجة للشرح .

– عند التشيك بوينت، تطلب الدكتور فيليبوفيتش .

– « أتظنّ أنّه سيجده؟ » . قالت مود .

– إنّه مسؤول الجيب الكرواتيّ، الناس كلّها تعرفه هناك .

– « دكتور فيليبوفيتش » . ردّد الصبيّ .

كان الآن يعي أهميّة مهمّته، ومع السترة والأحذية المتينة التي كان يرتديها شعر بأنّه مسلّحٌ مثل المقاتلين. حتّى والده لم يحظ بمثل هذا الحظّ، فتناول الرسالة ووضعها في جيب السترة الداخليّ، وأغلق الجيب بعنايةٍ باللاصق .

- « اسمك أيّها الرفيق؟ » . قال له مارك .

- علي .

شدّ على يده، وانتصب الصبيّ كأنّه في وضعيّة الاستعداد العسكريّة، وبعد ذلك فتحا الباب الذي يقود إلى الزريبة، وسمعتهما مود، وهُما يسرجان الحصان، فدارا حول البيت، وكان الصبيّ قد اعتلى الحصان، وهو يباعد بين فخذيه حول ظهره، فرأته يبتعد، وبدأ الثلج الذي استمرّ بالهطول بغزارةٍ يغطّيه شيئاً فشيئاً .

ضرب مارك بقدميه على عتبة الباب ودخل .

- ماذا كتبت في رسالتك؟

- قلت : إنّنا هنا، ولكنّنا لا نستطيع المضيّ أبعد من ذلك .

كانت الفتاتان تلهوان بتكديس البسكويت لتصنعا منه قصوراً، فتضحكان عندما ينهار البناء .

- أتظنّ أنّ الآخرين سيمرّون من دون أن يعثروا علينا؟

- سنرى ما سيحدث .

كان مارك هو الآخر قد فتّش في كراتين الثياب، ووجد ما يريده : نوعاً من معطف النايلون الأخضر يصل إلى قدميه، لبسه فوق سترته، ووضع قبّعةً سوداء على رأسه، والمسدّس في جيبه، فخرج وذهب ليأخذ المكبّر من اللّوحة الأماميّة للشاحنة، عبْر الغابة بحثاً عن مكانٍ مفتوحٍ يستطيع منه مراقبة الطريق من الأسفل، وبينما كان يبحث عن الوضعيّة المناسبة للوقوف، عبَرت عدّة طيّاراتٍ عسكريّة في السماء، لكنّها لم تكن أكثر من المرّات السابقة، ولم يستطع أن يكتشف إلى أيّ بلدٍ تنتمي .

2

كان الثلج الذي هطل طوال الّليل يشوّش معالم المكان، وصار الطريق أوسع، ولكنّ تجاوز المنطقة التي توسّعت البارحة بالمتفجّرات، كان مسألة سنتيمترات .

– « سأقود أنا » . قال فوتييه .

– لكنّك لم تقم بقيادة هذه الشاحنة في السابق قطّ .

– لا تقلق، اذهب إلى الأمام، ودلّني على الطريق .

قبل ليونيل من دون أن يكون راضياً تماماً، وعبروا المنطقة المنهارة بدون تعقيداتٍ وبسهولةٍ لم يتوقّعها حتّى فوتييه .

لكنْ بقيت أمامهم عدّة مشكلات لا بدّ من تجاوزها : الوقت المهدور، وأليكس الممدّد في الخلف، الذي يتحسّن ببطء، وما إنْ تجاوزوا الجزء الصعب صعد ليونيل الشاحنة، لكنّ فوتييه استمرّ بالقيادة .

– « ما تزال هناك إشكاليّة » . قال ليونيل : « أنت لا تملك شهادةً لقيادة المركبات الكبيرة » .

نظر فوتييه إلى زميله شزراً، وألقى عليه نظرةً كلّها حقد .

– أنت غير معقولٍ بالفعل! أتظنّ أنّه يوجد هنا شرطة لمراقبة مثل هذا الأمر؟

كان ليونيل يتمسّك بتفاصيل لكي لا يواجه الواقع المخيف : لقد صاروا تماماً خارج الشرعيّة، وبالمناسبة تحوّل الموكب إلى حالةٍ من الجنون، والشاحنات متفرّقة، دخلت في سباقٍ وملاحقةٍ على طريقٍ جبليٍّ، ونصف الحمولة مرميّ على الأرض، وهناك جريح، والكثير من الأسلحة، وفي إحدى الشاحنات حمولة من الديناميت... كانوا بعيدين جدّاً عن وضعٍ يمكن تسويغه، وهذا من دون أن يحسب حساب ما سيحدث لو أنّهم وصلوا إلى مارك، وكذلك لم يعد لديه شيء يدخّنه ليهدأ، كان قد جلب معه مؤونةً على قدر الرحلة، ولكنّه لم يكن قد قدّر أنّ الرحلة ستطول إلى هذا الحدّ، وما دخّنه البارحة

كان آخر ما تبقّى لديه من مؤونة، وكان تائهاً تماماً، وفقد طاقته لكي يواجه فوتييه بأيّة صورةٍ كانت، ولا حتّى غيره، واستند إلى طرف المقعد، وحدّق في الثلج الذي كان يهطل بغزارةٍ أكبر .

لم يعي أنّه ينام، وعندما أيقظه فوتييه، لم يكن يعرف كم الساعة الآن .

– استلِم القيادة، إنّي أقود منذ ثلاث ساعات ...

نزل ليونيل من الشاحنة، وهو يرتجف، فدار حولها وانطلق، وفوتييه الذي كان بجانبه نام على الفور .

بدا الطريق مملّاً، والثلج الذي يغطّي كلّ شيءٍ لم يكن يعطي النظر فرصة التعلّق بنقاطٍ محدّدة، وكان ليونيل يقود، وهو نصف نائم، وكان يحلم، والأفكار كلّها التي تدور بخاطره كانت بشعةً، فتساءل كيف وصل إلى هذه الحالة، هو الذي كان دائماً يحترم الإجراءات، والذي عُرف في مركز المؤسّسة بدقّته، ذلك كلّه كان سببه تلك الحقيرة التي تسمّى مود. كيف خطر له أن يقع في حبّها؟ كان قد ارتبط بصديقةٍ في ليون، وافترقا عندما ذهب في مهمّةٍ إلى إفريقيا. لو كان أقلّ غباءً لكان عاد وارتبط بها من جديدٍ عند عودته .

ولكنْ عوضاً عن هذا كان قد تذوّق طعم الحريّة وأحبّها، وأخذ يحبّ شعوره بالتفوّق؛ لكونه رئيس بعثة، والكثير من الفتيات جذبهنّ هذا الموقع، وكان يشعر بأنّه يأخذ حقّه من الحياة، عندما يغوي فتياتٍ يبهرهنّ العمل الإنسانيّ، فظنّ أنّ الأمر سيكون على هذا الحال مع مود، ولكنْ عوضاً عن ذلك قامت مود بإذلاله، وها هو الآن هنا ...

من وقتٍ إلى آخر، ظلّ يلمح آثار الشاحنة التي يلاحقونها على سجّادة الثلج البيضاء، لكنّ صعوبة ملاحظة هذه الآثار بدأت تزداد بسبب كثافة الثلج، وفي مراحل كثيرة من الطريق كانت تختفي تماماً. في البداية كان يركّز اهتمامه عليها، لكنّه الآن لم يعد يفكّر بها أبداً، وكان يحاول ألّا يفكّر بها، ففكرة أنّهم سيلحقون بالآخرين أخافته إلى درجة أنّه فضّل أن يمحوها من فكره .

في لحظةٍ ما، تهيّأ له أنّ الآثار تتّجه نحو اليسار، وبالكاد لحظ مدخل طريقٍ جانبيٍّ، لكنّه أمضى دقائق قبل أن يفكّر بأنّ مارك قد يكون اتّجه بشاحنته في هذا

الاتّجاه، وعلى الرغم من ذلك لم يتوقّف؛ فذهنه المشوّش لم يكن قادراً على الخروج بمثل هذه الاستنتاجات، فتغلّب روتين القيادة إلى الأمام .

كان الطريق قد بدأ يتّجه نزولاً، ويصبح ضيّقاً، فركّز ليونيل انتباهه كلّه على قيادة الشاحنة في هذا الممرّ الصعب والخطر. إنّ الهاوية، على اليمين، كانت تهديداً جديّاً، وأيّ انزياحٍ كان يمكن أن يكون قاتلاً .

كان فوتييه يشخر، ومن وقتٍ إلى آخر عندما كان الطريق يسبّب اهتزازاً، كان يفتح عينيه، ثمّ يعود للنوم، وفي لحظةٍ ما همهمَ بصوتٍ عالٍ، وربّما يكون هذا الصوت قد أيقظه، فجلس، وفرك وجهه، واستعاد وعيه تماماً .

– أين صرنا؟

– ما زلنا على الطريق نفسه، لكنّه الآن يتّجه نزولاً .

كانوا قد تجاوزوا مرتفعاتٍ كثيرةً، وفي لحظاتٍ معيّنةٍ كانوا يلمحون بين الغيوم قعر وادٍ يقترب منهم .

– « من المؤكّد أنّنا سنجد حاجزاً عند مخرج الجبل » . قال فوتييه : « انتبه! » .

ولكنّهم في الوقت الحاضر لم يكونوا قد رأوا شيئاً، لا شيء سوى الطريق المطمور بالثلج .

– ليس هناك أيّ أثر .

– منذ حين على هذا الحال .

تردّد فوتييه :

– هل اختفوا فجأةً؟!

لم يجرؤ ليونيل على التكلّم على المنعطف الذي رآه، ولكنْ هل رآه حقيقة؟ كلّ شيءٍ بات مشوّشاً، وكان يتساءل إن لم يكن يحلم. لماذا يغامر بإثارة إشكالٍ مع فوتييه؟

– « الثلج يزداد سماكة » . هذا ما قاله فقط .

كان الآخر يبدو منشغل البال، فلم يقل شيئاً .

استمرّوا في السير لمدّة ساعتين، ولم يروا سوى البياض في كلّ مكان، على الأرض، وفي الجوّ الممتلئ بقطعٍ متناثرة .

فجأةً! وبفضل انفراجٍ في الجوّ، لحظوا من بعيد، عند مدخل غابةٍ من الصنوبر، كتلةً غير منظّمةٍ لحاجز .

– ها هو الحاجز، سنعرف متّى مرّوا من هنا .

ساروا بهدوءٍ حتّى وصلوا إلى استحكامات الحاجز، وكانت هناك أشكال معتمة تخرج منها، وتقف في عرض الطريق .

عندما اقترب أفراد الميليشيا، لحظوا على قبّعاتهم شعار الكرواتيّين .

– « بوموك » . أعلن ليونيل، كما جرت العادة .

كان يحاول أن يبتسم، لكنّ شيئاً ما في داخله كان يثور ضدّ هذا الاستعراض، فشعوره بأنّه ينتمي إلى عالم المساعدات الإنسانيّة تراجع داخله شيئاً فشيئاً، هذا الموكب الممزّق بالكراهية، الذي غيّرت من مهمّته الحمولة الخطرة التي يحملها، هذا السباق/ الملاحقة الذي لن ينتهي إلّا بطريقةٍ مأساويّةٍ؛ هذا كلّه جعله يشعر كم أنّ كلمة « بوموك » كذبة، ولكنّ أفراد الميليشيا لم يكونوا يهتمّون بهذا كلّه، فدقّقوا الوثائق بكلّ هدوءٍ، وذهبوا إلى خلف الشاحنة لتفتيش الحمولة. حتّى إنّه لم يبدُ عليهم أنّهم متفاجئون من رؤية موكبٍ إنسانيٍّ يسلك هذا الطريق الجبليّ؛ فقد كان البرد يشوّش ذهنهم، ويبطئ من حركاتهم، وبدا عليهم أنّهم يريدون أن ينتهوا بسرعةٍ من هذه الشكليّات، لكي يعودوا بهدوءٍ إلى أماكنهم حول المنقل الذي كان يظهر دخانه في عمق البرج المصفّح .

– « اسألهم متّى مرّ الآخرون » . همس فوتييه .

– أنا لا أتكلّم لغتهم!

– عبّر بالإشارات .

سأل ليونيل أحد أفراد الميليشيا، ولكنّ هذا الأخير كان ينظر إليه من دون أن يفهم شيئاً .

– سنقلقهم، النتيجة ستكون أنّنا سنوتّرهم .

– انتظر!

نزل فوتييه من الشاحنة، ورآه ليونيل يقوم بحركاتٍ وسط مجموعةٍ من المليشيا كانت قد بقيت في الداخل. كان يقوم بتدوير ذراعيه مقلّداً حركة قيادة الشاحنة، وكان يرسم في الهواء خطوطاً مقوّسةً نسائيّةً، لكي يدلّ بلا شكٍّ على وجود مود، وكان العسكريّون يضحكون، وعندما أصرّ، تباحثوا في ما بينهم، وفي النهاية هزّوا رؤوسهم. كان فوتييه يكرّر الحركات نفسها، ويلقى مجدّداً الإجابة السلبيّة نفسها، ثمّ عاد إلى الشاحنة، والغضب يظهر عليه .

– « لم يروهم » . قال وهو يصعد إلى القمرة .

– هذا مستحيل!

– اذهب واسألهم ...

كان أفراد الميليشيا قد أرخوا الحبل الذي يغلق الطريق، وهُم ينتظرون أن تعاود الشاحنة السير، لكنّ ليونيل لم يتحرّك، كان يشعر بالنظرة الشرّيرة لفوتييه تصوّب نحوه .

– أحقّاً لم تلحظ شيئاً غير طبيعيٍّ بالنسبة إلى الآثار؟

– لا .

كانت « لا » ضعيفةً إلى درجة أنّه لم يملك معها أيّ حظٍّ بالإقناع، وأضاف ليونيل بصوتٍ شاحب :

– ربّما في مكانٍ ما، كان هناك طريق على اليسار ....

كان عليّ فخوراً بأنْ ينزل الجبل على ظهر حصانه، وتعامل مع مهمّته بكلّ جدّيّةٍ، إنّها مهمّةٌ حقيقيّةٌ، كما يتخيّلها، وهو أمرٌ لا يفهمه، لكنّه مستعدٌّ للموت لكي ينفّذه. كان والده قد كلّمه مراراً عن الحرب، وهو الذي تجنّد في أيّام تيتو؛ لأنّ هذا كان مصيراً طبيعيّاً بالنسبة إليه، وكان والد والده جنديّاً أيضاً، والأرض التي يعيشون عليها بُنيت بالدم، ولم يكن هذا منذ الأمس فقط، وفي روايات والده كانت هناك معارك يحكي عنها الأب كما لو أنّه شارك فيها حتّى لو أنّها جرت في القرون الوسطى .

وديانتهم هي الأخرى كانت نتيجة نضالٍ؛ طائفة البوغوميل، فقد كان أبو عليّ قد أخذ على عاتقه قصّة طائفة البوغوميل المضطّهدة؛ إنّهم مسلمون، واستفادوا من فرصة وجود الأتراك للخروج من الدائرة الجهنميّة للاضطّهاد والفقر، ومنذ ذلك الحين سار الأمر على هذا المنوال، ولم يكن الوضع سهلاً في أيّ وقتٍ من الأوقات .

شعر عليّ، وهو على ظهر حصانه القويّ، مرتدياً السترة الكاكي؛ بأنّه مقاتلٌ بحقّ، ولم يكن ينقصه سوى شيء واحد : السلاح، ولكن ليس السلاح هو الذي يصنع المقاتل؛ هذا ما يقوله له أبوه دائماً، بلْ إنّه الخطر، وهو – من وجهة النظر تلك – كان في خطر .

كان الجبل بذاته مزروعاً بالأخطار : هاويات، ومناطق انهيارات، والبرد، والثلج؛ هذه الأخطار كلّها كان عليّ يعرفها جيّداً، ولكنْ كلّما اقترب من السهل كان سيواجه أخطاراً جديدةً غير معروفةٍ بالنسبة إليه، كانت هناك عصابات مسلّحة تنهب البلد، والهجمات المحليّة التي يمكن أن يضعه القدر وسطها، خاصّةً الحواجز التي لا يعرف عنها شيئاً. لو التقى بوسنيّين سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، ولكنْ كيف سيستقبله الكرواتيّون؟ وماذا سيفعل لو وقع على حاجزٍ للصرب؟

في هذه الأثناء كان الثلج يضرب وجهه، وتموّج ظهر الحصان القويّ الذي يشعر به بين فخذيه، والسترة العسكريّة التي تغطيه، تعطيه شعوراً بأنّه غير مرئيٍّ، ولا يُهزم .

وعلى قدر ما سمح هذا النهار الأبيض بمعرفته، كان يبدو له أنّ الضوء بدأ يخفت، فضرب جذع الحصان بهياجٍ؛ ليدفعه إلى التقدّم بسرعة أكبر، وأخيراً، بعد أكثر من ثلاث ساعاتٍ من السير، رأى من بعيد الطريق الطويل، وحسب ما كان يعرف فإنّ نقطة المراقبة التي تراقب الجبل كانت تقع في أعلى الطريق، لكنْ كلّ شيءٍ كان يتغيّر بسرعةٍ في هذه الحرب، وقد يكون عبَرَها من دون أن يوقفه أحد. بقي عليه أن يجد القرية التي طلب إليه الغريب أن يتّجه إليها (لاسفا) . قال عليّ : إنّه يعرفها، والجنديّ يجب أن يكون دائماً مطيعاً للأوامر. لم يكذب عندما قال : إنّه يعرف (لاسفا) ؛ فقد كان اسماً قد ذكره والده أمامه، لكنّه لم يذهب إلى هناك في حياته، ولم يكن متأكّداً من مكان القرية، فلا بدّ من أن يسأل عن الطريق، ولكنْ مع الأسف لم يكن هناك أحد، وفي هذا

الطقس الرهيب، كان من المستبعد أن يقرّر فلّاحون الخروج من بيوتهم، وسيتوجّب عليه التوجّه ودقّ باب، لو صادف بيتاً ما .

اكتشف وجود بيتٍ منعزلٍ على منعطف الطريق، كان قد انخفض كثيراً، والثلج في هذا الارتفاع، تحوّل إلى مطرٍ باردٍ وسميكٍ ينهمر على سترته، فترجّل عليّ عن الحصان، ودقّ الباب، فلم يُجبه أحدٌ، لكنّه كان يرى شعلة دخانٍ تخرج من المدفأة، فأصرّ وتكلّم من وراء الباب، ولم يكن يريد أن يعطي اسمه، الذي كان يدلّ إلى أيّة مجموعةٍ ينتمي، فاكتفى بالصراخ أنّه ذاهبٌ للقاء والده، وأنّه يبحث عن قرية (لاسفا) .

مرّت دقائق، ابتلّ فيها ونفد صبره، فهَمَّ بركوب الحصان عندما فُتحت نافذةٌ، فظهر وجه امرأةٍ عجوزٍ جدّاً من خلال شقٍّ بين مصراعي النافذة الخشبيّة .

– « نهارك سعيد أيّتها الجدّة » . قال، وهو يجبر نفسه على الابتسام : « هل يمكنكِ أن تقولي لي إن كانت (لاسفا) بعيدة من هنا؟ » .

ارتجف رأس العجوز، فتساءل عليّ إن كانت بكامل وعيها، فكرّر سؤاله ببطءٍ، وبصوتٍ أعلى، وكانت المرأة توجّه نظرها إليه، ولكنْ بدا له أنّها لا تراه، وفجأةً! انتبه إلى أنّها يمكن أن تكون عمياء، وعليه أن يشرح لها أكثر على الأقلّ، كان قد صرف جهداً ليكون صوته واضحاً؛ لهذا لا بدّ من أنّها ظنّته شخصاً بالغاً، فشرح لها أكثر وقال :

– يا جدّتي، إنّني أبلغ ثلاثة عشر عاماً، وعليّ الالتحاق بأبي هناك؛ لأنّ أخواتي مريضات .

أغمضت العجوز جفنيها المجعّدين .

– « وصلت تقريباً » . قالت في النهاية، بصوتٍ ضعيفٍ مرتجف : « استمرّ هكذا لمسافة كيلومترين، ثمّ خذ يمينك، وسوف ترى (لاسفا) بعد أن تسير قليلاً، هناك هنغارٌ كبيرٌ عند مدخل القرية » .

شكرها عليّ، وتابع طريقه .

وجد المنعطف الذي وصفته العجوز، وتوجّه نحو اليمين، وكان النهار قد انحسر كثيراً، وتحت غطاء الغيوم المنخفضة، تسارعت الظلمة، فدفع بحصانه، لكنّ هذا الأخير

رفض الركض، وكان يهزّ رقبته ويكتفي بأن يسير سيراً .

لم يكن عليّ يحمل مصباح إضاءةٍ، ولا أيّة وسيلةٍ ليعلن عن وجوده في هذا الّليل، ولم يكن يلمح (لاسفا) .

للحظةٍ فكّر بأنّه قد يكون من الأفضل لو توقّف وانتظر الفجر قبل الوصول إلى الحاجز، ولكنّه لم يكن يرى مكاناً للاحتماء به، وكان مبتلّاً، والبرد صار حادّاً. لو اضطرّ الأمر سيختبئ في حفرةٍ وسينتظر. على كلّ حال، كان قدر العسكر أيضاً أن يحتملوا عدم الراحة والحرمان، كان يفكّر بهذا عندما لحظ – في العتمة التي تزداد قتامةً شيئاً فشيئاً – كتلةً كتيمةً لبناءٍ ما، لا بدّ من أنّ هذا هو الهنغار الذي تكلّمت عليه الجدّة، فضرب بقوّته كلّها بطن الحصان، وكانت قوائم الحصان تصدر صوتاً مكتوماً ورطباً بفعل ضرباتها على الأرض في صمت المغيب هذا .

رأى عليّ مدخل القرية يقترب منه، وبدا له أنّه يلمح في العتمة شكل مركباتٍ مصطفّةٍ على طرف الطريق، ولكنّه لم ير أيّ ضوءٍ، وكان المطر ما يزال يهطل بانتظامٍ بطريقةٍ تشكّل ستارةً تشوّش المشهد أكثر فأكثر .

فجأةً! وعندما ظنّ أنّه يكاد يصل إلى مدخل القرية، لمح عليّ شبحاً يخرج من العتمة، ويمسك بشدق الحصان، ثمّ حاصره خمسة رجال، أو ستّة، مباشرةً، موجّهين سلاحهم نحوه .

عند حلول الّليل، دخل مارك الكوخ، واستحال وجهه رماديّاً من شدّة البرد، وامتلأ حذاؤه بالماء، وسترته الطويلة القاطعة لم تكن محكمة الإغلاق، ما جعل ذوبان الثلج يبلّل كنزته تماماً، فانسحب إلى زاويةٍ في الغرفة لكي يجفّف نفسه، ويلبس ملابس جافّة .

كانت مود قد أمضت النهار، وهي تحسّن من وضع البيت؛ لكي يبدو مريحاً : فجلبت مصابيح غازٍ من الشاحنة، وعلى ضوء المصابيح انكشفت الفوضى والقذارة، فرتّبت ما كان من فوضى، ونظفت الأرض والطاولة، وغذّت نار المدفأة حتّى صارت حرارة الغرفة لطيفةً، وبعدها انطلقت تحضّر عشاءً جيّداً باستعمال المؤونة الباقية في الحمولة، وكانت الطفلتان تراقبانها، وهي تعمل في البداية، ثمّ انهمكن في مساعدتها على نحوٍ شبه فعّال، حتّى إنّ الكبيرة بينهما أعطتها كنزها : جهاز مذياعٍ صغير يلتقط محطّةً بعيدةً كانت تبثّ دائماً موسيقا ألحانها يونانيّة .

عندما جلس مارك معهنّ حول المائدة، حاولت الصغيرات الخجولات أن يقُمن بجهدٍ لتقديم الوجبات التي كانت تغلي على الغاز، وكانت مود قد وجدت زجاجة نبيذٍ في زاويةٍ من الشاحنة، فقدّمت كأساً ممتلئاً إلى لمارك لكي تعطيه بعض الدفء .

كان جوّاً عائليّاً غريباً، وهذا ما أسعد مود في البداية، عندما كانت وحْدها مع الطفلتين، ولكنّ مجيء مارك أدخل نوعاً من الانزعاج غير المنتظر، وكانت قد فعلت هذا كلّه من أجله، ولكنْ عندما ظهر أمامها، كسر وجوده الحلم، وغاب حماسها كلّه.

جلب معه من الخارج مظهره القلق والمغلق. الحرارة، والموسيقا، ومرح الفتيات؛ ذلك كلّه كان له أثر مناقض تماماً لما كانت تأمَله مود؛ فنظرته القاسية، ووجهه القاسي، أو حتّى العدوانيّ، كان يعبّر عن أنّ هذه الجهود كلّها لا فائدة منها، ولا تعدو كونها رفاهيةً طارئة .

كان يذكّرها من خلال سلوكه وبعنفٍ أين هُما، وفي أيّ موقفٍ حَرجٍ حَشرا نفسيهما، وفخر مود السعيدة بأنّها حوّلت هذا المنزل، وأدخلت إلى حياتهم نوعاً من العذوبة والفرح؛ ذلك كلّه حمل فجأةً طابعاً زائلاً، وحتّى سخيفاً .

تعشّوا بصمت، فالأطفال – حتّى لو لم يفهموا ما يجري – قد شعروا بالضيق فصمتوا، وكان مارك يجيب عن أسئلة مود بجُملٍ مقتضبةٍ أكثر من العادة، وأحياناً بكلمةٍ واحدة. هل رأى شيئاً على الطرق؟ لا. هل يظنّ أنّ عليّاً قد ضلّ غايته؟ ربّما. ماذا سيفعلان في الغد؟ لا يعرف .

بعد برهةٍ، توقّفت عن السؤال، وساد صمتٌ ثقيلٌ، ومن وقتٍ إلى آخر كان ضرب حوافر البقرة في الزريبة المجاورة يهزّ الأواني الزجاجيّة، وعندما أنهوا وجبة العشاء قام مارك بالبحث عن لفافة تبغ، ودفع بكرسيّه إلى جانب النافذة .

أزالت مود ما تبقّى على الطاولة، وغسلت الأواني بماءٍ باردٍ على الحجر المحفور الذي يقوم مقام المغسلة، ورفضت بلهجةٍ جافّةٍ عرض المساعدة من قِبل الفتاة الصبيّة، فانزوت هذه الأخيرة مع أختها في الطرف الآخر من الغرفة، في زاويةٍ مظلمة .

تضايقت مود من قسوتها، ولكنّها كانت تريد أن تخفي انفعالها، والدموع التي شعرت بأنّها كادت تنهمر. لم تكن مصدومةً من ردّ فعل مارك، ففي بعض الجوانب

تفهّمت موقفه، بلْ كان تخبّطها يعود إلى أسباب أعمق، وأكثر صعوبةً، يعود أيضاً إلى أسبابٍ أكثر تعقيداً نتجت عن مشاعر متناقضة كانت تحاول سبرها .

كلّما أرادت الهرب منه عادت ووجدته في هذا الكوخ ...

فطنت إلى أنّها تحوّلت خلال النهار إلى ربّة بيت، لا بلْ إلى أسوأ من ذلك؛ إلى خادمةٍ وفيّةٍ، وفكّرت بمارك من دون توقّفٍ، وكانت كلّها انتباه إلى درجة أنّها نسيت تعبها وإرادتها، ولكنّها رأت كيف أنّ مشهد الرضوخ هذا لم يثر فيه أيّ شعورٍ بالمتعة، ولا التعجُّب، ولم يتفوّه بكلمة شكرٍ واحدةٍ، ولا نظرة حنان، وكانت قد أقسمت لنفسها منذ مدّةٍ طويلةٍ بألّا تقع بمثل هذا الفخّ .

ما لم تحسب حسابه، هو هذه الرغبة التي لا تقاوم، وهذا الحبّ الذي يثير غضبها، ويفرض نفسه عليها، كأنّه زائرٌ يضع أحماله في بيتٍ لا يُرحّب به. بعد أن جفّفت يديها المتجمّدتين بالخرقة القاسية، التفتت ورأت هذا الرجُل الجالس الذي يدير لها ظهره، وهذه الأكتاف التي تخيّلت وجود رسمات أرابيسك باللون الأزرق عليها تحت ثنايا القميص، وهذا الشعر الأسْود الذي أحسّت أنّها تكاد تلمسه بأصابعها، وتشعر بكثافته، فوجدت صعوبةً في ألّا تتهافت نحوه مقدّمةً فمها له، وجسدها كلّه .

كانت الفتاتان قد جهّزتا فراشهما : وهو عبارة عن بساطٍ مطويٍّ ومكدّسٍ في صندوقٍ، أخرجتاه ومدّتاه، فتمدّدتا الواحدة بجانب الأُخرى، وتغطّتا بغطاءٍ أحمر ممتلئٍ بالثقوب، فأشفقت مود عليهما، وذهبت لكي تقبّلهما .

كانت أحداث النهار قد أتعبت الأطفال، فناموا بسرعة، الصغيرة نامت على الفور؛ أمّا الكبرى، فحاولت أن تقاوم النعاس، فبلا شكّ شعرت بالفضول، وأرادت أن تراقب هؤلاء الغرباء الذي استوطنوا بيتها .

قامت مود عندما تأكّدت من أنّ الفتاتين تنامان بعمقٍ، وفي الحقيقة لم تكن مستعجلةً لمواجهة مارك وجهاً لوجه وحْدهما، وكان ما يزال جالساً مقابل النافذة يعطيها ظهره، فشعرت أنّ السهرة ستكون طويلةً ومتوتّرة .

توجّهت من جديدٍ نحو الطاولة الكبيرة التي كانت قد أفرغتها ونظّفتها بقطعة قماش. كان الخشب حول الشمعة يلمع بألوانٍ صهباء، فتناولت كأسين من المغسلة، وملأتهما نبيذاً، ثمّ شدّت كرسيّاً، ووضعته بجانب كرسيّ مارك، وجلست. كانت تراه من زاويةٍ

مائلةٍ، فترى جانباً من وجهه. أخذ منها الكأس من دون أن يتفوّه بكلمة، فتركت مود الصمت يسود، وشربت نبيذها ببطءٍ، وبرشفاتٍ صغيرةٍ، وساعدتها مرارة هذا النبيذ؛ إذْ لم تكن تريد شيئاً طريّاً، ولا ناعماً، فما يمكن أن يثير جسدها كلّه كان يزيد من إحساسها بنفسها، ويدفعها لكي تحمي نفسها .

كان لا بدّ من الخروج من هذا الموقف، وبعد ذلك سيكون الهرب ممكناً، لا تريد أن تراه من جديد، وتريد أن تراه يتعذّب، ولكنْ هل بإمكانه أن يتعذّب من أجل شخصٍ آخر؟

كان الصمت مُطلقاً، صمتاً حقيقيّاً كالذي نجده في الريف، وفي الثلج. لا بدّ من أنّ البقرة قد نامت هي الأخرى على محفتها، وبدا الزمن معدوماً على الرغم من انشغالهم بتمرير الوقت، كما يفعل صيّاد السمك عندما ينظر إلى صنّارته، وهو يلقيها بخطّ سير المركب .

كان يبدو أنّ مارك لا يهتمّ سوى بالصمت، وانتباهه مركّزٌ على أقلّ قرقعةٍ، أو صوت صفير الهواء تحت النوافذ.

بعد قليل قامت مود ومدّت البساط الذي كان ينام عليه سابقاً عليّ، فتمدّدت من دون أن تخلع ثيابها، فمرّ تيّار هواءٍ ثلجيّ بسرعة على الأرض بين مدخل البيت والحظيرة، وكان مزعجاً، لكنّه في الوقت نفسه بدا لها إشارة حياةٍ، ودعوةً إلى الحريّة والحركة، وعوضاً عن أن تترك نفسها للحزن، أو حتّى للدموع، بدأت تحلم بهذا الممرّ الهوائيّ القادم من الأدرياتيك؛ كان يحمل الثلج، لكنّه يدفئ نفسه كما يفعل شخصٌ عابرٌ، حيث يمرّ بدفءٍ من هذا الكوخ ليصل إلى الجبل، وينحدر بقوّةٍ كبيرةٍ ليصل إلى إيطاليا، وبينما كانت تركب هذا الخيط الماجن الثلجيّ غرقت في النوم .

لم يكن عليّ يشعر بالخوف، ولم يكن في الزنزانة التي حُبس فيها أيّ نوعٍ من وسائل الراحة، وهذا كان يشعره بغربةٍ أقلّ من لو أنّ أفراد الميليشيا قد وضعوه في مكانٍ مختلفٍ عن الكوخ الذي اعتاد أن يعيش فيه مع أختيه .

لم يكن المكان سجناً بمعنى الكلمة، ولكنْ في هذه الحرب، لم يعد شيءٌ يُستعمل بطبيعته المعتادة، فتحوّلت البيوت إلى ملاجئ، ومكاتب البريد إلى مراكز قيادة، والمدارس إلى مستشفيات؛ لذا لم يكن من العجيب أن يتحوّل هذا القبو إلى سجن .

لم يصدّق العسكريّون الكرواتيّون أيّ شيءٍ ممّا قاله لهم. الشيء الوحيد الذي فهموه، هو أنّ هذا الصبيّ المسلم القادم في اللّيل على جواده مشتبهٌ به، وبما أنّهم لم يكونوا يستطيعون الرجوع إلى أيّ كان قبل حلول النهار، وضعوه هنا في الانتظار، ولكنْ ليس قبل أن يتأكّدوا من أنّه غير مسلّح .

صبيٌّ كبيرٌ ذو خدودٍ ممتلئة، بالكاد أكبر سنّاً من عليّ، ويضع على رأسه قبّعةً رياضيّةً، تقدّم إليه، وأعطاه قطعة خبزٍ، وتفّاحاً ذابلاً، لكنْ فيه عُصارة، فتناقشا لمدّةٍ، واكتشفا أنّهما كانا يسكنان قبل الحرب في المدينة نفسها، واكتشفا أيضاً أنّ لهما أصدقاء مشتركين، كان اسم الصبيّ فرانجو، وبدا فخوراً جدّاً لأنّه شخصيّاً مسؤولٌ عن هذا النوع من السجن، وقد صرّح بأنّه لم يمرّ فيه الكثير من السجناء؛ لأنّ العادة جرت في هذه البقعة ألّا يسجنوا الناس ...

حكى له عليّ – كما سبق أنْ حكى لأفراد الميليشيا – قصّته عن الرسالة التي يحملها إلى الكولونيل فيليبوفيه .

– فيليبوفيتش ليس كولونيل، إنّه جنرال!

الصبيّ السمين كان يتكلّم عليه باحترامٍ خاصّ، فسأله عليّ إن كان يعرفه .

– بالطبع أعرفه! إنّه عمّي .

لكنّه رفض أن يقول له إن كان الجنرال في المدينة في هذه الآونة، فلا يمكن البوح بمكان فيليبوفيتش؛ لأنّه هو الذي يقود المنطقة برمّتها، وزاد على أهميّته الخاصّة أن أوحى إليه أنّ بإمكانه أن يتواصل معه في أيّ وقتٍ كان، وعندما غادر وعد بأن يحكي شخصيّاً مع أهله عن موضوع علي .

نام عليّ بهدوء، وفي الصباح الباكر، دخل عليه سجّانٌ آخر جالباً له عصيدة شعير .

مرّت ساعاتٌ عديدة، وكان عليّ قلقاً، خاصّةً لمعرفة ماذا فعلوا بجواده، ولكنّ أحداً لم يأتِ إليه، فاحتفظ بقلقه لنفسه .

في منتصف النهار فُتح باب القبو بعنفٍ، ودخل فرانجو، هيئته هيئة وقار، وأمر عليّاً بلهجةٍ جافّةٍ أن يقف .

– رتّب نفسك قليلاً؛ الجنرال قادم!

بعد ذلك دخل رجُلٌ إلى السجن، ووقف أمام السجين، وكان يرتدي بدلةً رسميّةً عسكريّةً مخطّطةً بالأسود، ويضع على رأسه على نحوٍ مائلٍ بيريه عسكريّة، كان الرجُل يشبه العود الجافّ بقدر ما كان الحارس ممتلئ القامة، والحقيقة أنّه ليس هناك أيّ شبهٍ بينهما، إلى درجة أنّ عليّاً ألقى بنظرة استفسارٍ على حارسه الشابّ .

– « الجنرال فيليبوفيتش! » . صرخ فرانجو كأنّه ينفخ بوقاً.

الطبيب السابق الذي تحوّل إلى جنرالٍ كان قد حافظ من مهنته السابقة على سلوكٍ محبّبٍ، ونوعٍ من النعومة في التصرّفات، كأنّنا كنّا نتوقّع منه أن يسأل : « ماذا يؤلمك؟ » . كان يوحي بالثقة .

– « إذنْ، يا صغيري » . قال بصوتٍ هادئ : « يبدو أنّ لديك رسالة لي؟ » .

– نعم، يا جنرال .

– « سيّدي الجنرال » . صحّح له فرانجو .

– نعم، سيّدي الجنرال .

فتّش عليٌّ في جيبه، وأخرج الورقة التي لم يُعرها أفراد الميليشيا أيّ انتباهٍ، فالتفت فيليبوفيتش نحو اللمبة العارية التي تتدلّى من فوق المدخل، وقرأ الورقة التي كان مارك قد كتبها، ثمّ التفت نحو عليّ، وكان قد أغمض عينيه، ثمّ فتحها بنظرةٍ فجائيّةٍ قاسيةٍ وحَذِرة .

– ما أوصاف الرجُل الذي كتب هذا؟

لم يكن عليّ يعرف كيف يتصرّف فيما يتعلّق بوصف رجُلٍ غريب. بالنسبة إليه كان غريباً فقط. ساعده الطبيب، وسأله : هل هو طويل القامة؟ ما لون شعره؟ ماذا عن عينيه، وبشرته؟ هل هناك وشمٌ على جسده؟ وكان الصبيّ يجيب على قدْر ما يستطيع .

– إنّهما اثنان، أليس كذلك؟

– نعم، اثنان .

– كيف هو الآخر؟ هل اسمه أليكس؟

– لا أعرف اسمها، لكنّها أصغر منه .

– ما هذا، « هي » ؟! أليس معه رجُل آخر؟

كان عليّ مقتنعاً أنّ مود امرأة، ولكنْ أمام إصرار الجنرال بدأ يشكّك في نفسه .

– لا! أظنّ أنّها امرأة، ولكن ...

بدأ فيليبوفيتش يشعر بالغيظ .

– أتظنّ أم إنّك متأكّد؟

– أظنّ ...

– بشرتها سوداء؟

هنا تراجع الصبيّ. ربّما كانت لديه شكوك حول جنس الشخص، ولكن هنا كان حاسماً .

– ليست سوداء بالمرّة، على العكس، هذه السيّدة بشرتها بيضاء؛ إنّها شقراء، وعيناها زرقاوان .

أعاد فيليبوفيتش قراءة الورقة بانتباه .

– هل رأيت السيّارة التي قدِما بها؟

– ليست سيّارةً، إنّها شاحنةٌ كبيرةٌ، والخلفيّة ممزّقةٌ تماماً .

– ممزّقةٌ تماماً؟

– هناك جانبٌ مخلوعٌ من الشاحنة .

– هل رأيت ماذا يحملون في الشاحنة؟

– نعم، ما تزال هناك أغراضٌ بقدْرٍ لا بأس به؛ هذه السترة مثلاً، أعطوني إيّاها، ولكنّني شعرت بأنّهم قد أضاعوا نصف حمولتهم تقريباً، ولكنْ في القسم الأماميّ من الشاحنة ما زال هناك العديد من العلب الكرتونيّة .

التفت فرانجو نحو عمّه ليرى الانطباع على وجهه، ويقرّر إن كان عليه أن يصدّق أقوال الرسول المفترض، ولكنْ بما أنّ الجنرال لم يُظهر شيئاً من مشاعره، التفت نحو عليّ، ونظر إليه نظرةً قاسية .

مرّ وقتٌ طويلٌ من التشكيك، وكان فيليبوفيتش يفكّر من دون أن يقول شيئاً .

– أين هي المزرعة؟

– في الجبل .

– بعيدة؟

– جئت على الحصان، وسلكت طرقاً فرعيّةً، فلم أصرف الكثير من الوقت، ولكن على الطريق العامّ في هذا الجوّ لا بدّ من أن يكون الطريق أطول. عندما أخذنا والدي إلى هناك أمضينا على الطريق أربع ساعات تقريباً .

– وبالطبع ليس هناك عنوان .

– على حدّ علمي، لا .

– هل يطلّ البيت على الطريق؟

– لا .

– إذنْ، يجب أن تأتي معنا .

– وحصاني؟

– اتركه هنا، سنجلبه لك فيما بعد .

3

لم يمرّ الأمر من دون صعوبةٍ؛ فبعد أن عبروا الحاجز، اضطرّ فوتييه إلى الجدال مع شركائه لكي يقنعهم بالعودة إلى الوراء .

شعر ليونيل هذه المرّة بأنّه في موقع قوّةٍ، على الرغم من كلّ شيء، نجحوا في عبور الجبل، ومهما كانت الخسائر في الموكب، ها هُم يشارفون على الوصول إلى هدفهم، وكانوا يلمحون هناك في الوادي أضواء القرى الأولى، و (كاكاني) كانت واحدةً منها، ولم يعد عليهم العودة إلى الجبل، ولا السعي إلى المواجهة مع مارك .

أليكس هو الآخر كان مرتاحاً، فشعر بأنّه في حالٍ أفضل منذ بضعة كيلومترات؛ لأنّه لم يتوقّف عن التفكير بما سيفعله لو أنّ فوتييه تواجه وجهاً لوجه مع رفيقه القديم. كان قد رأى السلاح الذي يحمله الميكانيكيّ، وهو يعرف أيضاً أنّه في الشاحنة الأخرى، كان مارك يملك مسدّساً وذخيرةً لكي يدافع عن نفسه.

في السابق، لم يكن بإمكان أليكس، الذي كان متعباً بسبب جرحه، مقاومة فوتييه، ولا ليونيل أيضاً يملك القوّة لمقاومته .

لكنّهم عبروا الحاجز، ولن يسمح لهم أفراد الميليشيا أن يعودوا على أعقابهم بسهولة؛ هذا الدعم المحتمل زاد من عزيمتهم.

على كلّ حال، عندما وصلوا إلى الحاجز، كان الضوء قد انخفض إلى درجة أنّه لا يمكن التفكير برحيلٍ مباشر؛ لهذا حطّوا رحالهم بالقرب من المكان لقضاء اللّيل، ونزلوا في هنغارٍ زراعيٍّ مهشّمٍ؛ حيث ما يزال يوجد القليل من القشّ، وعلى بعد عشرة أمتارٍ تقريباً، كانت هناك بضعة مزارع على طول الطريق المنحدر. فوتييه، ومن دون أن ينبس بكلمةٍ لزميليه، اختفى في ذلك الاتّجاه؛ تخلّصا منه، وفرحا لذهابه، فتعشّيا بهدوء بما تبقّى من مؤنٍ في الشاحنة، وتناقشا معاً، وشجّعا بعضهما، وإن احتاج الأمر سيطلبان الحماية من العسكريّين الموجودين على الحاجز، ثمّ أخرجا الأغطية وناما على فراشٍ من القش، بعيداً عن الثلج الذي كان يهطل على السقف بصمت .

عند الفجر، بدا الجوّ جافّاً، وكان يمكن رؤية انفراجاتٍ مضيئةٍ في السماء، وأوّل من استيقظ كان ليونيل، فأشعل السخّان ليحضّر القهوة، بينما أليكس ما يزال تحت غطائه، فقد كان الدفء يخفّف من الآلام في أنحاء جسمه كلّها، ولم تكن الساعة قد صارت السابعة بعد عندما توقّف جرّارٌ جبليٌّ أمام الهنغار، وكان نوعاً من الشاحنة الصغيرة مدهونة باللون الأحمر قبل أن يحتلّها الصدأ خلال الزمن، ويلوّن صفائحها ببقعٍ بنيّة، وكانت خلفيّة الشاحنة عبارة عن سطحٍ لنقل حيواناتٍ، أو أكوام العلف، وفي الأمام، لم تكن غرفة القيادة تتّسع لأكثر من شخصٍ، وكان فلّاحٌ عجوزٌ يقود المركبة، وفي آخر لحظةٍ لمرور المركبة اكتشف ليونيل وأليكس أن فوتييه يجلس على السطح الخلفيّ .

– « كلّ شيءٍ مرتّب وعلى ما يرام » . قال، وهو يقفز على الأرض، ويتقدّم نحوهما : « رسميّاً، أنا سأقوم بإصلاح الشاحنة التي بقيت وراءنا . هل تأتون معي؟ نعم أم لا؟ » .

– « لا » . قال ليونيل حتّى من دون أن ينتظر رأي أليكس .

– في هذه الحالة، موفّقون أيّها الشباب .

عاد إلى الشاحنة، وصعد في الخلف، وضرب بيده على قمرة القيادة ليعلن للعجوز بأنّه يستطيع متابعة سيره .

سمعا صوت المحرّك، وهو يقلع، ثمّ يبتعد على الطريق .

خرج أليكس من تحت غطائه، وهو يئنّ من الألم .

– سيرديه قتيلاً !

– وماذا؟

– ماذا ماذا؟ هل ستتركه يفعل هذا؟

– ماذا نستطيع أن نفعل؟

لم يظهر الاستسلام فقط في نبرة ليونيل، فشعر أليكس بوجود نوعٍ من الرضا في صوته . ألم يكن هذا أحسن حلٍّ بالنسبة إليه؟

ليس عليه أن يتدخّل، فالشاحنة بأمان، وقد أُنقذت المهمّة، أو ما تبقّى منها، ومارك وضع نفسه خارج القانون عندما هرب، وسينال ما يستحقّه، وعلى كلّ حال، فوتييه وحْده يحمل المسؤوليّة، وكذلك سيرى ليونيل ما يرضي غيرته القديمة، فلم يكن ليونيل مستاءً، فهو يعرف أنّ مود ستدفع ثمن ما عدّته دائماً نوعاً من الخيانة عندما سترى حبيبها مقتولاً بيد فوتييه .

– أنا لست موافقاً .

– « إذنْ، خُذ شاحنة علفٍ أنت أيضاً، والحق به » . صرخ ليونيل .

– كان قد استعاد الثقة التي تشي بالضعيف عندما يشعر بنفسه محميّاً .

– لا، سنذهب معاً بشاحنتنا .

سخر منه ليونيل .

– أيضحكك هذا؟

– قليلاً .

لم يكن أليكس بوضعٍ جسديٍّ يسمح له بتهديده، وكان يعرف ذلك، فتابع ليونيل رشف قهوته الفاترة بهدوء. مرّ وقتٌ طويلٌ من الصمت. كان أليكس يجلس بصعوبةٍ على القشّ ويفكّر، وأخيراً، قام ووقف أمام زميله .

– هل تظنّ أنّك ستنجو ببساطة؟

أجاب ليونيل من خلال ابتسامةٍ لئيمة .

– أنت مخطئ!

– آه، لماذا؟

– اسمعني جيّداً، إذا قُتل مارك، وقتها سألتزم .

– بماذا؟

ارتسم على وجه أليكس تعبيرٌ لم يره ليونيل من قبل، كانت في عينيه جديّة مخيفة .

- عندما سنعود، يلزمني عدّة أيّام لأستردّ عافيتي، ثمّ ...

- ثمّ؟

- سأقتلك .

ضحك ليونيل ضحكةً صغيرةً، ولكنّ أليكس بقي على حزمه، واستمرّ بالتحديق فيه .

- هل تريد أن تنتهي في السجن؟

لم يجب الآخر . كان ليونيل يتفحّص العيون السود التي تحدّق فيه، فقرأ فيها شيئاً لا يمكن وصفه، قوّة كانت في الوقت نفسه تنمّ عن وحشيةٍ وتصميمٍ صدمه، وكان أمله الوحيد أن ينتهي هذا كلّه بأسرع وقت، لم يكن يتمنّى سوى العودة إلى فرنسا، واستعادة الهدوء والأمان اللّذين كان يتمسّك بهما أكثر من أيّ شيءٍ آخر، وها هو هذا الأحمق يوجّه إليه تهديداً يمكنه أن ينفّذه يوماً ما، حتّى بعد الرجوع إلى فرنسا، ففهم ليونيل أنّه لن ينعم يوماً ما باطمئنانٍ تام، وسيكون دوماً تحت وطأة هذا الحكم المجنون، وهو خطرٌ؛ لأنّه مجنون .

- « هيّا » . قال بنبرةٍ فيها أكبر قدرٍ ممكنٍ من العقلانيّة والصداقة : « كن عاقلاً. ماذا ستستفيد؟ » .

لكنّ الكلمات كانت تفتقد إلى القناعة، وتشي بالخوف، فاستمرّ أليكس في صمته .

عندئذٍ، قام ليونيل وقرّر أن يعبّر عن غضبٍ لم يكن مقنعاً هو الآخر.

- ماذا حلّ بكم جميعاً؟ أنتم ثلّة مجانين! لماذا يجب أن تقع العاقبة عليّ؟ لم أر يوماً حادثةً مثل هذه في العمل الإنسانيّ .

جاء التعبير تافهاً، وعندما لفظه ليونيل اكتشف كم كان غير مناسبٍ قطّ بعد الآن لوصف هذه الرحلة المأساويّة؛ فهُم كانوا قد ابتعدوا منذ مدّةٍ عمّا يمكن وصفه بالإحسان والسلْم، وانقلبوا جميعاً إلى جهة الكراهية والصراع، والتذكير بأسباب انطلاقهم في هذه الرحلة في البداية، كان يؤكّد مدى ابتعادهم عن هدفهم الأوّلي. كان أمل ليونيل بالوصول إلى (كاكاني) هو الوصول إلى الوضع الطبيعيّ، إلى الحياديّة، إلى كونهم يقومون بمجرّد عملٍ إنسانيٍّ، لكنْ يبدو أنّ هذا لن يحصل .

جلس من جديد .

– طيّب، ماذا تريد؟

– أريد أن نأخذ الشاحنة، ونلحق بذلك الحقير قبل فوات الأوان .

– « أفراد الميليشيا لن يدعوننا نعود إلى الوراء » . قال ليونيل بنبرةٍ سلبيّة .

– دعني أتصرّف .

وبالفعل، بعد نصف ساعة، كانوا يقودون الشاحنة على الطريق باتّجاه الجبل؛ فقد اقتنع العسكريّون بسهولةٍ بأنّهم يجب أن يعودوا لمساعدة الشاحنة الثانية، بلا شك، لأنّ فوتييه كان قد حضّرهم لذلك، بأنْ كرّر الحجج نفسها .

في الثلج الذي كان قد بدأ يذوب، كان الجرّار الذي يركبه فوتييه قد حفر خطّين من الطين الوسخ، الذي بدوا مثله .

استفاقت الفتاتان أوّلاً، وعلى صوت حركتهم بتغذية النار، وتسخين الماء، فتحت مود عينيها هي الأُخرى .

مارك لم يكن موجوداً، بحثت بعينيها عن واقي المطر الذي كان قد وضعه على طرف كرسيٍّ لكي يجفّ ولم تجده، يبدو أنّه كان قد عاد إلى مكانه للمراقبة فوق الطريق .

شربت مود القهوة التي حضّرتها البنت الكبرى، كانت ثقيلةً أكثر من اللازم، لكنّ الفتاة راقبت ردّ فعلها بفخر، فأجبرت نفسها على ابتلاعها، وهي تبتسم .

ولكنّها أيضاً، لم تكن ترغب بأن تعود إلى اللّعبة التي لعبتها مع الفتيات البارحة، فأشارت إليهما بأن تدعاها وحيدة .

النهاية اقتربت، كانت تنتظرها من دون أن تعرف إن كانت ترجو ذلك أم تخافه؛ العسكريّون الكرواتيّون سيأتون ليأخذوا الحمولة .

هل سيغيّر هذا من مسار الحرب أم لا؟ هذا لا يهمّها، فبالنسبة إليها، على كلّ حال، انتهى الأمر، وعندما ستتمكّن من الفرار ستفرّ بأسرع ما يمكن، وإلى أبعد ما يمكن .

كان الّليل قد أزاح عنها الإحساس بالانزعاج الذي استولى عليها البارحة، وباتت ترى الأمور على نحوٍ أوضح. هذا الصباح، وهذه المرّة، كانت واعيةً جدّاً أنّها بجانب الحياة، وعلى نحوٍ حادّ، والبارحة، في هذا الكوخ المظلم والبارد، استمتعت بإعادة الحياة إليه، وكان يكفيها أن ترى نظرة الحبّ التي تلقيها عليها الفتاتان .

عندما فكّرت بهنّ اكتشفت أنّها لا شكّ قد جرحتهما اليوم صباحاً؛ بسبب مزاجها السيّئ، فكانتا متكومتين في الجهة الأخرى من الغرفة، وتنظران إليها من دون أن تفهما السبب، فأشارت إليهما بإشارةٍ لطيفة، فتوجّهتا نحوها بكلّ فرحٍ، فجلست الصغيرة على ركبتيها، وبخجلٍ لمست وجنتها المحروقة بحركةٍ تدلّ على التعاطف .

– « دمية؟ » . سألتهما مود .

تبادلت الفتاتان النظرات من دون أن تفهما، فقامت مود ببعض الإيماءات كمحاولةٍ للشرح .

– « هل لديكما دمى؟ » . كرّرت السؤال .

أشارت الكبيرة منهما برأسها أنْ : « نعم » ، وراحت تفتّش في الصندوق الذي تضعان فيه فرشتهما صباحاً. هدهدت مود في هذه الأثناء الصغيرة بين ذراعيها، وهي تسرح في أفكارها .

لم تكن ناقمةً على مارك، بل كانت شاكرةً له؛ فهو من دون أن يشعر، ومن دون أن يرغب، خلّصها من الخوف .

عادت الطفلة الصغيرة نحوها، وكلّها فخر؛ لأنّها جلبت من الصندوق شيئاً ما .

– « دمية » . قالت، وهي تحاول أن تلفظ الكلمة على نحوٍ مناسب .

انفجرت مود بالضحك. كانت الطفلة تحمل بين يديها مجموعةً من أغطية الرأس : بيريه قديمة، وقلنسوة من جلد خَروفٍ متآكل بفعل العث، وطاقيّة مهترئة من المخمل بفعل السنين، والمطر، والثلج .

أفهمتها مود بلطفٍ أنّ هذه ليست دمى، فبدت الخيبة على الفتاة، ولكنّها لم تشعر بفقدان الأمل، فذهبت باتّجاه المغسلة، وصارت تفتّش تحتها، وأشارت من بعيد إلى مود حاملةً مكنسةً صغيرةً من الشعر، ومقعداً من الميناء الخَرِب، وإناءً من البلاستيك، وفي كلّ

مرّةٍ كانت مود تهزّ رأسها، وهي تبتسم، عندئذٍ، بدا أنّ فكرة أُخرى خطرت للفتاة، فتردّدت، ونظرت نحو النافذة كأنّها تريد أن تتأكّد من أنْ لا أحد يراها، وبدأت تزيح الطاولة الكبيرة، فشكّت مود بأنّها يمكن أن تجد دمى تحتها، لكنّها تركتها تفعل، وكانت الطاولة موضوعة على سجّادةٍ عتيقةٍ مصنوعةٍ من خيوط الكتّان تحوّلت مع الزمن إلى ما يشبه ممسحةً للأرض، وعندما أزاحت الطاولة بما يكفي، لفّت السجّادة، فظهرت فتحة بنافذةٍ خشبيّةٍ على الأرض، فرفعت الغطاء بصعوبةٍ بدت على وجهها، ومدّت ذراعها لتأخذ شيئاً من المخبأ؛ كان شيئاً طويلاً ملفوفاً ببقايا أقمشة، حملته إلى مود، وهي ممسكة به بيديها، كأنّه تقدمةٌ غاليةٌ جدّاً، وبالتأكيد لم يكن دميةً. وبفعل الفضول، أخذت منها مود هذا الشيء وبدأت تكشفه، فظهر عقب مسدّسٍ لمّاع، ثمّ السبطانة المشحّمة؛ كان مسدّس موزر قديماً، لا بدّ من أنّه يعود إلى فترة الحرب العالميّة الثانية، فتساءلت : لماذا قام عليّ عندما أراد الدفاع عن أختيه بحمل هراوةٍ عوضاً عن هذا السلاح الذي هو أقوى بكثير، ويبدو أنّه في حالةٍ جيّدة؟ لا شكّ في أنّ والدهم كان قد أوصاهم بألّا يظهروا مع هذا السلاح حتّى لا يظنّ الآخرون بأنّه مقاتل .

مود حرّكت الكولاس، وهي منتبهة إلى أن توجّه السلاح نحو الجدار، وكان الكولاس يعمل جيّداً، لكنْ لم تكن هناك رصاصة في الحجرة، وكان المخزن فارغاً، فأشارت إلى الفتحة للفتاة الصغيرة التي عادت تبحث فيها تحت الطاولة، وأخرجت صرّةً أُخرى فيها كميّةٌ من الذخيرة موضوعة في علبةٍ محكمة الإغلاق .

شكرت مود الفتاة التي بدت عليها السعادة لأنّها اكتشفت أخيراً معنى كلمة دمية، ثمّ أشارت لها بأن تعيد كلّ شيءٍ إلى مكانه.

كان عليها أن تجد شيئاً آخر لتسلّي الأطفال، وبما أنّه من الواضح أنهنّ لا يملكن أيّة لعبة، بحثت مود عن قصاصة ورقٍ، وحاولت أن تخطّ رسوماً لكي تلهي حُماتها .

كانت تنهي خطّ شكل بيتٍ مع بابه، ونوافذه، والمدفأة التي تنشر دخاناً، عندما اقتحم مارك الغرفة .

– هناك جرّار يصعد الطريق، كوني مستعدّة .

هل هُم أصدقاؤك الكرواتيّون؟

– لا أعرف، لكن لا يبدو ذلك .

– ماذا ستفعل؟

– سأنتظرهم أسفل الطريق .

كان يحمل مسدّسه بيده، فنظر الأطفال إلى السلاح بعيونٍ فزعة، لم يخفْن من المسدّس المخبّأ تحت الطاولة، فهو بالنسبة إليهنّ غرضٌ معروفٌ وممنوعٌ المساس به؛ أمّا المسدّس الذي يحمله مارك، بمعدنه الأسْود، وسبطانته القصيرة، فكانت تفوح منه رائحة الخطر والموت .

– هل ما زال الجرّار بعيداً؟

– إنّه لا يتقدّم بسرعة، لكنْ خلال عشر دقائق سيكون هنا .

– اشرب قهوة بينما تنتظر .

– « لا » . قال مارك : « سأعود إلى هناك » .

فتح الباب، فدخلت زوبعةٌ ثلجيّةٌ إلى البيت؛ كان الثلج قد عاد يهطل من جديد، فوقفت مود عند الباب ورأته، وهو يخترق الضباب، وانتابها إحساسٌ غريبٌ بأنّها يجب أن تثبّت تلك اللّحظة في ذاكرتها .

4

من فرط ما راقب المكان، صار مارك يمتلك معرفةً دقيقةً لا بأس بها بهذه البقعة المكوّنة من الغابة والمزارع، وكان قد لحظ وجود ما يشبه قناة ماءٍ تمرّ من بين الأشجار، لا شكّ في أنّها كانت مسرباً يُستعمل في الصيف لدحرجة أكوام العلف، فسار بمحاذاة المسرب، ووصل إلى مرتفعٍ آخر يقع مباشرةً فوق الطريق. سمح له الموقع بمراقبة المرج، والطريق الذي مرّا به عند وصولهما إلى هنا، والمشكلة الوحيدة هي أنّه من هذا المرتفع لم يكن يرى المنعطف الضيّق الذي يتفرّع عن الطريق، والمؤسف أنّه في تلك النقطة بالذات كان الجرّار قد توقّف، فميّز مارك الصوت غير المنتظم للمحرّك الذي يدور ببطءٍ، وسمع أصواتاً غير واضحة. لا بدّ من أنّ أحداً ما نزل عن الجرّار، وبلا شكّ ليقتفي الآثار على الأرض، ثمّ سمع صوت المحرّك يدور بسرعةٍ أكبر، فهمَّ الجرّار بالدوران، وابتعد في الاتّجاه الذي جاء منه .

كان الصمت ثقيلاً، يتقاطع مع عصف الهواء الذي كان يجرف في مساره الثلج الناعم، وظلّت أعصاب مارك مشدودةً، وهو يستمع إلى هذا الصمت الذي يعرفه جيّداً، وإن بدا له مختلفاً الآن. لم يكن يسمع فعليّاً أيّ صوتٍ محدّدٍ، لكنّه شعر بوجود بشريّ، فاستلقى على بطنه على الأرض الجليديّة، وزحف حتّى طرف المرتفع، وهنا رأى فوتييه فجأةً!

كان يتقدّم من دون إصدار أيّ صوتٍ على حدود أشجار الصنوبر، ولا يفرقه عن مارك سوى عشرين متراً، عيناه الصغيرتان تتفحّصان الأرض والغابات المحيطة. لم يخطر في باله النظر إلى فوق باتّجاه العارضة الصخريّة في الأعلى؛ حيث كان مارك مختبئاً، وكان يحاول التقدّم من دون إصدار أيّ صوت، فيرفع قدميه عالياً حتّى لا يصطدم بغصنٍ، أو يقع في حفرةٍ، ومن المؤكّد أنّه يريد الوصول إلى البيت مباغتة. كانت يده اليمنى في جيب معطفه الكنديّ، وكان مارك متأكّداً من أنّه يشدّ على سلاحٍ في قبضته .

تمتّع بمزيّة معرفة المكان بتفاصيله كلّها، وبسرعةٍ قرّر أن يتحوّل إلى نقطةٍ أُخرى من الغابة، لها الارتفاع نفسه، لكنّها أقلّ انحداراً، ومنها يستطيع أن يتقدّم بسهولةٍ أكبر نحو فوتييه، وأنْ يستحكم به، فتزحلق إلى الوراء، ومن دون إصدار أيّ صوتٍ وصل إلى المرتفع الجديد، وعندما وصل كان الدخيل قد ارتفع أيضاً ولم تعد بالكاد تفصله عنه سوى عشرة أمتارٍ، وفي هذه اللّحظة قرّر أن يواجهه .

– فوتييه، أخرج يديك من جيوبك، وارفعها!

بالكاد تفاجأ الآخر، فنفّذ ما طلبه منه، وهو يحاول الابتسام .

– « لم أتوقّع أن أجدك في الخارج في هذا الوقت » . قال بهدوء : « ستبرد »

.

– ماذا جئت تفعل هنا؟

– نحن تابعان للموكب نفسه، أليس كذلك؟ ألا تريدنا أن نلحق بك؟

– ماذا فعلت بالآخرين؟

– إنّهم ينتظرونني على مسافةٍ من هنا . أعتقد أنّهم غير متشوّقين لرؤيتك بقدْري .

صار الموقف عبثيّاً أكثر فأكثر : هطل ثلجٌ خفيفٌ بهدوءٍ، وغطّى شعرهم وجفونهم بنتفٍ بيضاء، وكان مسدّس مارك يأخذ شكل تمثالٍ من السكّر الناعم . رغب مارك بأن يخفّف من تنبّهه، وأن يمدّ يده إلى فوتييه . في النهاية، لا شيء يدعوهما إلى أن يكونا أعداء، ولا شيء يسوّغ عنف فوتييه، لكنّه تدارك الأمر مباشرةً، فقد كان منذ طفولته يعرف أنّ الأمور لا تسير على هذا المنوال، فالكراهية عصيّة على التفسير، ثمّ إنّ الضعف يثيرها، وبالتالي لا يكون هناك سماح من دون استعمال القوّة والانتصار، وخلال اللّحظات القليلة التي شرد فيها مفكّراً استطاع فوتييه أن يثب وراء جذع شجرة، وفي اللّحظة التالية أطلق النار . الطلق لم يصب مارك، لكنّه أثار زوبعةً من غبار الخشب، ولم يجد أمامه إلّا لحظاتٍ لكي يختبئ وراء شجرة صنوبر .

سمعت مود صوت إطلاق النار في البيت، فوضعت الطفلة أرضاً، وخرجت من دون أن ترتدي شيئاً . كان ستار الثلج لا يسمح برؤيةٍ تزيد عن عشرة أمتارٍ، وكلّ شيءٍ كان يدور بعيداً عند المنحدر، فسمعت طلقين ناريّين آخرين، فدخلت المنزل .

كان فوتييه سريع الحركة، على الرغم من وجود الثلج، ظلّ يقفز من خلف شجرةٍ إلى أُخرى، ولم يتمكّن مارك من إصابته، وفي لحظةٍ ما، رآه يقفز بين شجرتي صنوبرٍ، فأطلق النار، لكنّ الرصاصة استقرّت في جذع الشجرة، بصوتٍ جاف. بعد قليل، وبينما كان يتقدّم بالاتّجاه الذي كان يظنّ أنّ مهاجمه مختبئ فيه، انطلقت رصاصةٌ وراءه وكادت تصيبه؛ كان فوتييه قد نجح بأن يلتفّ حوله، ولا بدّ من أنّه الآن في مكانٍ ما خلفه .

بات كلّ شيءٍ عبارة عن انتظارٍ وتهديد، وكان البياض الجامد للمشهد ينتظر الدم لكي يتغذّى عليه. موتان مؤجّلان يتحرّكان في كفنٍ أبيض مكوّنٍ من ثلجٍ وضباب .

خلع مارك المعطف ذا القبّعة الذي يزعجه في الركض، وكان لونه الغامق واضحاً جدّاً، وكان يرتدي تحته سترةً رماديّة الّلون تتماهى أكثر مع المشهد، وكان قد علّق معطفه على غصن شجرةٍ قبل أن يقفز باتّجاه شجرةٍ أُخرى، ومن هناك سمع صوت إطلاق نارٍ جديد، ورأى المعطف يتراقص، رصاصة مطلقة من أعلى قد أصابته .

كان المتحاربان يدوران في الغابة، وكلٌّ منهما يحاول أن يصيب الآخر غدراً من الخلف، وفي هذه الّلعبة لا يبدو أنّ أحداً منهما كان سينتصر، فتعادل كلّ من خبرة مارك، ودهاء فوتييه. في البداية، كان مارك يطلق النار لكي يدافع عن نفسه، فحاول تحييد عدوّه، وإصابة ساقيه، أو ذراعيه، متفادياً المناطق الحيويّة، لكنّه فهم بسرعةٍ أنّ فوتييه يطلق النار لكي يقتل، وعندما كانت الطلقات تدخل في شجر الصنوبر كان هذا يحدث على مستوى الرأس؛ ولهذا فإنّ مارك أيضاً أصيب بحمّى القتل .

لم يكن هناك أيّ مجالٍ لهدنةٍ، ولا بدّ من أن يكون هناك غالبٌ ومغلوب .

استمرّت الملاحقة الصامتة بالسير على إيقاع الخطر، وتسارعت في بعض الّلحظات، عندما يظنّ أحدهما أنّه استحكم بالآخر فيطلق النار؛ وبطيئة حتّى أقصى حدٍّ في الّلحظات الأُخرى ما بين رصاصةٍ وأُخرى، وعندما كان التهديد غير مرئيٍّ بينما يقومان بحركاتٍ طويلةٍ لتغيير مواقعهما .

في النهاية، وفي لحظةٍ معيّنةٍ، جاءهم صوت محرّكٍ قادم على الطريق، وكان هذا خطراً؛ لأنّ الصوت يشتّت عن الملاحقة، ويحوّل السمع في اتّجاهٍ آخر. مقارنةً بالحفيف الخفيف لأغصان الشجر الصادر عن لمسهم لها عند الانتقال من شجرةٍ إلى أُخرى، أو

صوت تكسّر الثلج، كان صوت غطيط محرّك الديزل يشكّل ضجيجاً مزعجاً يقضي على كلّ تركيزٍ في الحواس .

لم يعرف مارك كيف يمكن فهم هذا الصوت. هل كانوا رفاقه من الكرواتيّين وعليه أن يفرح أم هما ليونيل وأليكس جاءا لمساعدة فوتييه؟ هل عليه الانتظار، وكسب الوقت، والاعتماد على مساعدةٍ خارجيّة أم عليه تسريع النهاية لكي لا يواجه أعداء جدُد؟

فكّر فوتييه بالطريقة ذاتها، واختار أن يضاعف من الدهاء والعنف، فصارت نيرانه متقاربةً أكثر، وأكثر دقّة، ولم ينجُ مارك إلّا بحركةٍ غير مدروسةٍ قام بها، وهو يستعدّ لقفزةٍ جديدةٍ سمحت له بتفادي رصاصة. دخلت الرصاصة في جذع شجرةٍ كان يظنّ أنّه يختبئ وراءها، وأخطأته ببضعة سنتيمترات .

الشاحنة الصاعدة صارت قريبةً جدّاً، ثمّ توقّفت، فسُمع صوت بابٍ يغلق، ثمّ عاد الصمت من جديد .

في تلك اللّحظة، لمح مارك ظهر فوتييه المنبطح على مستوى الأرض، ولم يكن يعي أنّ غريمه قد التفّ حوله. كان بعيداً نسبيّاً، وأخذ مارك وقته لكي يسدّد بدقّة. كان يحمل 9 ميلمتر بيديه الاثنتين، ويوجّه الفوهة نحوه كما كان يفعل في أثناء التدريبات .

كلّ شيءٍ تمّ بسرعة، ودوّى صوتٌ في الطريق الأسفل الذي يقود إلى الكوخ، كان أليكس ينادي، فالتفت فوتييه ودار حول نفسه، ومارك الذي شوّشه الصوت اهتزّ تصويبه، فكان الطلق الذي أطلقه أعلى من الهدف؛ أمّا فوتييه، وبينما كان يقوم من مكانه، فقد ردّ على النار عشوائيّاً .

تسلّق أليكس – الذي سمع صوت إطلاق النار – المنحدر القاسي باتّجاههم، وتسلّخت يداه من الأغصان، واستقبل وجهه كتلاً من الثلج المتساقط، وعندما وصل إلى مكان مارك كان هذا الأخير مرميّاً على الأرض ووجهه إلى الأسفل، فأداره، وكانت رصاصة قد أصابت كتفه، وكانت هناك فتحة واضحة في سترته الرماديّة. لا بدّ من أنّ الدم كان ينزف في الداخل؛ لأنّه لم يكن على السطح سوى الفتحة التي مزّقت السترة .

في اللحظة نفسها، سمع صوت إطلاق نارٍ جديد، وكان يأتي من الأعلى، ولم يكن صوت مسدّس؛ على بعد أمتارٍ، رأى أليكس رأس فوتييه، وكان الرأس يتدلّى من جذع شجرةٍ، ويرقد من دون حركةٍ على الأرض .

وصل ليونيل بدوره، وكان قد تقدّم برعونةٍ إلى المنحدر الحادّ، وكان ينظر إلى المشهد من دون أن يفهم .

– « اذهب وعاين وضع فوتييه، أنا سأهتمّ بمارك » . صرخ أليكس .

كان يفتح السترة ليحاول معاينة مدى خطورة الإصابة، وكما توقّع، كان الدم يسيل على صدره، دم أحمر، ساخنٌ وحيّ، فغاب مارك عن الوعي من قوّة الصدمة، ونفسه متقطّع، فضربه أليكس على خدّيه عدّة صفعات، ففتح عينيه .

في هذه الأثناء، وصل ليونيل إلى الميكانيكيّ، فأدار الجسد الذي كان قد تهاوى، والوجه المنغمس في الثلج .

– « يا الله! » . صرخ ليونيل : « لقد أرداه قتيلاً! » .

ولكنْ عندما فتح سترته الكنديّة الملطّخة بالدم، رأى أنّ فوتييه ما يزال يتنفّس، وكان مصاباً بجرحٍ دامٍ أعلى البطن.

سمُع صوت محرّكٍ يأتي من أعلى الطريق، وفُتحت أبوابٌ، وعندئذٍ شاهد مجموعةً من الأشخاص تسير على الطريق المؤدّي إلى البيت، فصرخ أليكس طالباً النجدة، فظهر له جنديّان كرواتيّان بلباسهما العسكريّ وراء الصنوبريّات، تبعهم عدّة جنودٍ آخرين، ومن بينهم ضابطان، لم يضيّع أليكس الوقت بالسؤال عمّن يكونون، الأهمّ هو نقل الجرحى إلى البيت .

أمسك بمارك الذي كان يئنّ، ورفعه الجنود من فخذيه، وكان آخرون بجانب ليونيل يساعدونه على حمل فوتييه، الذي ما يزال غائباً عن الوعي، فتوجّهت المجموعتان إلى الطريق، وصعدتا بموكبين في اتّجاه البيت .

– « لقد قتل الواحد منهما الآخر » . قال ليونيل : « المهموم والشاحب » .

– بالتأكيد لا، كان مارك قد أُصيب عندما أُطلقت النار على فوتييه .

– هل أنت متأكّد؟

– تماماً، رأيته وهو يقع، وكان ممدّداً على الأرض عندما أطلق الطلق الثاني؛ ليس هو بالتأكيد .

- من إذاً؟

حوّل كلّ من ليونيل وأليكس نظرهما نحو الأعلى؛ باتّجاه البيت .

وبينما كانا على الطريق، وجدا الشاحنة مركونةً تحت الأغصان المنخفضة لشجرة الأرزيّة، التي حمتها من الثلج، وكان ليونيل مغتاظاً لشدّة خرابها، ولكنّها كانت فكرةً سخيفةً أمام الكارثة العامّة. لم يتوقّف عن التفكير بما سيقوله مسؤولو المنظّمة، الذين سلّموه هذه الآليّات.

أمّا أليكس، فكان يركّز نظره على الكوخ الذي بدا بابه مغلقاً على نحوٍ سيّئٍ، ويصدر صريراً عند كلّ عاصفةٍ، وقام بالإشارة إلى العسكريّين الكرواتيّين الذين يساعدونه بحمل مارك لوضعه للحظةٍ على الأرض. كان الجريح قد استعاد وعيه ويئنّ، وتوقّف ليونيل، الذي كان وراءه هو الآخر، وطلب وضع فوتييه على الأرض .

الفضاء أمام المنزل كان مغطّى بآثار أقدامٍ، لكنْ لم يكن هناك أيّ شخصٍ ظاهر للعيان، وبجانب هذه الآثار، كان هناك غرض طويل ملقى على الثلج، فتقدّم أليكس بحذرٍ؛ لكي يلتقط هذا الغرض، وكان عبارة عن بارودة موزر، شكّلت الرطوبة بقعاً مدوّرةً على فوهتها المشحّمة جيّداً، فأعطاه لليونيل الذي أمسك به بشكل أهوج، والهلع يبدو عليه .

ثمّ استمرّ في التقدّم، وكان قد تنبّه إلى وجوب التقاط مسدّس مارك، وإظهاره للعيان، وعندما استعاد ردود فعله العسكريّة استند إلى حافّة الباب، وفتحه بضربة قدم، وكانت الغرفة معتمةً، وبقي في الخارج مدّةً طويلةً، وهو يوجّه سلاحه نحو الداخل، بانتظار أن تعتاد عيناه العتمة .

كان الصمت يسود الغرفة، ولكنّ حواس أليكس المتنبّهة سمعت صوتا هادئاً ومتقطّعاً، نوعاً من النفس غير المنتظم، بالكاد يمكن وصفه بأنين. أوّل شيءٍ ميّزه في العتم عينا فتاةٍ صغيرةٍ، تقف وسط الغرفة، وتركّز بصرها عليه بنظرةٍ قاسيةٍ، فدخل .

رأى ظهر أحدهم، وكان يبدو نائماً، والجذع منهارٌ على الطاولة، فعرف مود من شعرها. في البداية، ظنّ أنّها ميتة هي الأُخرى، ولكنْ، شيئاً فشيئاً ربط بين الصوت الضعيف الذي سمعه وبين حركة سترتها التي تشي بحركة تنفّس، لم يكن صوت شخصٍ نائم .

كان النفس غير منتظمٍ، ومتقطعاً، وكلّ زفيرٍ يلازمه نشيجٌ، فتقدّم أكثر، وفهم أنّها تنتحب. الفتاة الصغيرة عندما رأته يقترب من مود، التصقت بها، وأحاطتها بذراعها النحيلة .

هنا تنبّه أليكس إلى أنّه ما يزال يشرع سلاحه، فوجّهه إلى أسفل .

دخل ليونيل بدوره، وعندما بدأ بالكلام، بدا كأنّ صوته يمزّق الصمت الثقيل الذي يعمّ المشهد .

– ماذا بها؟

أشار إليه أليكس بأن يصمت، ثمّ انحنى بالقرب من الطاولة، فتراجعت الطفلة، التي اطمأنّت بفعل حركاته الناعمة .

كانت مود تضع وجهها بين ذراعيها، وتجهش بالبكاء، في حين ارتجف جسدها ارتجافاً هادئاً، كما لو أنّ برداً شديداً قد جمّدها، فتمتم أليكس، الذي ما زال منحنياً بالقرب من رأسها .

– مارك هنا، في الخارج .

كان ردّ فعلها الأوّل أن أزاحته بيدها، ليتركها في حالها، حتّى إنّها ألقت عليه نظرةً ساخطةً، كما لو أنّ رغبته بأن يريها جسد مارك دلّت على وحشيّةٍ شائنة، ولكنْ عندما رأت نظرة أليكس، لم تقرأ شيئاً فيها سوى الرقّة والتعجّب، عندها رفعت رأسها ببطءٍ، وحدّقت فيه :

– أتقصد أنّه ...

– نعم، على قيد الحياة. يجب أن نحضّر له مكاناً، وأن نضعه هنا .

لكنّها كانت قد وقفت على قدميها، واتّجهت نحو الباب .

– أين هو؟

5

عندما رأت مود مارك يقع بعد أن أصابته رصاصة فوتييه، تيقّنت على الفور من أنّه قُتل، كان هذا ردّ فعل غريب، لكنّ الأجواء التي سادت في الأيّام الأخيرة تسوّغه تماماً؛ إنّ العنف والانتقام دفعا الموت إلى أن يهيمن على الهاربين، ويشغل فكرهم .

لكنْ عندما رأت مارك في الخارج، على قيد الحياة، حتّى إنّه استعاد وعيه، وكان جالساً على الأرض يضع يده على كتفه المجروحة، أجهشت مود بالبكاء العصبيّ، المختلط بضحك الفرح، ونزلت على ركبتيها على الثلج وقبّلته، وداعبت وجهه المغطّى بالعرق الجافّ، الذي التصقت عليه إبر الصنوبر .

وقفت، وصارت تدفع بالجنود ليحملوه مباشرةً إلى البيت، ولكنّه أصرّ أن يمشي، فساعدته بالوقوف. وضع ذراعه السليمة حول كتفها، فسعدت مود بالشعور بثقله الذي كانت بالكاد تقوى عليه، وتلذّذت بأن ترى انتشار عبق نفسه على وجهها، نفسه الذي كان يخرج من فمه المفتوح كليّاً بسبب الجهد الذي يقوم به، فتجاوز الأمتار الأخيرة، وهو يترنّح، فدخل البيت. الفتاتان الصغيرتان التصقتا بباب الحظيرة، وفتحتا عيونهما المرعوبة .

في هذه الأثناء، كان ليونيل والجنديّان يصعدون الطريق حاملين فوتييه، الغائب عن الوعي، ما جعله ثقيلاً أكثر من العادة، وقد اضطرّوا إلى أن يضعوه أرضاً عدّة مرّاتٍ على الثلج ليستردّوا أنفاسهم، وعندما دخلوا بدورهم البيتَ، حدث تدافعٌ كبير؛ إذْ كانت الغرفة ضيّقةً، وكان عددهم كبيراً، وصارت الغرفة مزدحمةً بفعل وجود هذا الجسد الجامد، وكان الكرواتيّون يصدرون صرخاتٍ بلغتهم، ولكنْ لا يبدو أنّ أحداً قد فهم ما يقال. مدّدوا فوتييه على العتبة، وكان رأسه ما يزال خارجاً، ثمّ قام ليونيل بدفع الطاولة نحو جدارٍ، ورفعوه ليضعوه فوق الطاولة .

كان مارك جالساً على الأريكة الوحيدة في الغرفة، وقدماه ممدودتان على كرسيٍّ صغير. لم يعرف الجنود إن كان عليهم أن يخرجوا من الغرفة أم يبقوا في المكان؛

ولهذا كانوا يقفون متجمّعين حول الباب، وكانت مود تروح وتجيء، وتجلب الماء من المغسلة، وتبحث عن السكّر، وعن الكحول في الخزانة .

فجأةً! دخل رجالٌ آخرون يرتدون اللباس العسكريّ، كانوا خمسة، أو ستّة، لكنْ لم يعد هناك مكان لاستقبالهم في الغرفة، فبقي العديد منهم في الخارج، ثمّ وقف هؤلاء الجنود بوضعيّة الاستعداد؛ لأنّ واحداً من القادمين كان يحمل رتبةً عسكريّة.

بدا لأليكس أنّه قد رآه سابقا. فجأةً! تذكّره : إنّه فيليبوفيتش، الجنرال آمر القوّات الكرواتيّة في المنطقة. كان قد عرفه في (كاكاني) ، حتّى لو لم يكن قد عقدَ معه أواصر صداقةٍ كما فعل مارك، لكنّه تقدّم إليه وعانقه .

ولكنّ الوقت لم يكن مناسباً لإظهار العواطف، فلا بدّ من أخذ قراراتٍ ملحّة. كان فيليبوفيتش مفتاح الموقف كمسؤولٍ عسكريٍّ، ولكنّه في الوقت نفسه طبيبٌ، ويستطيع معاينة جروح الجرحى، وتقديم الإسعافات الأوليّة لهما، والإعلان عن تشخيصٍ ما .

حتّى لو كان وضعه أقلّ خطورةً، كان أليكس قد وجّه الطبيب على نحوٍ عفويٍّ نحو مارك .

لم يكن قد لحظ وجوده في العتمة، وعندما رآه، اقترب منه، وشدّ بحرارةٍ على يده السليمة .

- لقد جئت!

- « نعم » . قال مارك : « لقد نفّذت وعدي » .

عندما سمع هذه الكلمات، وعندما رأى هيئة التواطؤ بين الرجُلين، تكدّر أليكس. لا بدّ من أنّ فيليبوفيتش كان بالتأكيد على علمٍ بمشاريع مارك، وقد يكون هو حتّى من نظّم وموّل قضيّة المتفجّرات كلّها، وعلى الرغم من أنّه أمام أليكس، كان دائماً يُظهر أنّه يصدّق قصّة مفرقعات الورش. بالنتيجة، لقد كذب، وربّما كان هو المسؤول الحقيقيّ عن هذه المأساة .

لم تنفكّ مود خلال هذا الوقت عن الاهتمام بالجريح، وكانت قد أزالت له - بصعوبةٍ - سترته، وحاولت قصّ القميص الملتصق بالجرح بفعل النزيف. فيليبوفيتش ساعدها، وفحص الجرح .

– خرجت الطلقة، فقرّر، وهو يرفع رأسه : لقد مرّت من خلال الشحم في الكتف، وليس هناك سوى آثار على العضلات، لا شيء خطر؛ ما أفقدك الوعي هو قوّة الطلقة .

أمسك بالقميص الذي كانت مود قد خلعته عن مارك، ومزّق جزءاً من القماش .

– « سيريحك هذا قليلاً » . قال الطبيب، وهو ينهي ربط جبيرةٍ مؤقّتة : « عندما سنصل إلى مستشفى سنرى ما يمكن فعله » .

– « شكراً » . قال مارك، وأشار إلى فوتييه الغائب عن الوعي، والمسجّى على الطاولة : « من الضروريّ أن تعاينه » .

قبل أن يتوجّه فيليبوفيتش إلى الطاولة استوقفه لحظةً بيده السليمة، وهمس .

– لقد جلبت ما كنت قد وعدتك به .

ابتسم الكرواتيّ ابتسامةً لطيفةً، ولكنّها مترافقةٌ مع تعبيرٍ غريبٍ يشبه الإشفاق، ووضع كفّه على خدّ مارك .

– « لا تشغل بالك بهذا » . قال له .

قام وتوجّه نحو الطاولة، وكان ليونيل قد كشف عن بطن الجريح بمساعدة الجنود، ونظّف الجرح بفوطةٍ ممتلئةٍ بالدم، وكان فوتييه قد استعاد وعيه، لكنّه كان في حالة اضطّرابٍ وهذيان، فظلّ يئنّ، ووجهه شاحب.

بعد أن جسّه طويلاً، وفحصه، قام الطبيب بأخذ ليونيل جانباً :

– يبدو أنّ الأعضاء الحيويّة لم تمسّ، لكنّ الطلقة ما تزال في داخله، والنزيف كبير. لو توقّف النزيف يمكنه أن يعيش، لكنّه يمكن أن يعود في أيّة لحظة؛ يجب إجلاؤه بأسرع ما يمكن .

– أليس هناك ما يمكننا إعطاؤه إيّاه ليرتاح ويهدأ؟ يبدو أنّه يتألّم على نحوٍ مريع!

– نحن لا نحمل أيّة أدويةٍ معنا؛ يجب نقله إلى المدينة .

– إذنْ، احملوه على الفور، هيّا.

– بالتأكيد لا يمكننا فعل ذلك بشاحنتنا، إنّها لنقل الفرقة، فالجزء الخلفيّ من الشاحنة عبارة عن عربةٍ مسطّحةٍ مفتوحةٍ على الخارج، وهناك مقاعد مكسّرة في الأماميّ. هل هناك فراشٌ في شاحناتكم؟

– نعم، في واحدةٍ منهما.

– إذنْ، سينام عليها. مارك، هل يمكنك أن تبقى جالساً؟ لن نستطيع السير بسرعةٍ كبيرةٍ؛ فالطريق في حالةٍ سيّئةٍ جدّاً، وسيكون أمامنا ثلاث ساعاتٍ على الأقلّ .

– سننجح .

كانت مود قد أعطته شراباً، واستردّ وجهه بعض ألوانه .

– أين هي الشاحنة التي تحمل فراشاً؟

– في الأسفل على الطريق .

– اذهبوا لجلبها، واركنوها وراء الأخرى .

كان ليونيل يستعدّ للخروج عندما أشار إليه فيليبوفيتش، وانعزل به جانباً .

– كيف حصل هذا؟

– أظنّ أنّهما أطلقا النار على بعضهما .

– بأيّ سلاح؟

– كان فوتييه يحمل مسدّس 9 مللمتر، ومارك كذلك، على ما أظنّ.

– مسدّسات؟ بالنسبة إلى جرح مارك، قد يكون هذا ممكناً؛ أمّا الآخر، فقد تلقّى رصاصةً من سلاحٍ حربيّ. على كلّ حال، يجب إخلاؤهم قبل كلّ شيء .

أشار إلى ليونيل بأن يذهب، ونادى جنديّين لكي يرافقاه .

هذا الإخلاء حرّر نوعاً ما المكان في الغرفة. عليّ الذي كان ينتظر في الخارج، استفاد من هذا التحرّك ليندسّ في الداخل، وعندما شاهدتاه أختاه ركضتا نحوه، وهما تصرخان فرحاً .

***

عاد الموكب وتشكّل من جديد كما كان في بداية الرحلة تقريباً، وهذا وحْده كان مصدر فرح. كانت الشاحنتان تسيران الواحدة تلو الأُخرى، شاحنة مود في المقدّمة، ومارك جالسٌ بجانبها، ويتبعهما ليونيل، وحْده في الأمام، بينما فوتييه يئنّ على الفراش في الخلف .

كانت السماء صافيةً لترحّب بهذا اللّقاء، ولمعت شمسٌ صريحةٌ فوق حقول الثلج، وكانت أعالي الجبال المكسوّة بصخورٍ سوداء تحتلّ الأفق كلّه نحو الشمال، وفي الجنوب، وبعد المنحدرات العارية، كان يمكن رؤية الرونق البعيد للساحل « الدلمائي » عبْر الضباب .

ولكنّ هذا الموكب الجديد لا يشبه بشيء ذلك الذي غادر مدينة (ليون) قبل أسابيع. أوّلاً : الشاحنات اهترأت، خاصّةً تلك التي كانت في المقدّمة؛ حيث إنّ غطاءها كان قد اقتُلع، ثمّ رُتق على عَجَلٍ، وقلّت محتوياته إلى النصف.

لم يعودوا وحْدهم؛ ففي الأمام كانت تسبقهم حافلة نقل القائد – الجنرال، وكان أليكس قد طلب أن يركب مع فيليبوفيتش؛ لأنّه لم يتمكّن من طرح الأسئلة التي كانت تحرق شفتيه عندما كانوا في البيت، ووراء الجميع كانت هناك مركبتا نقل الجنود، ورجالٌ بعتادهم الكامل، متسربلين بمعاطف طويلة، كانوا يسافرون وقوفاً، متمسّكين بعوارض على جانبيْ عربات النقل .

في الشاحنة الأولى، كان مارك جالساً على نحوٍ موارِبٍ؛ لكي يتفادى الإحساس بالاهتزازات في كتفه الجريحة، وكان مضطّراً إلى أن يعطي ظهره لمود التي تقود .

لم تكن ترى وجهه، ومع انحسار الألم، تساءلت إن كان سيعود إلى تعبير وجهه النهاريّ الذي عوّدها عليه؛ المشدود والمنغلق، أم ستلقى وجهه الليليّ، عندما يتراجع الضغط، ويكون منفتحاً على الحنان. وبما أنّها لا تستطيع أن تخمّن بقيت حذرةً صامتةً تشعر بضيقٍ ما، وبعد أن تجاوزوا لحظات القلق والحركة، لحظة الخطر، كانت تتساءل بينها وبين نفسها كيف سيؤثّر هذا كلّه على مارك، وكيف ستكون حالته النفسيّة. لم تكن تعرف إن كان شاكراً للاهتمام الذي أظهرته تجاه ما حصل له أم على العكس من ذلك، كان ناقماً لأنّها رأت ضعفه. لم تكن تجرؤ على أن تكون هي المبادرة بالكلام .

كان مارك قد أغلق عينيه وغفا، وهو ينظر عبر النافذة إلى الشاشة البيضاء التي يشكّلها مشهد الثلج، كان يراجع في ذهنه لحظات الملاحقة، والصور التي مرّت في ذهنه أيقظته .

– مرّ الأمر بسرعةٍ إلى درجة ...

لم تكن مود متأكّدةً من أنّه يوجّه كلامه إليها .

– كان أمامي مباشرةً... ثمّ سمعت صوت أليكس ...

شدّت مود بيديها على المقود، كان الطريق محفّراً، وكان عليها أن تسيطر على الشاحنة بحزمٍ كي لا تتدحرج إلى الهاوية القريبة مباشرة. كانت تشدّ على أسنانها، وتستعيد مشهد إطلاق النار، كأنّها بجانب البيت، وتسمع صوت إطلاق النار، ثمّ صوت مارك، وهو يقع ورأسه في الثلج، ثمّ ترى فوتييه من بعيد ...

– لم أكن أظنّ قطّ أنّ أليكس سيفعل هذا من أجلي .

كان مارك يتابع الكلام لنفسه، فشعرت مود بأنّ الدموع تنفخ جفنيها، فشدّت أكثر فأكثر على المقود، كي لا تبدأ بذرف الدموع .

– كنت أظنّ أنّه ناقمٌ عليّ. من المؤكّد أنّه ناقمٌ، ولكنْ على الرغم من هذا فعلها .

– ماذا فعل؟

جفلت مود.

– هل يمكن أن يكون ...

أمّا مارك، فحاول عندما سمعها أن يلتفت نحوها، لكنّ الألم أوقف حركته .

– أن يقتل فوتييه! بدونه كنت ميتاً الآن ...

كادت مود تفلت المقود من الانفعال، ففهمت مدى سوء الفهم الحاصل فجأةً! وشعرت برغبةٍ في الضحك، وعندما انفرجت أساريرها، سالت دمعةٌ لم يكن لها مسوّغ، فانتظرت لحظة لكي لا تبدو في صوتها حشرجة من الانفعال .

– « ليس هو من أطلق النار على فوتييه » . قالت أخيراً .

احتاج مارك إلى بعض الوقت ليستوعب ماذا تعني هذه الكلمات .

- من إذنْ؟

التفت نحوها على الفور، وأحسّ بالألم عندما لمس كتفه مقعد الكرسيّ القاسي، فكشّر .

لم يحدث أن شعرت مود قبل ذلك بمثل هذه الانفعالات تختلط داخلها في الوقت نفسه.

نظرت إليه، وهي تبتسم، واستقرّت نظرته في عينيها. لأوّل مرّةٍ كانت على يقينٍ بأنّه يراها، وأنّه يفهم مقدار ما يمكن حبّها له أن يفعل .

كانت حافلة القيادة الخاصّة بالجنرال من طرازٍ سوفييتيٍ قديم، وقيادتها غير مريحةٍ، حتّى إنّ الجنديّ الذي

يمسك بالمقود كان يتأرجح بذراعيه يميناً تارةً، ويساراً تارةً أُخرى، لدرجة أشعرت الركاب بالغثيان .

جلس فيليبوفيتش في الأمام، وكان صندوق قيادة الحافلة والباب من جهته ممتلئاً بعلب الجعّة الفارغة، وعلب لفائف التبغ التي تحوّلت إلى منافض، وكان أليكس مكدّساً في الخلف، في مكانٍ ضيّقٍ محشوٍّ بحقائب الظهر كاكية اللون، وأكداسٍ من الجرائد القديمة .

لم يتوقّف فيليبوفيتش عن الاستفسار عن رحلتهم، والأحداث التي أعاقت تلك المسيرة، وأسباب إطلاق النار الذي حصل بين فوتييه ومارك .

اضطرّ أليكس إلى أن يحكي له عن كلّ شيء، وأن يشرح له عن كلّ فردٍ في المجموعة، وعندما لخّص الأحداث، انبهر بعبثيّتها، وبقي سلوك كلّ فردٍ فيهم، من هذا الطرف، أو ذاك، أحجيةً من نواحٍ عديدة. الحدث الوحيد البعيد عن هذا الخراب، كان اللقاء بين مود ومارك؛ في ساحة الخراب هذه، كان البناء الوحيد الذي يقف متماسكاً، وعندما فكّر في هذا، تفطّن إلى أسئلته الخاصّة، ولهذا وجد القوّة التي سمحت له بمقاطعة فيليبوفيتش ليسأله بدوره .

- « بوبا؟ » . قال .

أخفض الجنرال عينيه؛ فقد كان على علمٍ بمشاريع أليكس .

- إنّها بخير .

كان أليكس ينتظر، فصمت فيليبوفيتش لمدّةٍ طويلةٍ، ثمّ استفاق الطبيب، وبلهجة الممارس الذي يستعمل أسلوباً خاصّاً لكي يعلن عن تشخيصٍ سيّئٍ لمريضه، محاولاً ألّا يفقده الأمل ...

قرّر أن يتكلّم .

- انتظرتك يا أليكس، مرّت الشهور، وهي تنتظرك، صدّقني، ولكنّك تعرف عدم صبر الفتيات .

- حاولت أن أرسل لها، ولكنّ الأمر كان صعباً، مع الحرب ...

- أعرف، أعرف، أحاول فقط أن أشرح لك ما أتخيّل أنّها شعرت به .

انحنى أليكس إلى الامام، وتمسّك بمقعد الجنرال، من دون أن يشعر أنّ القماش القديم البنيّ كان يتمزّق تحت ضغط أظافره .

- الأهمّ بالنسبة إلى فتاةٍ مثل بوبا، هو أن تبتعد عن هذه الحرب، أتفهم؟ أن تذهب لتعيش في مكانٍ آخر . هنَّ يعانين، ربّما أكثر منّا، والزمن يمرّ .

- إذنْ؟

- إذنْ، جاء ذلك الفريق من الصحفيّين الألمان ليقوم بتحقيقٍ مصوّرٍ عن (كاكاني) .

هنا قطع كلامه، وألقى نظرةً سريعةً على الشاب، وقدّر أنّ الألم سيكون أخفّ لو جاء بضربةٍ واحدةٍ، طالما أنّ الموضع ساخن .

- رحلت مع المصوّر، وهو شخصٌ جيّدٌ، وجدّيٌ تماماً، قام بترتيب الأمور لخروجها من (البوسنة) بأوراق لاجئة، وأظنّ أنّهما تزوّجا فور وصولهما إلى (لايبزخ) .

كان أليكس ينظر محدّقاً أمامه، فشحب، وأمسك فيليبوفيتش، من دون أن يلتفت، بيده المتشنّجة على ظهر المقعد .

- « هيّا » . قال : « من المؤكّد أنّ هذا الحلّ الأفضل » .

كانت شمس الشتاء على مستوى الجبال تملأ القمرة، وتعمي عيونهم بضوءٍ غير محتملٍ من البياض .

6

في الشاحنة الأخرى، كان الوضع أشدّ كآبةً؛ فوتييه المستلقي على فراشه توقّف عن الأنين ونام.

إعادة تشكّل الموكب كانت قد أراحت ليونيل قليلاً؛ لأنّ هذا يعطي للمهمّة شكلاً طبيعيّاً، وكان يأمل أنّه بعد الآن سيقود جماعته إلى هدفها الطبيعيّ، وبالطبع كانت المعدّات معطوبةً، وكان هناك نقصٌ كبيرٌ في الحمولة، ولكنْ لا شيء من هذا كان خطراً بالنسبة إليه .

وجود الجريحين أمرٌ مزعجٌ، لكنّ خلافاتهم ناتجة عن إشكالٍ خاصٍّ بهم تماماً، وبينما كان يحلّل النقاط الواحدة تلو الأخرى، بدأ ليونيل يقول لنفسه : إنّ الموقف أقلّ شؤماً ممّا تهيّأ له، وبالنسبة إلى الذين يجهلون كيف كانت الرحلة على حقيقتها، فإنّ المحصّلة تبدو إيجابيّةً تقريباً، والمشكلة بالنسبة إليه كانت أنّه لا يجهل ما حدث بالضبط، ولا يمكنه أن ينسى أنّه فقد السيطرة على الأحداث تماماً، وهو بصفته رئيس بعثةٍ كان مخفقاً تماماً. لن يعترف بهذا للآخرين، لكنّه لن يستطيع تجاهله بينه وبين نفسه .

ولكنْ ما كان يسبّب له الاضطراب أكثر، أو حتّى الألم الأكبر، هو أنّه اكتشف مدى وحدته، وبهذا الخصوص، فالإخفاق الأكثر إيلاماً بالنسبة إليه كان خيانة مود. في حقيقة الأمر، كان قد قام بهذه المهمّة من أجلها، أو لنقل : على الأقلّ من أجل إغوائها، وكان عليه أن يقبل بأنّه لا مزاج له، ولا براعة في العمل الميدانيّ في الخارج، خاصّةً عندما يستلم منصباً فيه مسؤوليّة، ولم يشعر بنفسه راضياً إلّا خلال إقامته في (ليون) ، في مركز « لا تيت دور » ، ولم يكن ليتورّط في هذه المغامرة المتوحّشة من دون وجود الفكرة الغبيّة : أن يحصل على سطوةٍ أكبر على مود، وأن يُخضعها له تماماً .

عندما تجاور مع الآخرين داخل الشاحنات، انتبه ليونيل إلى قلّة الودّ التي يثيرها حوله. الوحيد الذي شعر بأنّه قريبٌ منه، وكان يمكنه الادّعاء بأنّه سيصبح صديقه، كان فوتييه، وعرف على نحوٍ مؤكّدٍ أنّ هذا الأخير استخدمه، وقد ذهب إلى حدّ أنّه هدّده،

ولكنْ على الرغم من ذلك كان يشعر نحوه بنوعٍ من الجاذبيّة غير المفسّرة، ربّما كانت في الحقيقة نوعاً من الإعجاب أكثر منه عاطفة .

وها هو ذلك الذي يشعر بأنّه الأقرب إليه ممدّدٌ على مقعده، بين الحياة والموت. في النهاية، شعر ليونيل أنّه مطبوعٌ بالعزلة والإخفاق، وفي صمت القمرة، ترك نفسه يجترّ هذه الأفكار من دون أيّ رادع .

فجأةً! انتفض، وسمع كلماتٍ بصوتٍ أجشّ وراء أذنه، فالتفت ورأى أنّ فوتييه قد استدار قليلاً جانباً، وكان رأسه متوضّعاً تماماً وراء كرسيّ القيادة؛ لذلك فإنّ صوته كان مسموعاً من قبل ليونيل على الرغم من ضجيج المحرّك .

– هل تشعر بتحسّن؟ لقد استيقظت.

– « ما من داعٍ للإسراع » . كرر فوتييه .

– لماذا؟

– لأنّني سأموت .

قام فوتييه بحركةٍ بيده تشير إلى اليأس، فأدار ليونيل رأسه للحظةٍ، فرأى الهالات البنفسجيّة تحت عيون الجريح، وبشرته الشمعيّة، وأنفه المضغوط الذي يبحث عن الهواء .

– لا، وضعك أفضل، خذها منّي .

– أريد أن أشرب .

– قال فيليبوفيتش ألّا تفعل؛ بسبب الجرح في البطن. أتفهم ذلك؟

– على كلّ حال، لا أمل لي .

اعترض ليونيل على هذا الكلام، لكنّه لحظ أنّ شفتيه المفتوحتين جافّتان على نحوٍ سيّئٍ، وعلى أسنانه مادّةٌ بيضاء، مقرفة، فأمسك بمطرةٍ من البلاستيك موضوعةٍ في جيب الباب، ومدّها نحو فوتييه .

– شكراً .

شرب، وهو يلهث عند كلّ جرعة، ثمّ ساد صمتٌ طويل .

– قل لي .

كان صوت فوتييه أوضح بما أنّه قد روى عطشه .

– ماذا؟

– هل مات؟

– من؟ مارك؟

– بالطبع .

قام ليونيل بتحريك المرآة الداخليّة، ووجّهها بحيث يرى الجريح، فرأى نظرته الحادّة .

– لا، لم يمت، إنّه مجرّد جريح .

– هل يمكن أن ينجو؟

– بالتأكيد، لا يبدو جرحه خطراً .

– اللعنة!

في المرآة، أغلق فوتييه عينيه، فخاف ليونيل أن يغفو فجأةً، ولا يستيقظ بعد ذلك، تماماً مثلما يحدث مع متسلّقي الجبال الذين ترهقهم العاصفة، فكان عليه أن يكلّمه، وأن يبقيه متيقّظاً، حتّى لو اضطرّ إلى إثارته، لكي يستجمع قواه، ولا يسمح للموت بأن يقترب .

– هناك شيء لا أفهمه يا فوتييه، لماذا تكره مارك إلى هذه الدرجة؟

فتح الجريح عينيه من جديد، وأبقاهما مركّزتين على القماشة الرماديّة في السقف، التي كانت ملوّثةً ببقعٍ من الشحم الأسود .

– « الكراهية... » . قال، وهو يفكّر : « هل يمكن شرح الكراهية؟ » .

كان ما يزال يمسك بالمطرة المفتوحة بطرف يده الممدودة، وعندما رفعها إلى شفتيه، وقع الماء على وجهه، فحرّك خديه الكبيرين كما لو أنّه كلبٌ ينتفض، وكانت عيناه تلمعان لمعةً سعيدة .

– الكراهية هي السعادة، أنت لا تعرف بعد، إنّها نوعٌ من الهوى، سببٌ للحياة، إنّها ترفٌ حقيقيّ، الترف الوحيد ربّما .

راقب ليونيل هذا المونولوج بطرف عينه، وكان سعيداً بتحقيق هدفه : فوتييه لا يرضخ للنعاس، ولكنّه لم يكن يجب أن يثور أكثر من اللازم.

– الكراهية تكون قويّةً بقدْر ما هو الحبّ، الفرق أنّه لا يكون علينا أن نطلب رأي الآخر.

شرب جرعةً كبيرةً من الماء بشفتيه الجافّتين لكي يطرّيهما.

– « فهمتك » . قال ليونيل : « ولكن لماذا مارك؟ » .

كان هذا سؤالاً يرغب بطرحه منذ مدّةٍ طويلةٍ؛ سؤالاً يوجّهه أيضاً إلى نفسه؛ لأنّه هو الآخر شعر بالبغض تجاه مارك، حتّى قبل أن يهرب مع مود .

– إنّه مثل الحبّ، كما قلت لك، لا نفهمه، لن نفهمه أبداً، ونجد أسباباً دائماً، لكنّها خاطئة .

فجأةً! شعر ليونيل بأنّ فوتييه يتنفّس بصعوبةٍ أكبر .

– « ليس هناك سوى شرط واحد » . أضاف بصوتٍ أجشّ ومنخفضٍ كان يخرجه بصعوبةٍ، كأنّه يصرّ على إيصال رسالته : « لكي نكره يجب أن نجد شخصاً يشبهنا » .

– أتجد أنّك ومارك تشبهان بعضكما؟

– ليس ذلك بمعنى المساواة، لكنّنا نتشابه؛ انظر إلى الناس هنا، إلى كراهيتهم، وهُم مختلفون عن بعضهم، لكنّهم يتشابهون .

أطلق فوتييه أنيناً طويلاً مسموعاً، يكاد يكون صرخةً مكبوتةً، ورأى ليونيل أنّه يمسك بمعدته .

– أتشعر بالألم؟

انطوى فوتييه على نفسه. يبدو أنّه شعر بألمٍ عميقٍ، فكان يقطع أنفاسه، كأنّه أكل ضربةً هائلةً في البطن، ودام التشنّج لمدّة ثوانٍ، ثمّ هدأ، فحار ليونيل : هل عليه أن

يتوقّف أم على العكس من ذلك؛ أن يصدر إشاراتٍ إلى الآخرين لكي يسرعوا، أملاً بأن يصلوا بأسرع وقتٍ ممكنٍ إلى المستشفى؟

– « على كلّ حال، قل له شيئاً من قبلي » . أكمل فوتييه بصوتٍ بالكاد مسموع : « قل له، أتقسم بذلك؟ » .

– لمن؟ لمارك!

– نعم .

– أقسم. ما هذا الشيء؟

– سيعرف هو من تلقاء نفسه بطريقةٍ، أو بأخرى، لكنّني أريده أن يسمعه على لساني .

– ماذا عليه أن يعرف؟

عاد الاختلاج، وكان فوتييه يمسك بطنه بيديه الاثنتين، وكان الدم ينزف من بين أصابعه المشدودة على الجرح .

– متفجّراته .

– ماذا؟

– عندما كنّا في المدينة، أتذكر عندما توقّفنا لقضاء الّليل؟

– في مركز الأمم المتّحدة؟

– نعم .

– ثمّ؟

– أزلناها؛ لم يكن بإمكاننا أن نغامر ...

– أتقصد؟

– لم يعد هناك شيء في شاحنته، لا شيء .

أودى بهم الطريق إلى المرور بجانب حصنٍ : واحد من القصور التي اشتهرت بها البوسنة في القرون الوسطى، طرقاتها الدائريّة، وأبراجها المسنّنة تطلّ منذ قرونٍ على

طرف واديَيْن، وكانت في الماضي خطّ مجابهةٍ، وصارت اليوم صحراويّةً، ولا يخطر على بال مهاجمٍ أن يمرّ منها، وتتحوّل جدرانها القديمة في الشتاء إلى ملجأ للغربان والطيور الجارحة .

والغريب أنّ هذه الآثار عوضاً عن أن تضفي نوعاً من الطمأنينة، حوّلت هذا المشهد الجامد إلى شيءٍ مؤلمٍ ومزعجٍ، صورة عن القوّة التي هزمها الزمن، هذا الحصن المعلّق على صخرته يجعل من أيّ جهدٍ شيئاً فانياً، وكذلك الانتصارات كلّها التي يحقّقها الإنسان لكي يتغلّب على الموت، وهذا التجاور يملأ الذهن بشعورٍ من الهشاشة، والبرد، والوحدة القصوى؛ كان الصمت يسود في قمرات المركبات كلّها .

هذا الصمت هو الذي سمح لفيليبوفيتش بسماع صوت زمّورٍ ضعيفٍ وراءه، ففتح نافذته، واستدار نحو نافذة عربة القيادة، كان الموكب قد توقّف، وصارت تفصله عن عربة القيادة قرابة مئات الأمتار، فأشار إلى السائق بأن يتوقّف، ونزل من العربة .

– « ابق هنا » . قال لأليكس الجالس في الخلف : « سأذهب لأرى ماذا يحصل » .

كان الثلج قد بدأ يذوب؛ ولهذا انغرست جزمة الجنرال فيه، وهو يسير على الطريق، وعندما اقترب من الموكب، رأى أنّ ليونيل قد نزل من شاحنته، واقترب من الشاحنة التي تقودها مود، واستند إلى الباب .

اقترب فيليبوفيتش من جهة مارك الذي فتح نافذته .

– ماذا يحدث؟

كان الثلاثة صامتين، ووجوههم مكفهرّة. هامت عينا ليونيل، الذي أسند ذراعه إلى نافذة مود، في الفراغ، وكان جنديٌّ كرواتيٌّ قد باعه بعضاً من الحشيش عندما كانوا في البيت، وقد لفّ منه لفافةً كبيرةً، وكان يدخّنها بشرقاتٍ عميقة .

– « لقد مات فوتييه » . قال مارك .

كان خبراً حزيناً جدّاً بالطبع، لكنّه لم يفاجئ فيليبوفيتش الذي كان يعرف مدى خطورة إصابته، وكان يظنّ أنّ الباقين يعرفون ذلك. لم يكن هذا الخبر مفاجئاً لهم أيضاً،

ولم يفهم صدمتهم تماماً، خاصّةً أنّه صار يعرف قصّتهم، ويعرف أنّ لديهم الأسباب كلّها لكره فوتييه .

– « خبرٌ مأساويٌّ بالتأكيد » . قال لهم : « لكنّكم كنتم تعرفون أنّ هذا سيحدث، أليس كذلك؟ » .

وبما أنّهم لم يجيبوا، خطرت له فكرة أُخرى؛ ربّما هُم يخافون التبعات القانونيّة لهذه الوفاة .

– لا يمكن لأحد أن يتّهمكم بشيء؛ كان دفاعاً مشروعاً عن النفس . . .

استمرّ الصمت سائداً، وليونيل يسحب دخانه على نحوٍ مسموع، وكانت مود قد وضعت وجهها بين يديها . وأخيراً تكلّم مارك، وهو يخفض عينيه :

– ليس الأمر كذلك .

– كيف إذنْ؟

– المتفجّرات . . .

– ما بها؟

– أنت تعرف أنّني عدت من أجل هذا؟

– « نعم، فهمت » . قال الجنرال بنبرةٍ رسميّةٍ نوعاً ما : « لقد أوحيت بذلك . شكراً . شعبنا المسكين، سيكون شاكراً لك بالفعل، لكم جميعاً . . . » .

بدا على مارك نفاد الصبر، وهو يحرّك ذراعه السليمة، فحرّك صدره، وشعر بالألم بسبب كتفه المجروحة، فكشر .

– لا، لا، لا تقل هذا . عندما ستعرف . . .

– سأعرف ماذا؟

– هذا الحقير فوتييه ورفاقه من الشرطة أخلوا الشاحنة من المتفجّرات .

– كيف ذلك؟

– كنّا قد توقّفنا لليلةٍ في المدينة في بناءٍ تابعٍ للأمم المتّحدة، والظاهر أنّهم قد استغلّوا ذلك لتفتيش الحمولة، وما قمنا به كلّه كان من أجل لا شيء .

كان من الواضح أنّه غير قادرٍ على البكاء، فالألم عنده أخذ شكل المزيد من الغضب الجافّ، وفكّر بالجسر الذي لن يكون بإمكانهم تدميره، والحرب التي ستستمرّ، وبعجز العالم، الذي لم يكن ليقبل به، فمدّ فيليبوفيتش يده، وشدّ على ذراعه .

– اسمع يا مارك، من الطبيعيّ أن تكون خائباً، فمنذ خمسة عشر يوماً كان خبر مثل هذا ليفقدني الأمل، ولكنْ كلّ شيءٍ تغيّر الآن .

– لا أفهم كيف تغيّر!

في هذه اللّحظة فقط فهم فيليبوفيتش أنّهم على الطريق منذ أسابيع، ويبدو أنّهم لا يعرفون، لقد تتالت الأحداث بسرعة إلى درجة...

– بالتأكيد، لا يمكن أن تكونوا قد عرفتم... إذنْ، حدثت مجزرة في (سارايفو) ، في سوقٍ عام، والإدانات الدوليّة كانت عامّة، وأخيراً قرّرت المجموعة الدوليّة أن تتحرّك، فدخل حلف الناتو في الحرب؛ طيرانه يقصف كلّ يوم .

كانت مود قد رفعت رأسها، ومارك حدّق فيه مذهولاً .

– وتصوّروا ما كان أوّل أهداف أحدهم؟ الجسر على الدريجنا!

– ذلك الذي كنّا نريد أن ندمّره بمتفجّراتنا؟

– هو بالذات. لم يبق منه شيء، ويجب أن تشاهدوا ذلك.

تبادل كلٌّ من مود ومارك نظرة شكّ، ولكنّ فيليبوفيتش، وقد ازداد انفعاله؛ تابع كلامه :

– لقد قصفوا الثكنات أيضاً، وكان حريّاً بكم أن تروا كيف هرب هؤلاء الحقراء؛ لم يعرفوا أين يختبئون، فالطائرة تهاجم المركبات، ومواكب الفرق، ومنصّات المدفعيّة، وكانت قوّاتنا تتقدّم في هذا الوقت؛ نحن نربح، هل تفهمون ذلك؟

– « السلام قريب » . قالت مود التي راح فكرها فجأةً عند الفتيات الصغيرات في البيت .

– « ولكنْ قبل ذلك النصر! » . زاود فيليبوفيتش .

كلمات مارك نفسها. نظرت إليه، وكانت عيناه مغلقتين، فانفرجت أساريره، وللمرّة الأولى رأت وجهه الّليليّ مضاءً بضوءٍ شاحبٍ لنهارٍ ثلجيّ .

ثمّ ساد استرخاءٌ عامٌّ فجأةً! وانفجر الجميع بالضحك، حتّى إنّ ليونيل تابع، وهو مستمرٌّ في الانحناء على النافذة .

أخرج فيليبوفيتش قارورةً من جيبه، وشربوا نخب هذه السعادة المستعادة من الهزيمة .

انتظر أليكس في هذه الأثناء الجنرال، فخرج بدوره من سيّارة الجيب القديمة، لكي يحرّك قدميه. كان قد بدأ يستوعب خبر زواج بوبا، وبدأ يشعر بألمٍ أقلّ، وتوتّرٍ أقلّ، فأعطته الصدمة التي تعرّض لها الانطباع بأنّه خارجٌ من سَكْرةٍ قويّةٍ، وبدأ يفهم أنّه عاش هذه الأسابيع الفائتة كلّها في حالةٍ غير طبيعيّة .

قام بعدّة خطواتٍ أمام حافلة القيادة، ونظر إلى بعيد. هبط المغيب، وغطّت أغلفة غير مرئيّة السماء بألوانٍ برتقاليّةٍ وخضراء، وكانت قمم الجبال داكنةً، وفجأةً! شاهد عند الجهة الشماليّة المثلّجة، سرباً من طيور الخواض متّجهةً نحو الجنوب، وكانوا يطيرون الواحد تلو الآخر، أقوياء بسلامٍ نحو وجهتهم البعيدة .

فكّر أليكس بأنّه هو الآخر ربّما يكون عليه أن يبحث عن مهجرٍ جديد، ولكنْ هذه المرّة بعيداً عن البرد، وعن هذه الجبال التي ظنّ أنّها له، بفضل وهْمٍ اسمه الحُبّ .

وقرّر، وهو يبتسم، أن يتّجه هو الآخر نحو الشمس .

تعقيب

قد يُذْهش بعضهم لاختياري المصطلح الإنجليزيّ Checkpoint (الحاجز) عنواناً لهذا الكتاب، فعلى النقيض من Checklist (لائحة) ، أو Checkup (فحص) ، فإنّ مصطلح Checkpoint لم يجد طريقه بعد إلى القواميس الفرنسيّة، ويبدو لي مع ذلك أنّه لا يوجد مرادفٌ حقيقيٌّ لهذه الكلمة، واستعمالها يفرض نفسه عالميّاً، بما في ذلك لغتنا، وترجمتها الرسميّة « نقطة تفتيش » ، أو « مركز تفتيش » غير مرضيةٍ؛ إذْ إنّها لا تخدم سوى معنى واحد من معانيها؛ ذلك المتعلّق بالأمور العسكريّة التقليديّة، مثل : نقطة تفتيش تشارلي الشهيرة، الفاصلة بين برلين الشرقيّة والغربيّة.

الحواجز التي نصادفها في أيّامنا هذه في عدّة أماكن من العالم، أقلّ تنظيماً بكثير، وتعبّر عن الفوضى، والعنف، والتقسيم الذي تشهده بلدانٌ تعيش حروباً أهليّةً في الشرق الأوسط، وإفريقيا، وأوروبا الشرقيّة. في مثل هذه الأوضاع غير الطبيعيّة، توجد الحدود في كلّ مكان، فالكلّ يصبح حارساً للأرض التي يعيش عليها، ويكفي شريطٌ معدنيٌّ مشدودٌ على عرض الطريق، وكوخٌ متداعٍ من أوراق شجرٍ، وأسلحةٌ بدائيّةٌ حتّى يتشكّل الحاجز.

بات الحاجز من وجهة نظرٍ مجازيّةٍ رمزاً للعبور من عالمٍ إلى آخر، ومن نظام قِيَمٍ محدّدٍ إلى نقيضه، للدخول إلى المجهول، وربّما إلى الخطر.

نشهد اليوم – خاصّةً بعد الاعتداء الإرهابيّ الذي أدمى فرنسا في 25 كانون الثاني/يناير – قلباً لهذا النظام، ونشعر بأنّنا أمام حدودٍ في الذهنيّة؛ فإحلال الأمن والأمان قد تغلّب على أيّة اعتباراتٍ أُخرى، وواهمٌ من يظنّ أنّ العمل الإنسانيّ سيبقى بعيداً عن هذه التحوّلات في العقليّة .

خلال نصف قرنٍ مضى كنّا نريد أن نكون رحماء، وكرماء، وخيّرين؛ وهي الصفات التي تلخّص العمل الإنسانيّ، وكانت النزاعات تحصل في أماكنَ أُخرى بعيدةٍ،

والمواطنون الذين كانوا يودّون هنا الانخراط في العمل الإنسانيّ، كانوا مدفوعين بالمُثل العليا التي وضعها هنري دونان لهذا العمل، وهي : الإنسانيّة، والتجرُّد، والحياديّة.

في السنوات الأخيرة، تحوّل هذا العمل الإنسانيّ المُسالم إلى انخراطٍ عسكريٍّ بعد أن قام المجتمع الدوليّ بتسليح الأهالي في سوريا، وليبيا، وأوكرانيا؛ بغية نجدتهم، فبدأوا بإسقاط الأغذية لهم بالمظلّات، ثمّ انتقلوا إلى إسقاط الأسلحة، وأمريكا التي ضربها الإرهاب قبلنا بخمسة عشر عاماً اعتمدت هذا الخطّ الهجوميّ منذ زمنٍ، في كوسوفو، وأفغانستان، والعراق؛ حيث كانت تقصف بالقنابل باسْم حقوق الإنسان، ومرّةً أُخرى أعطت أمريكا المثال، وها هي الدول الغربيّة كلّها تشعر بأنّها جاهزةٌ الآن لتحذو حذوها، وذلك لأنّ الضحايا أمسوا قريبين، وليسوا بعيدين، ومن يتألّم الآن ليس الآخر، بلْ نحن أنفسنا.

هذه التطوّرات لا تختصّ بالدول وجيوشها فقط، بلْ تتعلّق بكلّ واحدٍ فينا.

تسلّط هذه الرواية الضوء على هذه التناقضات، والتساؤلات، والشروخ، ضمن فضاءٍ مغلقٍ متحرّك. يعيش الشخوص الخمسة - في قمرَتَيْ قيادة الشاحنتين على نحوٍ مباشر - تصدُّعَ قناعاتهم، وتغيُّر مفاهيمهم، وهُم منخرطون في عملٍ إنسانيٍّ تقليديٍّ قائمٍ على تقديم الغذاء والدواء لمدنيّين يعانون من جرّاء حربٍ، ولكنْ إضافةً إلى عبورهم حواجز حقيقيّة، فهُم أيضاً يواجهون حدوداً ذهنيّةً أكثر أهميّة. إلامَ يحتاج الضحايا في الحقيقة : البقاء أم النصر؟ وما الذي يجب نجدته لديهم، الغريزة الحيوانيّة التي تطلب الطعام والسكن أم الشعور الإنسانيّ الذي يطلب وسائل الكفاح حتّى إنْ كلّفهم ذلك حياتهم؟

كي أوضح هذه المعضلات، اخترتُ أن أسيّر الشاحنتين على الأرض التي حصلت عليها حرب البوسنة؛ هذا الخيار سمح لي أن أحرّر الكتاب ممّا يمكن أن يجعل القصص مرتبطةً بواقعٍ متقلقلٍ؛ حيث التحوّلات المفاجئة سريعة الزوال يمكن لها أن تحجب الأسئلة الأساسيّة.

الحرب في يوغوسلافيا السابقة أصبحت من الماضي الآن، وشبه منسيّة، وليس من الضروري معرفة تفاصيلها حتّى يُفهم ما تعيشه شخوص الرواية؛ يكفي تتبّعهم لمعرفة ما يلزم معرفته.

هذه الحرب مثالٌ عن الفوضى فقط، ولا تطغى فيها أيّة غرابةٍ إفريقيّةٍ، أو آسيويّةٍ على مشاعر التأثُّر، والتمزّق يحصل هنا في أوروبا التي قرّر الجميع فيها التسلّح؛ لدرْء الخطر المحدق به، وفي هذا الماضي الذي أصبح بعيداً الآن شيءٌ من حاضرنا، وأخشى أن يكون فيه الكثير من مستقبلنا أيضاً.

تقدّم البوسنة لهذه الرواية فضاءها الشتائيّ الاستثنائيّ، الرتيب والرقيق، الذي لا يمكن اكتشافه إلّا من خلال الملاحظة المتأنّية. لقد سمحتْ لي البوسنة باستغلال ذكرياتٍ شخصيّةٍ مدفونةٍ عميقاً في ذاكرتي كنت أعتقد أنّها باتت منسيّة .

هنالك حادثةٌ معيّنةٌ تركتْ في نفسي أثراً شديداً :

هي الصدمة التي شعرت بها لمّا دخلت محطّة كاكاني الحراريّة بعد رحلةٍ طويلةٍ على متْن عربةٍ مصفّحةٍ وغير مريحةٍ في إحدى شتاءات هذه الحرب؛ فصمْت الآلات المتوقّفة عن العمل، ونعيق الغربان التي تحلّق فوق الموقع، والثلج الوسخ فوق الهنغارات السوداء ذوات أسقف التوتياد المتموّج، كانت كلّها توحي بمشهدٍ من نهاية العالم، ومنعاً لحصول مجازر، كانت تحرس المكان كتيبةٌ من القبّعات الزرق من سلاح الهندسة الفرنسيّ، وحين فتح لي جنديّ أحد أفران الفحم الكبيرة، ورأيت داخله عائلةً من اللاجئين تستند بسَكينةٍ إلى معدن الفرن شبه الدافئ، شعرت بحجم المأساة التي كانوا يعيشونها، ولكنْ في الوقت نفسه، شعرت بأنّ المجنّد الفرنسيّ، من النظرة التي كان يرمق بها إحدى الفتيات داخل الفرن، كان على علاقةٍ عاطفيّةٍ معها، ففي خضمّ الوحشيّة إذنْ ما زال هنالك أمل بالإنسانيّة، والتحوّلات كلّها ممكنة؛ فأولئك الذين أتوا لحماية الأهالي، باتوا يمارسون الحُبّ عوضاً عن القتال، ومن الواضح أنّه باسْم الحُبّ هذا يمكن لهم أن يعودوا يوماً مستقلّين؛ ليقاتلوا بالفعل. عاهدت نفسي أن أحيل هذا المشهد إلى مادّةٍ روائيّةٍ، ولكنّني نسيت.

تغيّر العالم في تلك الأثناء، وعلى نحوٍ سريع؛ هنالك الآن ضحايا جُدد : مسيحيّو المشرق، ورسّامو تشارلي، وفتيات نيجيريا المخطوفات، والرهائن الذين يُذبحون في سوريا، والذين أرى من خلالهم الوجه الذي قابلته في كاكاني؛ وجه عروس الأفران.

هُم ضحايا نودُّ أن نُظهر حُبّنا الخاصّ لهم، الحُبّ الذي يدفع على حمْل السلاح.

جان كريستوف روفان

ولد في 28 يونيو عام 1952 في بورج في مقاطعة شير، وهو طبيبٌ، ومؤرّخٌ، وكاتبٌ، ودبلوماسيٌّ فرنسيّ. وعينته فرنسا سفيراً لها في السنغال وغامبيا. عمل لأكثر من عشرين عاماً في الحقل الإنساني لصالح المنظمات غير الحكومية في نيكاراغوا، وأفغانستان، والفلبّين، ورواندا، والبلقان، وترأس منظمة ACF، « العمل ضد الجوع » . وقد تناول الكاتب بالدراسة من خلال تجربته على الأرض، دور المنظمات غير الحكومية في حالات الصراع، خاصّةً في دراسته الأولى، « الفخ الإنسانيّ » (1986) ، وهي مقالةٌ عن التحدّيات السياسيّة التي تواجه العمل الإنسانيّ، ومفارقات الحركات « بلا حدود » ، التي من خلال مساعدة الشعوب، تقوم بتوطيد أراكان لعبة الحُكّام المستبدّين. وأيضاً في الرواية الثالثة، الأسباب المفقودة (1999) ، تدور كتاباته حول أدب المغامرة والرواية التاريخية والسياسية، ويمكن تشبيهها بأدب الرحلات، معظم أحداثها من التاريخ، وله كذلك روايات استشرافية. حاز جان كريستوف روفِن على العديد من الجوائز عن أعماله الأدبية، ففازت روايته الأولى « الحبشي » بجائزة غونكور للرواية الأولى عام 1997، كما حصلت روايته « البرازيل الحمراء » عام 2001 على جائزة غونكور أيضاً. وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية في 19 يونيو 2008 ليصبح أصغر الأعضاء فيها سناً. حازت رواية الطوق الأحمر على جائزتين : الأولى جائزة الأطباء عام 2014، وجائزة موريس جنيفوا لمدينة غارش في العام نفسه .

د .معن السهوي

أستاذٌ مساعدٌ في قسم الدراسات الفرنسيّة في جامعة براون بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، ومدرّسٌ سابقٌ بجامعة دمشق، حاصلٌ على شهادة الدكتوراه في الرواية الفرنسيّة الحديثة .

صدر له مؤلّفان باللّغة الفرنسيّة عن الرواية الفرنسيّة المعاصرة، وعدّة ترجماتٍ بالعربيّة .

د . ماري إلياس

أستاذة جامعية . درّست سابقاً في جامعة دمشق، والمعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق – سوريا . وتدرّس حالياً في الجامعة اليسوعية في بيروت – لبنان .

صدر لها عدة مؤلّفات وترجمات، من أبرزها : « المعجم النقدي المسرحي » ، مع د . حنان قصاب حسن، وجزءان من « أنتولوجيا المسرح الفرنسي الحديث » .

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

